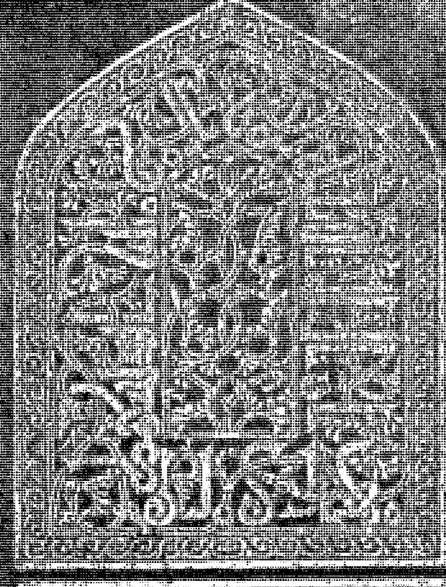


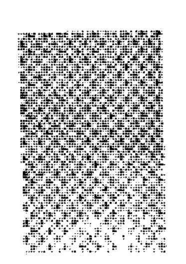


رحلة إلى الشرق

الجزء الثالث

تأليف : الكاتب الفرنسي
جيرار دي نرفال
ترجمة : دكتور عبد السلام الجعبري
مراجعة : دكتورة سهير القلماوي

الجـزء الثالث



رحلة إلى الشرق

للكاتب الفرنسى چيرار دى نرڤال

ترجمة : دكتورة كوثر عبد السلام البحيرى

مراجعة : دكتورة سهير القلماوى

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

ليالي رمضان

استامبول - بيرا

١ ـ سوق السمك

القسطنطينية ، يالها من مدينة غريبة ! مدينة تتكون من الفخامة والبؤس ، من الدموع والافراح . ان الظلم فيها أكثر منه فى سواها وكذلك الحرية . ذلك أن أربعة شعوب مختلفة تعيش فيها دون أن يكون كرهها بعضها للبعض كبيرا ، فالاتراك والأرمن واليونانيون واليهود أبناء ارض واحدة ويتحملون بعضهم البعض أكثر مما يتحمل فى بلادنا ابناء المقاطعات المختلفة أو أفراد الأحزاب المختلفة بعضهم البعض .

هل كان مقدرا لى أن أشهد الفصل الأخير من التعصب والبربرية التى تمارس بمقتضى العادات الاسلامية القديمة ؟ (١) ولقد التقيت فى بيرا بواحد من أعز أصدقائى القدامى وهو رسام فرنسى يعيش هنا منذ ثلاث سنوات حياة غاية فى الترف وذلك مما يربحه من صوره ولوحاته (٢) مما يثبت أن القسطنطينية ليست على خلاف شديد كما يعتقد الناس مع ربات الفن . وكنا قد رحلنا من بيرا ، تلك المدينة الافرنجية ، لنذهب الى أسواق استنبول المدينة التركية .

وبعد أن عبرنا باب غلطة الحصين كان ما زال علينا أن نهبط شارعا طويلا ملتويا يحيط به من الجانبين الملاهى وبائعو الحلوى والحلاقون والجزارون والمقاهى الافرنجية التى تذكرنا بمقاهينا والتى ترى موائدها محملة بالصحف اليونانية والأرمينية ، ويصدر منها خمس أو ست فى القسطنطينية وحدها بخلاف الصحف اليونانية التى تأتى من المورة

---

(١) يخلط نرفال دائما بين الدين والعادات التى تأصلت فى بعض الشعوب باسم الدين وهو منها براء .

(٢) انه الرسام كامى روجييه .

وهنا يحدث لكل مسافر أن يرجع الى معلوماته فى اليونانية ليلتقط بعض كلمات من هذه اللغة الحية التى تتجدد كل يوم . وتتعمد أغلب الصحف الابتعاد عن اللهجة الشعبية الحديثة وتزداد تقربا من اليونانية القديمة لدرجة انها بهذه الطريقة تصل الى حد ألا يفهمها أحد . ونجد هنا كذلك بعض الصحف الفالاشية والعربية المطبوعة بلغة رومانيا وهى أسهل بالنسبة لنا كثيرا من اللغة اليونانية لانها مختلطة بقدر كبير من الكلمات اللاتينية . وتوقفنا لحظات فى أحد هذه المقاهى لنتناول قدحا من «الجلوريا» المسكرة(١) التى لا يعرفها أصحاب المقاهى التركية . ونجد أبعد من ذلك سوق الفاكهة التى تعرض عينات منها رائعة لخصوبة الريف المحيط بالقسطنطينية . وأخيرا ، واذا استمررنا فى الهبوط خلال الشوارع الملتوية والمزدحمة بالمارة فاننا نصل الى السلم الذى نبحر منه الى القرن الذهبى ، ذلك الخليج الذى يبلغ عرضه ربع فرسخ ويبلغ طوله فرسخا واحدا تقريبا . وهو أجمل وآمن مرفأ فى العالم ويفصل استنبول عن الضاحيتين بيرا وغلطة .

ان هذا الميدان الصغير يعج بحركة مرور غير عادية . ونجد به من ناحية الميناء مهبطا الى السفن من الالواح الخشبية ويحيط به القوارب الطويلة الضيقة الانيقة ويرتدى النوتية ممن يقومون بالتجديف قمصانا من الحرير ذات أكمام طويلة تمتاز بطريقتها جد أنيقة فى التفصيل . وتنساب زوارقهم بسرعة بفضل شكلها الذى يحاكى شكل السمكة وتنزلق دون ما صعوبة بين مئات السفن من جميع البلدان التى يمتلىء بها مدخل الميناء .

وفى عشر دقائق بلغنا السلم المقابل الذى يتصل بسوق السمك وهنا شهدنا منظرا فريدا . فلدى احدى نقط التقاطع الضيقة بالسوق كان جمع خفير من الناس قد التقوا فى دائرة . فظننا لأول وهلة أن الأمر يتعلق بعرض للحواة أو برقص الدببة . ولما شققنا الجمع رأينا جسدا مقطوع الرأس ملقى على الأرض وقد أرتدى سترة وسروالا من لون أزرق . وكانت الرأس مغطاة وموضوعة بين الساقين المنفرجتين قليلا . والتفت الينا أحد الاتراك وقال لنا وقد عرف أننا فرنسيون : « يبدو أنهم هنا يقطعون هكذا من يرتدون القبعات » .

ويعتبر التركى ان « الكاسكيت » والقبعة من الامور الكريهة اذ أنه من المحظور على المسلمين ارتداء غطاء رأس ذى حافة أمامية مادام يجب

---

(١) شراب لم يذكر عنه نرفال مزيدا من التفصيلات .

أن تمس جباههم الأرض أثناء تأديتهم للصـــلاة مع احتفاظهم بغطاء رءوسهم . وابتعدنا فى تقزز عن هذا المشهد وذهبنا الى السـوق . وعرض علينا أحد الأرمن أن نتناول المرطبات فى حانوته وقص علينا قصة هذه الطريقة الغريبة للاعدام .

ان هذا الجسد مقطوع الرأس الذى شاهدناه كان معروضا هنا منذ ثلاثة أيام فى « سوق السمك » مما استاء له بائعو السمك . وكان الجسد لأحد الأرمن ويدعى يواقيم . وكان قد ضبط منذ ثلاث سنوات مع امرأة تركية . وفى مثل هذه الاحوال عليه أن يختار بين الموت واعتناق الاسلام . أما بالنسبة للاتراك فلا عقاب لهم الا ضربات العصا . واعتنق يواقيم الاسلام .

وبعد ذلك أنبه ضميره لأنه استسلم للخوف فانسحب الى جزر اليونان حيث أرتد عن دينه الجديد .

وبعد ذلك بثلاث سنوات ظن أن مسألته قد طواها النسيان فعاد الى القســطنطينية فى لباس افرنجى . وأبلغ عنه بعض المتعصـبين واضطرت السلطات التركية رغم تسامحها الشديد فى ذلك الوقت الى تطبيق القانون . وتدخل القناصل الأوربيون لصالحه ولكن ماذا يمكن عمله والنص صريح ؟ والقانون فى الشرق مدنى ودينى على السـواء والقرآن والقانون شىء واحد . وهكذا اضطرت العدالة التركية الى الرضوخ لتعصب الطبقات الدنيا الذى كان ما زال عنيفا . وعرضوا فى بادىء الأمر على يواقيم أن يمنح الحرية نظير عودته مرة ثانية الى الاسلام ولكنه رفض . فعرضوا عليه ما هو أكثر من ذلك بأن سهلوا له سبيل الفرار . ولكن ياللغرابة ! قد رفض ذلك أيضا قائلا انه لايستطيع الحياة الا فى القسطنطينية وأنه يموت من الحزن لو تركها أو يموت من الخجل لو بقى فيها نظير عودة جديدة الى الاسلام . وهكذا تم تنفيذ الاعدام فيه . وقد اعتبره الكثير من أبناء دينه قديسا واحرقوا الشموع تحية له .

وقد أثرت فينا تلك القصة تأثيرا كبيرا . فقد أدخل القدر فيها ظروفا تجعل تلك النهاية أمرا محتوما وفى مساء اليوم الثالث لعرض الجسد فى « سوق السمك » حمله ثلاثة يهود ، حسب العادة المتبعة ، على اكتافهم وألقوا به فى البسفور بين الـكلاب والخيول الغريقة التى يلفظها البحر هنا وهناك على الشاطىء .

ولست أود مطلقا ، بناء على هذه القصة المؤلمة التى شاء حظى السيىء أن أشهدها أن أشـك فى الاتجاهات التقدمية لتركيا الحديثة . اذ أنه يحدث هنا كما يحدث فى انجلترا أن يشل القانون جميع الارادات وجميع العقول حتى لا يمكن أن يفسر تفسيرا أفضل . ولم يتبق اليوم من الأمور التى تؤدى الى مثل هذه الاحداث التعسة الا الزنا والردة .

وجبنا الأسواق الرائعة التى يتكون منها قلب مدينة استنبول . وهى تيه كامل متين البناء من الحجارة ذو ذوق بيزنطى يجد فيه المرء ملجأ فسيحا يحميه من حرارة النهار . وثمة أروقة كبيرة بعضها مقوسة وبعضها ذات أقواس مدببة وأعمـدة منحوتة وأخرى مبنية قـد خصص كل منها الى نوع معين من البضائع . وان المرء ليعجب بصفة خاصة بالملابس وأخفاف النساء وبالأقمشة المطرزة واللامعة والكشمير والطنافس وقطع الأثاث المطعمة بالذهب والفضة والصدف والمصوغات ، بل وكذلك بالأسلحة اللامعـة التى تجمعت فى هـذا الجزء من السوق الذى يسمى بالبزستان .

ويقودنا أحد أطراف هذه المدينة التى تقع تحت الأرض الى مكان لطيف جدا تحيط به الابنية والمساجد ويسمى ميدان السيراسكييه . انه مكان النزهة بالنسبة لوسط المدينة وتكثر النساء والاطفال من ارتياده . والنساء فى استنبول اشد تزمتا فى الحجاب ممن فى بيرا . وهن يرتدين « الفراجية » الخضراء أو البنفسجية ويسـدلن على وجوههن خمارا من الحرير الكثيف . ومن النادر أن يكشفن عن شىء غير أعينهن وبداية انوفهن . أما الأرمنيات واليونانيات فيحطن ملامحهن بمنسوج أخف من ذلك كثيرا .

ويشغل الكتاب وصناع التماثيل الصغيرة والكتبية جانبا بأكمله من الميـدان . وتضفى المسـاجد المجاورة الرشيقة البنـاء والتى زرعت أفنيتها بالأشجار وترتادها آلاف الحمائم التى تأتى وترفرف أحيانا على الميدان ، والمقاهى وواجهات الحوانيت الحافلة بالمجوهرات وبرج سيراسكييه المجاور الذى يشرف على المدينة بأكملها ، بل وأبعد من ذلك مشهد السراى القديمة بجدرانها الكئيبة حيث تسكن السلطانة الأم .. كل ذلك يضفى على هذا الميدان طابعا مليئا بالطرافة .

٣ ـ السلطان

حينما كنت أهبط نحو الميناء رأيت السلطان فى عربة مكشوفة جد غريبة فى شكلها . لقد كان ثمة جوادان الواحد تلو الآخر يجران هذه العربة ذات العجلتين التى تتميز بغطاء مربع كالمظلة يتهدل منه الى الأمام جانب من القطيفة ذات النقوش الذهبية · وكان السلطان يرتدى « الرذنجوت » البسيط ذا الأزرار التى تصل الى الرقبة والذى اعتدنا أن نراه على الاتراك منذ عهد الاصلاح · وكانت العلامة الوحيدة التى تميز شخصيته هى شعاره الامبراطورى المطرز بالاحجار اللامعة على طربوشه الأحمر · لقد كان ثمة شعور بالكآبة مرتسم على وجهه الشاحب المرموق · وبحركة آلية رفعت قبعتى لتحيته ، ولم يكن ذلك فى واقع الأمر سوى مجاملة يوجهها أجنبى لا الخوف من أن أعامل معاملة الأرمينى الذى رأيناه فى « سوق السمك » ... وحينئذ نظر الى السلطان باهتمام لاننى أظهرت بذلك جهلى بالتقاليد فان العرف يقضى بعدم توجيه التحية للسلطان .

وقال لى رفيقى الذى افتقدته لحظة بسبب الزحام : « لنتبع السلطان فهو ذاهب مثلنا الى بيرا . الا أنه لابد أن يعبر القنطرة المقامة على القرن الذهبى · ان هذا هو أطول الطرق الا أن المرء لا يحتاج فيه الى ركوب القوارب ،والبحر فى هذه الآونة مضطرب بعض الشىء » .

وأخذنا نتبع العربة المكشوفة التى أخذت تهبط ببطء شارعا طويلا تحف به المساجد والحدائق الفناء من الجانبين . وفى نهاية هذا الشارع، وبعد أن يلف المرء بعض اللفات نصل الى حى الفنار الذى يقطنه التجار اليونانيون الأثرياء وكذلك أمراء هذا البلد · وكثير من منازل هذا الحى

تعتبر بحق من القصور الرائعة . وكانت بعض الكنائس المزينة من الداخل بالرسوم الحديثة تحتمى بظل المساجد شاهقة الارتفاع فى قلب استنبول ذاتها تلك المدينة ذات الطابع التركى المتميز .

وفى أثناء الطريق كنت اتحدث الى صديقى عن الانطباع الذى أحدثه في نفسه هيئة عبد المجيد التى لم أكن أتوقعها ، وصفاء نظرته العميقة التى كانت تبدو كأنها تعاتبنى لأننى حييته كما يحيى الناس الملوك العاديين . ان هذا الوجه الشاحب الناحل وهاتين العينين اللوزيتين اللتين تلقيان نظرة دهشة من خلال أهدابها الطويلة يخففها مع ذلك مايتسم به من حسن الطوية ، وهيئته الهادئة وقامته المشوقة كل ذلك أعدنى اعدادا طيبا في صالحه . وقلت لرفيقى : « كيف استطاع أن يأمر باعدام هذا الرجل المسكين الذى رأينا جسده مقطوع الرأس فى « سوق السمك » ؟ .

فقال لى : « انه لا يملك من أمر ذلك شيئا . فنفوذ السلطان أكثر قيودا من نفوذ الملك الدستورى . وهو مضطر الى مراعاة نفوذ العلماء الذين يشكلون فى آن واحد الهيئتين القضائية والدينية فى البلاد، كما هو مضطر كذلك لمراعاة الشعب الذى يعبر عن اعتراضاته بالثورات والحرائق . وهو يستطيع بلا شك بواسطة القوات المسلحة التى تحت يديه والتى كانت هى التى تقضى فى غالب الأمر على أجداده (١) أن يأتى عملا فرديا . ولكن من يحميه بعد ذلك من السم وهو سلاح المحيطين به أو الاغتيال وهو سلاح الجميع ؟

وهو مضطر فى جميع أيام الجمعة الى التوجه الى أحد المساجد وسط جموع الشعب حيث يؤدى الصلاة وذلك حتى يستطيع كل حى من أحياء المدينة ان يراه على التوالى . وهو يتوجه اليوم الى تكيه بيرا وهى مقر « الدراويش الراقصين » (المولوية) .

ولقد قدم لى صديقى بعض التفصيلات الأخرى عن موقف هذا الأمير ، مما فسر لى بعض الشىء تلك الكآبة المرتسمة على سمات وجهه. وفى الواقع ربما يكون هو الوحيد بين الاتراك الذى يحق له أن يشكو من عدم المساواة فى المراكز . وانها لفكرة ديمقراطية حقة تلك التى أوحت

---

(١) يضيف نرفال فى الهامش الملاحظة التالية : «والتى تقضى عليه» .

الى الاتراك أن يضعوا على رأس دولتهم رجلا يعتبر فى وقت واحد فوق الجميع ومختلفا عن الجميع . (١)

انه الشخص الوحيد فى امبراطوريته الذى يحظر عليه أن يتزوج زواجا شرعيا . فلقد خشى الأتراك النفوذ الذى تمنحه مصاهرة سامية كهذه لبعض الأسر .

كما أنه لا يستطيع الزواج بأجنبية . ولذا فقد ألفى نفسه محروما من الزوجات الأربع الشرعيات اللاتى منحهن النبى محمد لكل مؤمن يستطيع اعالتهن . أما سلطاناته اللاتى لا يستطيع أن يطلق عليهن زوجاته فلسن فى العادة سوى جاريات . ونساء الامبراطورية التركية جميعا من أرمينيات الى يونانيات الى كاثوليكيات الى يهوديات يعتبرن حرات . وهو لا يستطيع أن يملأ حريمه الا من بلاد غريبة عن الاسلام لا تقوم بينه وبين سلاطينها علاقات رسمية .

وفى الوقت الذى كان فيه الباب العالى في حرب مع أوربا كان حريم السلطان آهلا بشكل عجيب . فلم تكن تنقصه الحسناوات البيضاوات والشقراوات والدليل على ذلك تلك التى تدعى روكسلان وهى فرنسية ذات أنف طرفه متجه الى أعلى . ولم تكن تلك من بطلات المسرح وتستطيع أن ترى نعشها المغطى بالكشمير ويظله ريش النعام مسجى بالقرب من نعش زوجها فى مسجد السليمانية . أما اليوم فلم يعد فى امكان هذا السلطان سيىء الحظ أن يحصل على أية فرنسية ولا حتى أية أوربية . ولو أنه تجاسر وأمر باختطاف احدى غوانى بيرا اللاتى يرتدين آخر المستحدثات الأوربية فى نزهات يوم الأحد لانهالت عليه الاحتجاجات الديبلوماسية من السفراء والقناصل وربما تسبب ذلك فى حرب أطول من تلك التى أثارها فى الماضى اختطاف هيلين .

وحينما يمر السلطان فى بيرا تتدفق جموع النساء اليونانيات لرؤيته . وحينئذ عليه أن يبعد عينيه عن أى اغراء لأن نظام القصر لا يبيح له العشيقات العابرات ولن يكون له الحق فى احتجاز امرأة حرة

---

(١) ثمة ملاحظة يضيفها نرفال اذ يقول : « وتحت الجميع » .

المولد . ولا بد انه قد أصابه الملل سريعا من الشركسيات وفتيات الملايو أو الحبشيات ، وهن وحدهن اللاتى تنطبق عليهن الشروط اللازمة للعبودية ، كما انه لابد قد هزه الشوق للشقراوات الانجليزيات أو الفرنسيات اللبقات . ولكن تلك هى الفاكهة المحرمة .

ولقد أخبرنى رفيقى كذلك عن العدد الراهن للنساء فى السراى . وهو رقم يبعد كثيرا عما يفترضه الناس فى أوربا . ان حريم السلطان لا يضم الا ثلاثا وثلاثين سيدة ليس بينهن سوى ثلاث فقط يعتبرن محظيات . أما باقى نساء القصر فلسن سوى وصيفات . ان أوربا اذن تعطى معنى خاطئا لكلمة وصيفة . وكذلك فثمة عدد من الراقصات والمغنيات الا أنهن لا يرقين الى طبقة السلطانات الا اثر نزوة من نزوات السلطان أو بخروجه عن التقاليد المتبعة . وهكذا فان السلطان وقد اضطر ألا يتخذ من النساء سوى الجاريات هو نفسه ابن جارية ، وتلك ملاحظة لايقتصد الأتراك فى توجيهها اليه في لحظات السخط الشعبى .

وأخذنا نوالى ذلك الحديث ونحن نكرر من حين لآخر: «ياللسلطان المسكين ! وفى تلك الأثناء هبط من عربته الى رصيف الفنار لأنه لايمكن المرور بالعربة على القنطرة التى تعبر القرن الذهبى لدى أكثر مواضعه ضيقا . وهنا يجد المرء قنطرتين مرتفعتين الى حد ما قد أعدا لمرور القوارب . وامتطى السلطان صهوة جواده ولما وصل الى الشاطىء الثانى سلك الطرق الجانبية الضيقة التى تحاذى الاسوار الخارجية لحى غلطة مارة بساحة الموت الصغيرة التى تظللها أشجار السرو الضخمة حتى يصل الى الشارع الكبير فى بيرا . وكان الدراويش فى انتظاره وقد اصطفوا فى فنائهم حيث كان من المستحيل بالنسبة لنا أن ندخل . تلك اذن هى التكية التى يوجد بها قبر الكونت دى بونفال الشهير ، والذى تخلى عن دينه المسيحى واعتنق الاسلام وظل لفترة طويلة على رأس الجيوش التركية وحارب فى ألمانيا ضد الجيوش المسيحية . وكانت زوجته ، وهى من مدينة البندقية وقد تبعته الى القسطنطينية ، تقوم له بدور المساعد فى معاركه .

وبينما كنا متوقفين لدى باب التكية صعد الشارع موكب جنائزى يتقدمه القساوسة اليونانيون متجها صوب الطرف الخارجى للحى الا أن حرس السلطان أمر القساوسة بالتراجع فقد يخرج السلطان فى أية لحظة وليس من اللائق أن يتقابل هكذا مع الجنازة . ومرت لحظات من التردد . وأخيرا قام رئيس القساوسة وكان مرتديا تاجه ذا الطراز الامبراطورى وثيابه البيزانطية الطويلة الموشاة بالزينات المعدنية البراقة ويبدو فيها مختالا كشارلمان قام بتوجيه الاعتراض الى رئيس الحرس . ثم استدار نحو قساوسته وقد بدأ عليه الغضب وأشار اليهم بيده اشارة تدل على وجوب الاستمرار فى الطريق وعلى انه اذا خرج السلطان فى هذه اللحظة فعليه هو أن ينتظر حتى يمر الميت .

وانى أذكر هذا التفصيل كمثل للتسامح القائم فى القسطنطينية بالنسبة للاديان المختلفة .

---

(١) الكونت دى بونفال (١٦٧٠ ــ ١٧٤٧) كان ضابطا فرنسيا من ضباط البحرية وقد اشترك فى أول حياته فى معارك ضد الاتراك كمعركة بلجراد . واثر مبارزة بسبب الشرف ذكر فيها اسم ملكة اسبانيا وهى تمت له بصلة قرابة بعيدة حكم عليه بالسجن فهرب واعتنق الاسلام ولجأ لتركيا حيث قربه السلطان محمود اليه واشترك فى اعادة تنظيم الجيش وحصل على عدة ألقاب . ثم ما لبث أن أصبح أقرب المقربين الى السلطان وكان له دور كبير فى السياسة العالمية ابتداء من سنة ١٧٣٠ .

٣ - ساحة الموت الكبيرة

انى أستشعر بعض الحرج في التحدث كثيرا عن الجنازات والجبانات فى مدينة القسطنطينية تلك المدينة الضاحكة الرائعة التى لا ينبغى أن توحى آفاقها المتموجة الخضراء ومنازلها المطلية ومساجدها شديدة الأناقة بقبابها المصنوعة من القصدير ومآذنها الرقيقة الا بأفكار المتعة والاحلام الهادئة · الا أن الموت نفسه فى هذا البلد يأخذ طابع العيد · وان الموكب اليونانى الذى كنت أتحدث عنه الآن لا يحمل شيئا من المظهر الجنائزى الذى تتسم به مراسم الدفن لدينا · فالأساقفة ذوو الوجوه المضيئة والملابس المتألقة بما عليها من وشى وتطريز وما يليهم من رجال الدين الشبان بملابسهم الطويلة ذات الألوان الزاهية ثم أصدقاؤهم وقد ارتدوا أغلى ما لديهم من ثياب ، ثم فى الوسط الفقيدة وهى ما زالت فى سن الشباب ، وهى شاحبة كالشمع الا ان وجهها يطلى بالمساحيق وقد سجى جسدها فوق الزهور وحلى رأسها باكليل من الورد وارتدت أجمل ما لديها من المخمل والأطلس وتحلت بكمية كبيرة من الحلى الماسية التى ربما لا تترك معها فى القبر · ذلك هو مشهد ذلك الموكب الذى يتسم بالكآبة أكثر مما يتميز بالآسى ·

أما المنظر الذى نراه من تكية الدراويش الراقصين فيمتد على ساحة الموت الصغيرة التى تهبط ممراتها الغريبة نحو البحر حتى مبانى البحرية · وثمة مقهى يحب الدراويش الجلوس فيه ، وهم أناس ذوو طبيعة مرحة وحديث لطيف ، وهذا المقهى يمد صفوف موائده ومقاعده فى مواجهة التكية ، ويأتى الناس اليه لتناول القهوة وهم يدخنون النرجيلة والشبق · وهناك يتمتع الناس برؤية المارة من الأوربيين وكثيرا ماتمر مواكب أثرياء الانجليز والسفراء من هذا الشارع وكذلك العربات المذهبة تحمل النساء

والتي تشبه عربات اليد التي تجرها غاسلات الملابس لولا ما يضفيه عليها طلاء الذهب من مظهر لطيف • وهــــذه العربات تجرها الثيران ، ومن مميزاتها أنها تستطيع فى سهولة ويسر أن تحمل حريما بأسره ذاهبا الى الريف ولا يرافق الزوج أبدا زوجاته فى تلك النزهات التى غالبا ما تتم يوم الجمعة ، وهو يوم الأحد بالنسبة للاتراك •

وفهمت من الزحام ومن ارتفاع مستوى الجمهور أن الجمع يتوجه نحو حفل ما ربما كان مكانه فيما وراء الضواحى • وكان رفيقى قد تركنى ليتناول غذاءه لدى بعض الأرمن الذين طلبوا اليه رسم احدى اللوحات ، كما كان قد تفضل ودلنى على مطعم لأحد سكان فيينا ويقع فى أعالى بيرا • وان المرء ليجد نفسه ، ابتداء من التكيه والمساحة الخضراء التى تمتد فى الجهة الأخرى من الشارع فى حى باريسى صميم • فلا يصادف طيلة ربع فرسخ الا حوانيت متألقة لبائعات المستحدثات وبائعى المجوهرات والحلوى والملابس الداخلية والفنادق الانجليزية والفرنسية والكتاتيب والمقاهى • وتطل واجهات أكثر القنصليات كذلك على هذا الشارع • وأكثر ما تميزه العين هو ذلك القصر الضخم المبنى كله بالحجارة والذى تشغله السفارة الروسيه • وفى الامكان تحويله وقت الحاجة الى قلعة يخشى بأسها تسيطر على الضواحى الثلاث :

بيرا وطوقانا وجالاتا • أما السفارة الفرنسية فتقع فى مكان أقل من ذلك ، فى شارع يهبط نحو طوقانا • أما هذا القصر الذى تكلف الملايين الكثيرة فلم يتم بناؤه بعد •

واذا تبعنا ذلك الشــارع وجدناه يتسع فيما بعد وصادفنا الى اليسار المسرح الايطالى الذى يفتح أبوابه مرتين فى الأسبوع فقط • ثم بعد ذلك تأتى المنازل البورجوازية الجميلة التى تطل على حدائقها . ثم الى اليمين مبانى الجامعة التركية والمدارس الخاصة • ثم أبعد من ذلك الى اليسار تجد المستشفى الفرنسى •

وينتهى الحى فيما وراء تلك النقطة حيث يمتلىء الطريق الفســيح بباعة المقليات وتجارة الفاكهة والبطيخ والسمك • وتبدأ المــلاهى فى الظهور فى حرية أكثر مما فى المدينة ، وهى عادة ذات أبعاد كبيرة • فهى تبدأ بقاعة فسيحة تشبه داخل المسرح ، وهى ذات رواق مرتفع يحيط به دربزين من الخشب • وفى أحد جوانبه تجد نضــدا يباع عليه النبيذ الأبيض والأحمر فى زجاجات ذات أفواه كاباريق يحملها كل شارب الى المائدة التى يختارها • وفى الجانب الآخر تجد فرنا كبيرا محملا بالمشهيات

توزع على الناس في صحون تحمل كذلك الى الموائد . وحينئذ ينبغي التعود على الأكل على هذه القطعة الصغيرة من الآثاث التي لا ترتفع الى الركبة . والجمهور الذى يتزاحم على هذا النوع من الاماكن لا يتكون الا من اليونانيين ، الذين تعرفهم بطرابيشهم التى تصغر طرابيش الاتراك ومن اليهود الذين يرتدون العمامات الصغيرة المحاطة بقطعة من القماش الرمادى، والأرمن ذوى « الكلبك » (١) البشع الهائل الذى يبدو كغطاء رأس الجنود قاذفى القنابل اليدوية وقد تورم من أعلى . أما المسلم فلا يجرؤ على الدخول علنا الى هذه الحانات .

ولا ينبغي أن توحى الينا أغطية الرأس هذه التى تميز كل جنس لا سيما فى الأوساط الشعبية بأن تركيا ما زالت كما كانت فى الماضى بلدا لا مساواة فيه . وقديما كانت الأحذية ، شأنها فى ذلك شأن أغطية الرأس تدل على ديانة كل ساكن من السكان . وكان الأتراك وحدهم هم الذين يملكون حق ارتداء الأحذية الصفراء بينما الأرمن يلبسون الاحذية الحمراء ويلبس اليونانيون الاحذية الزرقاء واليهود الاحذية السوداء . وكذلك كان المسلمون وحدهم هم الذين يملكون الملابس الزاهية الفاخرة . بل حتى المنازل كانت تشارك فى هذه التفرقة ، وكانت منازل الأتراك تتميز بألوانها الزاهية أما منازل الآخرين فلا يمكن أن تطلى الا بالألوان القاتمة . أما اليوم فقد تغيرت الحال وأصبح لكل رعية من رعايا الامبراطورية الحق في ارتداء الزى الشبيه بالأوربى الذى يتميز به عهد الاصلاح وأن يغطى رأسه بالطربوش الأحمر الذى يختفى جزء منه تحت الحرير الأزرق الغزير حتى ليبدو كالشعر الأزرق .

هذا هو ما اقتنعت به وأنا أرى عددا كبيرا من الناس يتوجهون فى هذا الزى ، سواء على الأقدام أو على ظهور الجياد نحو المنتزه الأوربى فى بيرا الذى قليلا ما يرتاده الاتراك الحقيقيون . كما أخفت الاحذية اللامعة ذات الرقبة قد أخفت بالنسبة لمعظم الوجهاء من جميع الاجناس التفرقة القديمة التى كانت تسببها الأحذية . الا أننا ينبغى أن نلاحظ أن التعصب مازال شديد لدى الرياس (٢) أكثر منه لدى المسلمين . وليست العاده أو الفقر من ناحية أخرى بأقل تأثيرا فى المحافظة على الملابس القديمة التى تفرق بين الاجناس .

ولكن من ذا الذى مازال يعتقد أن القسطنطينية متعصبة وهو يرى

---

(١) لباس الرأس لدى الارمن .

(٢) من كلمة ريس (رئيس) وكانت تطلق على غير المسلمين .

المشهد المزدحم للمتنزه الافرنجي ؟ ان العربات من جميع الانواع تتقابل بسرعة لدى نهاية الضاحية والجياد تستعرض وتتجه النساء المتزينات هنا وهناك نحو غابة تهبط نحو البحر او الى اليسار نحو طريق الباب العالى (بولوك درى) حيث المنازل التى يتخذها كبار التجار واصحاب البنوك للترفيه • واذا توجهت أمامك رأسا لوصلت بعد بضع خطوات الى طريق جانبى مغلق تحيط به الأحراش وتظلله أشجار الصنوبر والشربين وترى من خلال فجواتها البحر ومصب المضيق بين اسكودا وطرف السراى الذى تنتهى لديه مدينة استنبول • أما برج لياندر الذى يسميه الأتراك برج الفتاة فيرتفع فيما بين المدينتين وسط ذراع البحر الذى يمتد كالنهر الى يسارك • انه مبنى ضيق مربع يقع على احدى الصخور ويبدو من بعيد وكأنه كشك لدوريات الحراسة • وفيما وراء ذلك ترى جزر الأمراء وقد ارتسمت فى غموض لدى مدخل بحر مرمرة •

ولست فى حاجة الى القول بأن هذه الغابة الطريفة الغامضة الرطبة هى الأخرى جبانة • فيجب أن نعلم فى هذا الصدد أن جميع أماكن اللهو فى القسطنطينية تقع وسط المقابر • ولتشاهد وسط كتل الاشجار أشباحا بيضاء تنتصب فى صفوف ويكفى شعاع واحد من أشعة الشمس لرسمها فى وضوح هنا وهناك • انها شواهد من الرخام الأبيض فى ارتفاع قامة الانسان رأسها كرة تعلوها عمامة • وبعضها مطلى ومذهب زيادة فى الابهام • ويدل شكل العمامة على مكانة الفقيد أو قدم عهده وبعضها لم يعد يتبع آخر المستحدثات • وكثير من هذه الحجارة الرمزية قد كسرت رأسه لأنها تعلو قبور الانكشارية • وحينما قضى على هذه الفرق لم يتوقف غضب الشعب لدى الأحياء منهم بل توجه الى جميع المقابر وكسر رءوس قبور الاموات •

وتعلو الشواهد قبور النساء كذلك الا أن الرأس فيها قد استبدلت بزينة تمثل زهورا منحوتة ومذهبة • ولتستمع كذلك الى الضحكات الصاخبة التى ترن تحت هذه الأشجار الجنائزية • انهن الأرامل والأمهات والاخوات اللاتى يتجمعن فى اجتماعات عائلية بالقرب من قبور أعزائهن •

ان العقيدة الدينية فى هذا البلد من القوة بحيث لا يفكر أحد بعد الدموع التى تذرف لحظة الفراق الا فى السعادة التى لا بد سيتمتع بها الفقيد فى الجنة • وتأتى الأسرة بغذائها بالقرب من القبر ويملأ الأطفال الجو بصيحاتهم المرحة • ويحرص الناس على اعطاء الميت نصيبه ووضعه فى فتحة خصصت لهذا الغرض أمام كل قبر • وهكذا تأمل الكلاب

الضالة التي تحضر عادة هذا المشـــهد في عشاء مقبل ، وتكتفي انتظارا لذلك ببقـايـا الطعام التى يقذفها الاطفـال • ولاينبغى الاعتقـاد بأن الأسرة تظن أن الميت سوف يستفيد من حصة الطعام التى خصصت له فتلك عادة قديمة تعود الى الماضي الســحيق • وقديما كانت الثعابين المقدسة تتغذى بهذه الهبات الخيرية الا أن الكلاب في القسطنطينية كذلك مقدسة •

وحينمـا خرجت من تلك الغـابة التى تحيط أحـدى ثكنـات المدفعية ذات البناء الشاسع الابعاد ألقيت نفسى فى الطريق المؤدى الى بويودري • وكان ثمة سهل غير منزرع ومغطى بالحشـائش يمتد أمام الثكنات • وهنـا رأيت مشـهدا لا يمكن فصله عما تقدم • لقد تجمعت بعض مئات من الكلاب على الحشائش وهى تصدر صيحات الشكوى وعدم الصبر • وبعد قليل رأيت بعض جنود المدفعية يحملون فوق ظهورهم كل أثنين معاه القدور الضخمة على الواح خشبية طويلة • وهنا أطلق الكلاب صيحات الفرح . وما أن وضعت القدور على الأرض حتى انقضت تلك الحيوانات على ما تحتوى عليه من طعام • وكان شغل الجند هو تقسيم الزحام الكبير للكلاب بواسطة الألواح الخشبية التى ظلوا محتفظين بها • وقال لى أحد المارة الايطاليين : « انه الحساء الذى يقدمونه للكلاب ، انهم ليسوا تعساء » •

وأعتقد فى واقع الأمر أن تلك القدور لم تكن تحتوى الا على بقايا طعام الجنود • وان المزايا التى يتمتع بها الكلاب فى القسطنطينية ترتكز على انها تخلص الطريق العام من بقايا المخلفات التى اعتاد الناس القاءها فيها (١) • والمنشآت الخيرية الخاصة بها والاحواض المليئة بالمياه التى تجدها لدى مدخل المساجد وبالقرب من الصنابير لاهدف لهـا بلا شك الا ذلك •

وكان الأمر يتعلق بالوصول الى مشـاهد أكثر اغراء • وبعـد أن نتعدى واجهة الثكنات نجد انفسنا لدى مدخل ساحة الموت الكبيرة . وهى هضبة شاسعة تظللها أشجار الجميز والصنوبر • ونمر أولا وسط قبور الافرنج ونميز وسطها كثيرا من العبارات الانجليزية والاسلحة المنحوتة وكلها على أحجار طويلة مسطحة يأتى الناس للجلوس عليها دون حرج وكأنها مقاعد من الرخام • وقد أقيم أحد المقاهى فى شـكل كشك فى

---

(١) ارجع الى الجزء الرابع الفصل الرابع فيما يختص بكلاب القسطنطينية .

مكان مكشوف وسط الأشجار ، ويشرف المنظر منه على البحر . ومن هنا نرى شاطىء أسيا فى وضوح وقد غص بالمنازل المطلية والمساجد كما لو كنا نطل من احدى ضفتى نهر الرين على الضفة الأخرى. وينتهى الأفق من بعيد بجبل أولمب فى بيثينيا الذى يكاد سفحه أن يختلط بالسحاب . والى اليسار على الشاطىء تمتد مبانى القصر الصيفى للسلطان باعمدتها اليونانية الطويلةوأسقفها المعرجة وأسوارها المذهبة التى تلمع تحت أشعة الشمس .

ولنذهب الى أبعد من ذلك . انه الجزء من الساحة المخصص للأرمن. ان القبور المسطحة قد غطيت بأحرف لغتهم المنتظمة الشكل . وعلى شواهد القبور الرخامية نجد الصفات التجارية التى مارسها كل منهم فى حياته منحوتة : فهنا المجوهرات وهنا المطارق والمثلثات ، وهناك الموازين وآلات من أنواع مختلفة . أما النساء فلا يميزهن جميعا الا باقات من الزهور .

ولنبعد أنظارنا عن هذه الانطباعات الثقيلة على نفس الأوربى . ان الجمع خفير والنساء لسن محجبات اطلاقا وتتألق ملامحهن ذات الخطوط الثابتة بتأثير المرح والصحة تحت غطاء الرأس الشرقى كما يحدث للأوربيات تحت غطاء الرأس أو القبعة . ولم تحتفظ على الوجوه بقطعة من الحرير الشفاف الا الارمينيات ، تسندها أنوفهن المقوسة . ولما كان هذا الخمار لا يكاد يخفى ملامحهن فقد أصبح بالنسبة لأكبرهن سنا مصدرا من مصادر التأنق . أين يذهب هذا الجمع بزينته ومرحه ؟ انه ذاهب كذلك الى بويوكدرى .

٤ ـ سان ديمترى

الا أن جمعا خفيرا كان يتوقف لدى المقـــــاهى الأنيقة التى تحف بالطريق • واننا لنصادف احداها الى اليسار وقد فتحت أروقتها الفسيحة من ناحية على الساحة الكبيرة ومن الناحية الأخرى على مساحة واسعة من الوديان الصغيرة والتلال المليئة بالمبانى الخفيفة التى تتخللها الحدائق • وفيما وراء ذلك يبدو من جديد الخط البعيد الذى يموج بمساجد ومآذن استانبول • واننا لنلتقى من جديد بهذا الأفق المطرز الذى يبدو لطوله رتيبا فى معظم مناظر مدخل البوسفور •

وهذا المقهى هو ملتقى الصحبة الطيبة وكأنه مقهى غنائى من مقاهينا فى « الشانزليزيه » • وانك لتجد فيه صفوف الموائد على جانبى الطريق وقد ازدانت بالأعيان والوجهاء فى پيرا • وكل شىء فيه يقدم على الطريقة الفرنسية من مثلجات وشراب الليمون والقهوة • والشىء الوحيد الذى يدل على الطابع المحلى هو وجود ثلاث أو أربعة لقالق بصفة مستمرة ، وما أن تطلب قدحا من القهوة حتى تأتى هذه اللقالق فتقف أمام منضدتك وكأنها علامات الاستفهام • ولا يجرؤ منقارها الطويل بما يتبعه من رقبة طويلة تسيطر من عل على المائدة على مهاجمة وعاء الســــكر • وتنتظر البجعات باحترام • وتظل هذه الطيور الخاصة تذهب هكذا من مائدة الى أخرى وهى تجمع السكر أو البسكويت •

والى مائدة قريبة من مائدتى كان يجلس رجل متقدم فى السن نوعا ذو شعر أبيض مثل رباط عنقه وقد ارتدى ملابس سوداء ذات طراز على شىء من القدم ووضع فى عروة سترته شريطا ذا ألوان مختلفة غريبة • وقد استولى هذا الرجل على جميع الصحف الموجودة فى المقهى ووضـــع

جريدة استانبول فوق جريدة أزمير وجريدة مالطة فوق جريدة أثينا ، أى كل ما كان فى الامكان اسعادى فى هذه اللحظة اذ يطلعنى على أخبار أوربا وفوق هذا الصف من الصحف أخذ يقرأ باهتمام جريدة مونيتير العثمانية ·

وتجرأت وسحبت احدى هذه الصحف نحوى وأنا أرجوه المعذرة · وحينئذ حدجنى بأحدى هذه النظرات الوحشية التى لم أراها الا لدى مرتادى أقدم مقاهى باريس ·

وقال لى : « سوف أنتهى توا من قراءة « المونيتير » ·

وانتظرت بضع لحظات وأخيرا تساهل وناولنى الجريدة بتحية لها كل سمات القرن الثامن عشر الذى ينتمى اليه ·

ثم أضاف : « سوف نقيم الليلة يا سيدى حفلا كبيرا · فان المونيتير تنبئنا بمولد أميرة جديدة · وهذا الحادث الذى سوف يملأ جميع رعايا عظمته بالبهجة يتصادف وقوعه لدى أول شهر رمضان ·

ولم أدهش منذ تلك اللحظة لرؤية الجميع فى عيد ·

وانتظرت فى صبر متسليا اما بالنظر الى الطريق المزدحم بالعربات والخيول واما بتصفح الجرائد الافرنجية التى كان جارى هذا يتناولنى اياها بعد أن يفرغ من قراءتها ·

ولقد قدر الرجل بلا شك أدبى وصبرى فقال لى حينما رآنى على أهبة الاستعداد للخروج :

« أين تراك ذاهب ؟ الى المرقص ؟

فأجبت قائلا : « هل هناك مرقص ؟ »

ــ انك تسمع موسيقاه من هنا ·

وفى الواقع كانت النغمات الحادة لفرقة موسيقية يونانية أو فالاشيه تصل الى أذنى · ولكن هذا لم يكن يثبت أن ثمة رقصا يدور اذ أن أغلب ملاهى القسطنطينية ومقاهيها لها من الموسيقيين من يلعب بآلاته حتى خلال النهار ·

---

(١) الاميرة التى يتحدث عنها المؤلف هنا هى السلطانة جميلة وقد ولدت قبل بداية شهر رمضان بما يزيد عن شهر · وقد كانت بداية شهر رمضان فى هذه السنة ١٨٤٣ هى ٢٥ سبتمبر ·

وقال لى الرجل الغريب : « تعال معى » ٠

ورأينا على بعد مائتى خطوة تقريبا من الكشك الذى غادرناه توا بابا مزدانا بزينة رائعة يؤدى الى حديقة مثلثة الشكل لأنها تقع فى ملتقى طريقين ٠ وكانت صفوف الأشجار المتقابلة التى تربط بينهـــا الأكاليل وأبهاء الخضرة التى تحيط بالمناضد كل ذلك كان يكون منظرا على شىء من الابتذال بالنسبة للباريسى ٠

وكان مرشدى شديد الحماسة ٠ ودلفنا الى الداخل الذى كان يتكون من قاعات عديدة غاصة بالشاربين ٠ وكانت الفرقة الموسيقية مستمرة فى تدريباتها بحمية على آلات الكمان ذات الوتر الواحد والنـــاى والطبول والجيتار وكانت النغمات التى ترسلها لا ينقصها الطرافة ٠ وسألت أين توجد حلبة الرقص ؟ فقال لى الشيخ :

« انتظر ، ان الرقص لا يمكن أن يبدأ الا لدى غروب الشمس تلك قاعدة من قواعد الشرطة ٠ ولكن الامر لن يطول كما ترى » ٠

وقادنى الى احدى النوافذ ، ولم تلبث الشمس أن هبطت خلف خيوط الأفق البنفسجية التى كانت تحيط بالقرن الذهبى ٠ ولم نلبث أن سمعنا ضوضاء كبيرة تصل الينا من جميع الجهات ٠ كانت تلك طلقـــات مدافع « طوفانا » تليها طلقات بواخر الميناء جميعا التى كانت تحيى ذلك العيد المزدوج ٠ وفى نفس الوقت بدأ مشهد سحرى فوق الأفق البعيد الذى كانت تقطعه آثار استانبول ٠ وكلما ازداد هبوط الظلام من السماء كلما بدت لنا مسابح طويلة من النور تحدد شكل قباب المساجد وترسم عليها كتابات عربية تقص بلا شك بعض الاساطير بحروف مزينـــة ٠ وكانت المآذن التى تنطلق الى أعلى وكأنها آلاف من الصوارى فى أعلى المبـــانى تحمل خواتم من النور ترسم خطوط الأروقة الدقيقة التى تحملهـــا ٠ وكانت أناشيد تأتى الينا من كل مكان ، وكانت فى ذلك اليوم صاخبة وكأنها أناشيد النصر ولو أنها فى المعتاد حلوة عذبة ٠

وعدنا نحو القاعة وكان الرقص قد بدأ ٠

كان ثمة فراغ قد تكون وسط القاعة ورأينا نحو خمسة عشر راقصا يدخلون الى القاعة من الداخل وقد علت رءوســـــهم الطرابيش وارتدوا صديريات مطرزة ومناطق ذات ألوان زاهية ٠ وكانوا كلهم من الرجال ٠

وكان يبدو أن الأول يقود الآخرين الذين كانوا متشـــابكى الأيدى

يؤرجحون أذرعتهم بينما كان هو يربط رقصـــه الدائرى برقص زميله بواسطة منديل كان كل منهما يمسك بطرف منه • وكان يبدو وكأنه رأس ثعبان ذى رقبة متحركة وكان زملاؤه يكونون حلقات جسم هذا الثعبان

تلك ولا ريب رقصة يونانية بما يميزها من هز الأرداف والتداخـل والخطوات الاكليلية التى كانت ترسمها تلك الرقصات •

وما أن انتهوا من رقصهم حتى بدأت أعبر عن ضيق نفسى برقص الرجال الذى كثيرا ما رأيته فى مصر • وحينئذ رأينا عددا ممـــاثلا من النساء بعيد المشهد نفسه • وكن جلهن جميلات شديدات الرشاقة فى ثيابهن الشرقية • وكانت الطاقية الحمراء ذات الحافة الذهبية المموجة والزهور والغلالات اللامعة التى يزين بها رءوسهن والضـــفائر الطويلة المزدانة بالقطع الذهبية والتى كانت تنسدل حتى أقدامهن تجلب لهـن الكثير من المعجبين من الحاضرين • ومع ذلك فلم يكن الا فتيات أيونيات حضرن مع أصدقائهن أو اخوتهن • وكانت كل محاولة لاغرائهن لا بد أن تؤدى الى استعمال السكاكين •

وقال لى الشيخ اللطيف الذى تعرفت به منذ قليل :

« سوف أريك الآن خيرا من ذلك » •

وبعد أن تناولنا المرطبات خرجنا من هذا المبنى الذى يعتبر أشبه شىء بالمرقص العام فى الشانزليزيه بالنسبة للافرنج فى بيرا •

كانت استانبول تتلألأ ضياء من بعيد فى الأفق الذى غدا أكثر ظلمة• وكانت صورتها الجانبية ذات المنحنيات العديدة الرشيقة تظهر ناطقـــة فى وضوح وتذكرنا بتلك الرسوم التى يصنعها الاطفال من ثقوب بالدبابيس ويلهون بها أمام الضوء • ولقد كان الوقت متأخرا جـدا للذهـاب اليها اذ أن عبور الخليج بعد غروب الشمس أمر غير مستطاع •

وقال لى الشيخ : « اعترف معى أن القسطنطينية هى المقر الحقيقى للحرية • وسوف تزداد اقتناعا بذلك توا • فما دام المرء يحترم الكلاب، وهو على أى حال حذر واجب ، وما دام يشعل مصباحه حينما تغيب الشمس فقد حصل طوال الليل على حرية مماثلة لتلك التى يتمتعون بها فى لندن ولا يحصلون عليها الا « قليلا فى باريس ! » •

وكان قد أخرج من جيبه مصباحا من الصفيح كانت ثنياته المصنوعة من القماش تطول كجلد الكور (المنفاخ) حين يتباعد ، وغرس به شمعة•

واستطرد قائلا : « أنظر كيف أن هذه الممرات الطويلة من أشجار السرو في ساحة الموت الكبيرة ما زالت غاصة بالناس الى هذه الساعة » . وفي الواقع كانت الثياب الحريرية أو الحبرات (١) المصنوعة من الصوف الدقيق تبدو هنا وهناك وهي تحتك بأوراق الأحراش وكانت المغازلات الغامضة والضحكات المختلفة تخترق ظلام الممر المحاط بالأشجار . وكان تأثير المصابيح وهي تطير في كل مكان في أيدي المتنزهين يذكرني بفصل الراهبات في أوبرا « روبير الشيطان » (٢) كما لو كانت هذه الآلاف المؤلفة من الحجارة المسطحة المضاءة للمارة قد نهضت فجأة ، ولكن لا ، كان كل شيء ضاحكا وهادئا الا أن نسيم البحر كان يؤرجح الحمائم النائمة في الشربين وفي أشجار السرو . وتذكرت هذا البيت من شعر جوتة :

انك تبتسم على القبور أيها الحب الخالد (٣) .

وفي هذا الوقت كنا نتجه الى بيرا ونحن نتوقف من حين لآخر لتأمل المشهد الرائع للوادي الذي يهبط نحو الخليج ، والأضواء التي تتوج قلب الخليج المائل للزرقة الذي تبرز فيه أطراف الاشجار المدببة ويلمع فيه البحر من مكان لاخر وهو يعكس أنوار المصابيح الملونة المعلقة بصواري السفن . وقال لي الشيخ :

« انك لا تشك في أنك تتحدث الآن الى وصيف قديم للامبراطورة كاترين الثانية » .

فقلت في نفسي : « ان هذا لأمر يدعو الى الاحترام لأنه يعود على الأقل الى السنوات الأخيرة من القرن الماضي » .

وأضاف الشيخ بشيء من الزهو : « ينبغي لي القول بأن امبراطورتنا (اذ أنني روسي) كانت في ذلك العهد في نفس الحالة التي انا فيها اليوم تقريبا .

وتنهد الرجل – ثم أخذ يتحدث طويلا عن الامبراطورة ولباقتها وجاذبيتها الساحرة وطيبتها . وأضاف قائلا : « ان حلم كاترين الدائم

---

(١) ثوب تركي تخرج به السيدات كان معروفا في مصر حتى أوائل هذا القرن

(٢) كتبت المسرحية سنة ١٨٣٦ . وفي الفصل الثالث تعرض رقصة في منتصف الليل بين أطلال أحد الاديرة تؤديها الراهبات وقد خرجن من أحداثهن .

(٣) من ترجمة جيراردي نرفال . هذه مقطوعة باسم (المسافر) نشرها في ديوانه « أشعار ألمانية » وهذا البيت ذكره نرفال من الذاكرة أما النصف المترجم في ديوانه فهو : وأنت أيها الانسان ! انك تبقى لنفسك كوخا ببقايا الماضي السامية وتمنح لنفسك المتعة فوق القبور » .

كان رؤية القسطنطينية » • وكانت تذكر أحيانا أنها سوف تذهب اليها متخفية فى زى بورجوازية ألمانية • ولكنها كانت تفضل قطعا أن تدخلها دخول الظافرين ولذلك فقد بعثت الى اليونان بتلك الحملة برياسة أورلوف التى مهدت من بعيد لثورة اليونانيين » • ولم يكن لحرب القرم كذلك من هدف آخر • الا أن الترك قد دافعوا عن أنفسهم بمهارة جعلتها لا تتمكن الا من السيطرة على هذه المقاطعة التى ضمنتها فى آخر الأمر معاهدة السلام •

« لقد سمعت عن الحفلات التى كانت تقام فى هذا البلد والتى كان يحضرها الكثير من وجهـائكم المغامرين • لم يكن الناس يتحدثون الا بالفرنسية فى بلاطها، ولم يكن يشغلهم سوى فلسفة كتاب دائرةالمعارف والمآسى المسرحية التى كانت تعرض فى باريس والشعر الخفيف • وكان الأمير دى لينى قد وصل متحمسا لمسرحية « افيجينى فى توريد » للكاتب جيمون دى لاتوش (١) •

وللتو أهدته الامبراطورة جزءا من توريد القديمة كانوا يتوقعون العثور فيه على المعبد الذى أقامه تواس قاسى القلب • ولقد ضاق الأمير ذرعا بهذه الهدية التى تبلغ بضع فراسخ مربعة يشغلها المزارعون المسلمون الذين يكتفون طول اليوم بالتدخين وشرب القهوة • ولما كانت الحرب قد جعلتهم فى فقر مدقع لا يمكنهم من الاستمرار فى هذه الطريقة لقتل الوقت فقد وجد الأمير دى لينى نفسه مضطرا الى أن يقدم لهم النقود كذلك حتى يتمكنوا من تجديد مئونتهم •

ولذا فقد افترق عنهم وقد ربطتهم به صداقة وطيدة •

لم يكن هذا الا كرما • أما پو تمكين فقد كان أكثر روعة •

فلما كانت المنطقة الرملية التى يقيمون بها تؤذى عينى امبراطورته فقد جلب غابات كاملة من الصنوبر من مسافة تبعد خمسين فرسخا • والواقع أنها لم تكن تعطى الظلال الا خلال اقامة البلاط الامبراطورى •

ولم تكن كاترين تتعزى عن ضياع فرصة زيارة ساحل آسيا • ولكى تشغل وقت فراغها خلال اقامتها فى القرم فقد ألحت على السيد دى سيجور لكى يعلمها قرض الشعر بالفرنسية • لقد كان لهذه المرأة جميع أنواع النزوات • وبعد أن تبينت الصعاب التى تكتنف ذلك حبست نفسها

---

(١) ١٧٢٣ — ١٧٦٠ وقد نشرت هذه المسرحية سنة ١٧٥٧ •

في مكتبها لمدة أربع ساعات وخرجت وقد نظمت بيتين من البحر الطويل (الاسكندرى) لا تزيد قيمتها عن أن تكون مقبولة . وهذان البيتان هما:

في سراى أحد الخانات على الوسائد المطرزة

في كشك من الذهب محاط بسياج

« ولم تستطع أن تكمل « الباقى » .

وقلت ملاطفا : « ان هذين البيتين لا ينقصهما اللون الشرقى . بل انهما يعبران عن رغبة ما لمعرفة ما يمكن معرفته عن الغزل لدى الاتراك .

« لقد رأى الأمير دى لينى أن القافية في هذا الشعر بشعة ممـــا ثبط حمية الامبراطورة وصرفها عن الشعر الفرنسى كله . اننى أحدثك عن أمور وصلتنى عن طريق النقل . لقد كنت حينئذ فى المهد ، ولم أشهد الا السنوات الأخيرة لهذا العهد العظيم . وبعد موت الامبراطورة ورثت عنها بلا شك بعض هذه الرغبة العنيفة التى كانت لديها لرؤية القسطنطينية . فتركت أسرتى وأتيت الي هنا لا أحمل الا النذر اليسير من النقود . وكنت فى العشرين من عمرى أملك أسنانا قوية وساقين رائعتى التكوين .. »

٥ ـ مغامرة فى السراى القديمة (١)

وتوقف رفيقى الشيخ وهو يرسل تنهيدة ، ثم قال وهو ينظر الى السماء : « سوف استأنف حديثى ، ولكنى وددت فقط أن أريك ملكة الحفل الذى يبدأ فى استانبول والذى سوف يستمر ثلاثين ليلة » . ثم أشار بأصبعه الى نقطة فى السماء يظهر فيها هلال هزيل : لقد كان هذا هو الهلال الجديد ، هلال رمضان الذى بدا ضعيفا فى الافق . والحفلات لا تبدأ الا اذا رؤى فى وضوح من فوق المآذن أو الجبال المجاورة للمدينة . وثمة اشارات ترسل لاخطار الناس بذلك .

وقلت بعد هذه الحادثة وقد رأيت أن الشيخ يحب أن يستعيد ذكريات شبابه : « ماذا فعلت حين وصلت الى القسطنطينية ؟ »

ـ لقد كانت القسطنطينية يا سيدى أكثر تألقا منها اليوم ، وكان الطابع الشرقى هو السائد على بيوتها ومنشئاتها التى أخذوا منذ ذلك الحين يعيدون بناءها على الطريقة الاوربية . وكانت العادات صارمة الا أن صعوبة التحايل كانت أكثر ما فى الأمر سحرا » .

فقلت له فى اهتمام بالغ وقد رأيت أنه عاد الى التوقف : « استمر »

ـ لن أحدثك يا سيدى عن بعض العلاقات الرائعة التى عقدتها مع أناس من طبقة عادية . ان خطر مثل هذه العلاقات لا يوجد فى الواقع الا بالنسبة للمرأة ، الا اذا بلغ بنا التهور حد زيارة امرأة تركية فى بيتها

---

(١) هذا سرد مطول لقصة سبق لنرفال اختصارها فى أصل الملحق (١) الذى عاد فغيره فيما بعد .

أو التسلل اليه خفية • انى لا أريد الزهو بمغامرات من هذا النوع جازفت بها • ان آخر هذه المغامرات وحدها هى التى يمكن أن تثير اهتمامك •

« لقد شعر أهلى بالأسى لبعدى عنهم • وقد اضطرنى الحاحهم على رفض كل وسيلة تمكننى من اطالة اقامتى فى القسطنطينية الى أن التحق بأحد بيوت التجارة فى حى غلطة • فتوليت الشئون الكتابية لدى أحد تجار المجوهرات من الأرمن • وذات يـــوم قدمت نساء كثيرات يتبعهن العبيد الذين كانوا يحملون الثوب الرسمى للسلطان •

« وكانت نساء السراى فى ذلك العهد يتمتعن بحرية القدوم لشراء ما يلزمهن لدى تجار الاحياء الافونجية لأن خطر معاملتهن بغير ما ينبغى من الاحترام كان كبيرا لدرجة أن أحدا لم يكن يجرؤ على ذلك • كما أن المسيحيين فى ذلك العهد كان ينظر اليهم وكأنهم لا يكادون يكونون من الناس •• ولما كان السفير الفرنسى نفسه يأتى الى السراى كانوا يقدمون له العشاء بمفرده ، ثم يقول السلطان فيما بعد لوزيره الأول : « هل أطعمت الكلب؟» فيجيب الوزير قائلا ، ــ « نعم ، لقد أكل الكلب » ــ « حسن ! فليلق به الى الخارج ! » وكانت هذه العبارات تقليدية •• وكان المترجمون يترجمونها بتوجيه احدى المجاملات الى السفير وينكرون كل شىء » •

وتوقفت لدى هذا الاستطراد راجيا محدثى أن يعود الى زيارة سيدات السراى لتاجر المجوهرات •

« تعلم أن فى مثل هذه الظروف تكون هذه المخلوقات الجميلة دائما فى صحبة حراسهن المعتادين بقيادة رئيس الخصيان (كيسلار أنما) • ثم أن المظهر الخارجى لهؤلاء السيدات لا يسحر الا الخيال لأنهن كن دائما ملتفات ومحجبات فى احكام وكأنهن متنكرات فى حفلة رقص فى المسرح • وقد طلبت تلك التى يبدو أنها تقود الأخريات رؤية عدد كبير من الحلى . ولما اختارت احداها استعدت لأخذها معها • فبينت لها أن الصياغة فى حاجة الى تنظيف وأنه ينقصها بعض الحجارة الصغيرة • فقالت : « حسن ! متى أستطيع أن أرسل فى طلبها ؟ •• اننى فى حاجة اليها لحفل أظهر فيه أمام السلطان •

« فحييتها فى احترام • وفى صوت تعروه رعشة خفيفة بينت لها أننا لا نستطيع تحديد الوقت اللازم لهذا العمل •

فقالت السيدة : « ما دام الأمر كذلك فحينما يتم اعدادها ابعثوا

بها مع أحد صبيانكم الى قصر بشيك ـ طاش · ثم ألقت نظرة شاردة حولها ·

فأجبت قائلا : « سأذهب بها أنا نفسى يا صـــاحبة السمو لأننـا لا نستطيع أن نعهد الى عبد أو حتى الى صبى بحلية بمثل هذه القيمة ·

فقالت : « حسن ، ائت بها الى وسوف تقبض ثمنها ·

« وعين المرأة هنا أكثر تعبيرا منهــا فى أى مكان آخر لأنهـــا كل ما تســـتطيع أن تراه منهــا فى مكان عام وظننت أننى تبينت في تعبير عين الأميرة وهى تحدثنى حسن نية خاص كان وجهى وسنى يبررانه ·· وأستطيع أن أذكر اليوم يا سيدى دون فخر أننى كنت من أجمل شبان أوربا » ·

واستقام وهو ينطق بهذه العبارات وبدا أن قامته قد استعادت نوعا من الرشاقة لم أكن قد لاحظتها بعد ·

واستأنف كلامه قائلا : « ولما تم اعداد الحلية توجهت الى بشيك ـ طاش متبعا طريق بيوكدرى هذا نفســه الذى نحن فيه فى هذه اللحظة . ودخلت الى القصر عن طريق الأفنية المطلة على الحقول · وانتظرت بعض الوقت فى قاعة الاستقبال ·

ثم أمرت الأميرة أن أمثل فى حضرتها · وبعد أن قدمت لها الحلية وتلقيت الثمن أخذت أهبتى للانصراف حين سألنى أحد الضباط عما اذا كنت أرغب فى حضور مشهد للرقص على الحبـــل يقام فى القصر كان الممثلون فيه قد سبقونى فى الدخول · وقبلت الدعوة وأمرت الأميرة بأن يقدم لى العشاء ، بل وتنازلت وسألت عن الطريقة التى تم بها تقـــديم العشاء · ولقد كان فى الأمر بالنسبة لى ولا شك بعض الخطر لرؤية سيدة فى مثل مكانتها العالية تتصرف نحوى بكل هذا التشريف ·· ولما أقبل الليل ادخلتنى السيدة الى قاعة أكثر أبهة من سابقتها وأمرت باحضـــار القهوة والنرجيلة ·

وكان بعض عازفى الآلات قد استقروا فى رواق مرتفع يحيط بـــه درابزين وكان يبدو أنهم فى انتظار شىء غريب سوف يصاحبونه بموسيقاهم وبدا لى أمرا مؤكدا أن السلطانة قد أعدت هذا الحفل لى · وفى هذا الوقت كانت هى نصف راقدة على أريكة فى أقصى القاعة وقد اتخذت هيئة احدى الامبراطورات . وكان يبدو أنها مستغرقة فى تأمل التمرينات التى كانت

تؤدى أمامها . ولم أكن أستطيع أن افهم هذا الحياد او هذا التحفظ الرسمي الذى كان يمنعها من الاعتراف لى بمشاعرها وظننت أننى فى حاجة لمزيد من الجرأة .. واندفعت نحو يدها التى تركتها لى دون كثير من المقاومة وفي ذلك الوقت حدثت ضجة كبيرة حولنا . وصاح الخدم والعبيد : الانكشارية !. وبدا ان السلطانة قد استجوبت ضباطها ثم أصدرت اليهم أمرا لم أسمعه. وقادونا ، أنا والراقصين على الحبل، من سلم خفى الى قاعة خفيضة تركونا فيها بعض الوقت فى الظلام . وكنا نسمع فوق رءوسنا خطوات الجند المندفعة ثم نوعا من الصدام ارتعدت له أوصالنا هلعا وكان مؤكدا انهم يحاولون اقتحام باب كان يحمينا حتى الآن وأنهم لن يلبثوا أن يصلوا الى مخبئنا . وهبط ضباط السلطانة السلم مندفعين ورفعوا نوعا من الابواب الأفقية فى القاعة التى كنا فيها وهم يقولون لنا : « لقد ضاع كل شيء .. اهبطوا من هنا ! » وكانت أقدامنا تتوقع أن تصادف درجات سلم ما ولكنها فقدت فجأة كل سند وغطسنا نحن الثلاثة في البسفور .. كانت القصور التى تحف بالبحر وخصوصا قصر بشيك ـ طاش الذى استطعت رؤيته على الضفة الأوربية على بعد ربع فرسخ من المدينة، كانت منشأة جزئيا على ركائز فى الماء . وكانت القاعات السفلى مغطاة بألواح من خشب الأرز تغطى وجه الماء مباشرة وترفع حين ترغب سيدات السراى التدريب على السباحة . ولقد كان احد هذه الحمامات هو الذى غطسنا فيه وسط الظلمات . ولقد عادت الالواح الخشبية فمدت فوق رءوسنا وكان من المستحيل رفعها . وكانت الخطوات المنتظمة وقرقعة السلاح ما زالت تسمع . وكنت بالكاد أستطيع التنفس من حين لآخر وأنا أستند الى سطح الماء . ولما لم أجد وسيلة للصعود ثانية الى القصر حاولت على الأقل السباحة نحو الخارج . ولكن ما أن وصلت الى الحد الخارجى حتى وجدته فى كل مكان ما يشبه السياج من الركائز المائية والذى ربما كان يستخدم عادة لمنع النساء من الهرب من القصر أثناء السباحة أو من أن يراهن الناس من الخارج .

« تخيل يا سيدى ما فى هذا الموقف الحرج . من فوق رءوسنا ألواح خشبية مغلقة من جميع الجهات وتحتها ست بوصات فقط من الهواء ،والمياه ترتفع شيئا فشيئا مع ارتفاع البحر الأبيض الذى لا يكاد يستشعر ،فيبلغ ارتفاعها قدما أو قدمين كل ست ساعات . ولم يكن أمامى الكثير من الوقت لأتأكد من أننى سوف أغرق سريعا . ولذا فقد دفعت الالواح المحيطة بى كالقفص بقوة يائسة . وكنت من وقت لآخر أسمع تنهدات راقصى الحبل البائسين اللذين كانا يحاولان مثلى العثور على طريق للمرور . وأخيرا

وصلت الى ركيزة أقل صلابة من غيرها استسلمت لضربة يدى ولا ريب أن الرطوبة قد سببت فى تآكلها أو أنها كانت أقدم من غيرها • واستطعت بمجهود يائس ان أفصل منها جزءا تالفا وأن أنزلق الى الخارج بفضل القامة الرشيقة التى كنت أتمتع بها فى هذا الوقت • ثم توصلت بعد أن تعلقت بالركائز الخارجية الى بلوغ الشاطىء رغم ما كنت به من تعب • ولا أعلم ما حدث لرفيقى فى التعاسة •

ولقد روعتنى الأخطار مختلفة الأنواع التى عرفتها فأسرعت بمغادرة القسطنطينية •

ولم أستطع منع نفسى من أن أقول لمحدثى بعد أن رثيت لحاله للأخطار التى اقتحمها أننى أشك فى أنه اختصر بعض تفاصيل قصته •

فأجاب قائلا : « سيدى اننى لا أقدم تفسيرا فى هذا الصدد • وان شيئا لن يجعلنى أخون ودا •• »

ولم يتم حديثه • وكنت قد سمعت من قبل عن هذه المغامرات الحالكة التى تنسب لبعض السيدات فى السرايات القديمة فى أواخر القرن الماضى •• واحترمت احتفاظ هذا ال « بوريدان » (١) الذى جعله طول العمر باردا كالثلج بسره •

---

(١) اشارة الى قصة بوريدان الذى القى به الى نهر السين فى جوال كما ذكرها الشاعر فرنسوا فيون فى مقطوعته الشهيرة : « سيدات الزمن الماضي » •

٦ - قرية يونانية

وكنا قد وصلنا الى مرتفع يشرف على سان ـ ديمترى · وهى قــرية يونانية تقع بين ساحتى الموت الكبيرة والصغيرة · ويهبط الناس اليها من شارع تحف به بيوت خشبية غاية فى الأناقة وتذكرنا الى حد ما بالذوق الصينى فى البناء وفى الزينات الخارجية ·

وظننت أن هذا الشارع يختصر الطريق الذى علينا أن نقطعه لنشاهد بيرا · الا أنه كان علينا أن نهبط الى واد يخترقه جدول صغير · وتستعمل حافته كطريق ينزل الناس منه الى البحر . وقد أقيم عدد كبير من المشارب والملاهى على جانبيه .

وقال لى رفيقى : « أين تريد أن تذهب ؟

ـ « يسعدنى لو استطعت الذهاب لأنام » ·

ـ « ولكن الناس لا ينامون الا بالنهار فى رمضان . فلنقض الليل الى نهــايته ·· وحينما تشرق الشمس سيكون من الحــكمة أن نلحق بفراشنا · واذا سمحت لى فانى أقودك الى بيت يلعبون فيه البكاراه » ·

وكانت واجهات المنازل التى هبطنا بينها بمظلاتها الممتدة فوق الطريق ونوافذها ذات القضبان الحديدية مضاءة من الداخل ، كما كانت أعمدتها التى تتألق بألوانها الزاهية تدل على أنها ملتقى اجتماعات لا تقل بهجــة عن تلك التى سبق أن جبناها ·

ينبغى العدول عن وصف العادات والاخلاق فى القسطنطينية اذا كان بعض الوصف ذى الطبيعة الحساسة سيسبب فزعا شديدا · ان الخمســة

عشر ألفا من الأوربيين الذين تضمهم ضاحيتا بيرا وغلطه من ايطاليين وفرنسيين وانجليز وألمان وروس ويونانيين لا تربطهم أية علاقة معنوية ، ولا حتى وحدة الدين اذ أن المذاهب منقسمة فيما بينها أكثر من أشد الاديان اختلافا . كما أنه في مجتمع كهذا يعيش مجتمع النساء فيه حياة شديدة التحفظ . لا شك أنه يغدو من المستحيل فيه رؤية وجه امرأة من مواليد هذا البلد او لم تقم فيه بعض الملاهي أو النوادي . ومع ذلك فينبغي الاعتراف بأن المجتمع في هذه المنتديات خليط الى حد ما .

ان ضباط السفن والشبان العاملين في التجارة الكبيرة وموظفي السفارات على اختلافهم ، جميع هذه العناصر المتفرقة والمنعزلة من المجتمع الأوربي تشعر بالحاجة لأماكن للاجتماع تكون بمثابة أرض محايدة أكثر من سهرات السفراء والتراجمة وأصحاب البنوك . وهذا يفسر هذا العدد الكبير من المراقص التي تقام بالاكتتاب والتي كثيرا ما نشاهدها في داخل بيرا .

لقد ألفينا أنفسنا هنا في قرية يونانية تماما ، وهي تعتبر حي الملاهي للافرنج . وكان قد سبق لي أن جبت هذه القرية في وضح النهار دون أن يخطر ببالي أنها تضم كل وسائل التسلية الليلية هذه وكل هذه الكازينوهات والمراقص . بل ولابد من الاعتراف كذلك بوجود بيوت اللهو . ان الطيبة البطريركية المرتسمة على وجوه الآباء والازواج وهم جلوس على المقاعد ويعملون في بعض مهن التجارة أو معامل الآجر أو النسيج ومظهر النساء المتواضع بملابسهن اليونانية ومرح الأطفال وما يتسمون به من من لا مبالاه والشوارع المليئة بالدواجن والخنازير والمقاهي ذات الاروقة المرتفعة ذات الدرابزين والتي تطل على الوادي الغارق في الضباب والجدول الذي تحف به الحشائش ، كل ذلك بالاضافة الى خضرة أشجار الصنوبر والمنازل المصنوعة من الخشب المنحوت يذكرنا ببعض المناظر الجميلة في جبال الألب السفلى .

وكيف كان يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ليلا ونحن لا نرى أي ضوء يصدر من خلال قضبان النوافذ ؟ ومع ذلك فبعد اطفاء الأنوار ظلت بعض هذه الأماكن مضاءة من الداخل كما استمر الرقص واللعب فيها من المساء الى الصباح . ودون ما حاجة الى الاشارة الى عادة ــ بيوت المرح ــ الـ «هيديريسي» لدى اليونانين فثمة ما يبرر الاعتقاد بأن الشباب يستطيعون أحيانا تعليق الأكاليل على هذه الأبواب المطلية كما كان يحدث في الزمن

الغـابر أيام السيمادور(١) » ولم نر ثمة عاشقا يونانيا يحمل على رأسه أكليل الورود بل رجلا ذا هيئة انجليزية ، وربما كان بحارا وقد ارتدى ملابس كلهـا سوداء ورباط عنق أبيض وقفازا وسار يسبقه عازف على الكمان . وكان يسير في مشية جادة خلف العازف الذى كانت مهمته بعث البهجة فى مسيرته رغم أنه هو نفسه كان ذا هيئة حزينة . وظننا أنه لابد أن يكون رئيس بحارة أتى لينفق راتبه بسخاء بعد رحلة بحرية .

ووقف مرشدى أمام منزل أطفئت أنواره من الخارج بعناية أكثر من غيره ، ودق الباب المطلى دقات خفيفة . وأتى زنجى ليفتح وهو يأتى ببعض اشارات الحذر . ولما رآنا نرتدى القبعات حيانا ودعانا بالأفندية .

وقد كان مظهر البيت الذى دخلنـاه رغم أناقته يؤيد الفكرة التى نكونها عادة عن الأوساط التركية . لقد تغير الزمن وأخذ جمود الشرق القديم الذى كان مضرب الامثال يتأثر بضربات الحضارة . ان الاصلاح الذى ألبس العثمانى الطربوش وحبسه فى «ردنجوت» يقفل بأزرار حتى الرقبة قد ادخل كذلك الى المساكن بساطة الزينة التى تروق للذوق الحديث . وهكذا اختفت الكتابات العربية الكثيرة والأسقف التى تحاكى خلايا النحل أو طريقة بناء الكهوف الصناعية والحواف المسننة والصناديق المصنوعة من خشب الأرز لتحل محلها الجدران الناعمة ذات الألوان الموحدة اللامعة تميزها حواف ذات زينات بارزة بسيطة . وثمة رسوم عادية تحف بالجوانب الخشبية وبعض أصص الزهور التى تحوى بعض الزينات الحلزونية والأغصان كل ذلك بلا طراز فنى معين ولا يذكرنا الا من بعيد بالذوق الشرقى القديم بما يتسم به من نزوات وجو سحرى .

لقد كانت الغرفة الأولى مخصصة للذين يقومون بالخـدمة . وفى الثانية ، وهى أكثر من الأولى زينة ، أدهشنى المشهد الذى رأيتـه . كان فى وسط الغرفة شىء ما يشبه المنضدة المستديرة يغطيها بساط سـميك وتحيط بها أسرة على الطريقة العتيقة يسميها أهل البلد «التندور» . هنا كان عدد كبير من النساء راقدات نصف رقدة مكونات ما يشبه أنصـاف أقطار العجلة وقد اتجهت أقدامهن الى مركز العجلة حيث توجد مدفأة تخفيها الأقمشة .

---

(١) اسم عاشق يونانى ورد فى مقطوعة شعرية للشاعر الفرنسى لا فونتين .

كانت سيماهن الجليلة وملابسهن الزاهية وصدريرياتهن الموشاة بالفراء وغطاء رءوسهن القـــديم كل ذلك يدل على أنهن بلغن من العمر مالا يجعل مجالا للنفور من كلمة « سيدة كبيرة » التى استعملها الرومان على محمل حسن . لقد اقتصرت مهمتهن على اصطحاب بناتهن أو بنات اخواتهن الى السهرة وجلسن فى انتظار نهايتها كما تنتظر أمهات الأوبرا فى مكان الانتظار فى المرقص . لقد أتى أكثرهن من المنازل المجاورة ولم يكن ليعدن اليها قبل بزوغ الفجر .

٧ - وجوه أربعة

أما القاعة المزينة الثالثة ، والتي تمثل غرفة الاستقبال في عاداتنــا فكانت مفروشة بالارائك المكسوة بالحرير ذى الالوان الزاهية المختلفة ٠وعلى الأريكة القائمة في أقصى القاعة تربعت أربع سيدات جميلات شاءت الصدفة الطريفة ، أو ربما حدث ذلك طبقـا لاختيار معين ، أن تجعل كل واحدة منهن تمثل طابعا شرقيا متميزا ٠

وكانت تلك التى تحتل وسط الأريكة شركسية كما نســتطيع أن تحدس ذلك فورا من عينيها الكبيرتين السوداوين المتناقضتين مع بشرتهــا شديدة البياض وأنفها المقوس ذى الخط الدقيق الواضح وعنقها الذى يميل قليلا الى الطول وقوامها الفارع الرشيق وأطرافها الرقيقة ، وكلها من العلامات المميزة لجنسها . أما غطاء رأسها المكون من غلالات مزدانة بنقط من الذهب وقد عقصت على شكل عمامة فقد أفلت ضفائر غزيرة ذات لون أسود فاحم تظهر جمال خديها اللذين زادتهما المســاحيق نضارة ٠ وكانت ترتدى سترة مطرزة ذات حافة من زينة غير ذات قيمة والتعاريج الحريرية كانت ألوانها العديدة تكون ما يشبه أن يكون حبلا من الزهور حول المنســوج الذى صنعت منه السترة ٠ وكان ما ترتدبه من حزام فضى وسروال من الحرير الوردى يكمل هذا اللباس الرشيق البراق .

وطبيعى أن تكون عيناها حسب العادة قد حددت حافتاهما بخطوط من الكحل كانت تزيد من اتساعها وتضفى عليهما مزيدا من البريق ٠ أما أظافرها الطويلة وبطن يديها فكانت فى لون برتقالى بفعل الحناء ٠ وقــد ازدانت قدماها العاريتان اللتان تعتنى بهما كما تعتنى بيديها بنفس الزينة وكانت تثنيهما فى رشاقة على الأريكة وهى تدق الخلخال الفضى الذى تضعه حولهما من حين لآخر ٠

وبجوارها كانت تجلس سيدة أرمينيه كان ثوبها ، وهو أقل تحميلا بالزينات المبتذلة ، يذكرنا بالمستحدثات الحالية فى القسطنطينية • وكانت تزين رأسها بطربوش يشبه ما يلبسه الرجال ، قد غرق فى شعر كثيف ازرف هو شعر الزر المتصل به • وكان جانب وجهها مقوسا تقويسا طفيفا كما كانت ملامحها تتسم بالفخر ولو أن صفاءها يكاد أن يكون حيوانيا • وكانت ترتدى سترة من القطيفة الخضراء محلاة بحافة سميكة من ريش البجع كان بياضها وسمكها يضفى على عنقها، المحاط بزينة دقيقة من الخيوط المتشابكة يتدلى منها كرات من الفضة ، الكثير من الاناقة • وكان قوامها ملفوفا بأقراص من لذهب تعلوها زرار كبيرة من خيوط الذهب المتشابكة وكانت قدماها اللتان تخليتا عن خفيهما على الحذاء تتثنيان وقد اكتسيتا فى ترف مستحدث بجوارب من الحرير ذات جوانب مطرزة .

وعلى العكس من رفيقاتها اللاتى كن يتركن ضفائرهن ، التى تتخللها خيوط من الرقائق المعدنية الصغيرة ، تتدلى على أكتافهن وظهورهن ، كانت اليهودية الجالسة بجوار الارمينية تخفى ضفائرها بعناية ، كما تفرض عليها قوانينها ذلك ، تحت ما يشبه القلنسوة البيضاء ذات الشكل الكروى وكانت تذكرنا بغطاء الرأس لدى النساء فى القرن الرابع عشر كما يعطينا فكرة عن ذلك غطاء رأس كريستين دى بيزان•(١) كان ثوبها الذى يتسم بمزيد من الاحتشام يتكون من قطعتين وضع كل منهما فوق الآخر ، كان الاعلى يصل الى ارتفاع الركبتين • وكانت ألوانهما أكثر هدوءا والتطريز أقل بريقا مما ترتديه النساء الأخريات • وكان محياها الهادىء الوديع والملامح المنتظمة الدقيقة يذكرنا بالطابع اليهودى الخاص بالقسطنطينية والذى لا يشبه فى شىء الأنواع التى نعرفها • كان أنفها لا يتسم بشىء من التقوس الواضح الذى يدل لدينا على من تحمل اسم ربيكا أو راشيل •

أما الرابعة ، وهى الجالسة على طرف الأريكة ، فقد كانت يونانية شابة شقراء تتميز الصورة الجانبية لوجهها بالدقة التى اشتهرت بها التماثيل القديمة • وكانت تضع على رأسها قبعة من الخوص من صنع أزمير تتميز بحافة معرجة ورمانات من الذهب كانت تميل فى أناقة على الاذن وتحيط بها ضفيرتان كبيرتان من الشعر المقوص تكونان عمامة فوق الرأس • كانت تلك القبعة تتناسب تماما مع محياها اللماح الذى تضيئه

---

(١) أديبة فرنسية ولدت فى فينيسيا ١٣٦٣ — ١٤٣١ .

عينان زرقاوان تتألقان ذكاء وتتعارضان مع ذلك البريق الساكن الخالى من الأفكار الذى يصدر من العيون السوداء الكبيرة لمنافساتها فى الجمال .

وقال لى الشيخ : « تلك عينة كاملة لنساء الشعوب الأربعة التى يتكون منها الشعب البيزنطى » .

وحيينا هؤلاء النساء الجميلات اللاتى رددن التحية على الطريقة التركية ونهضت الشركسية وصفقت بيديها فانفتح أحد الابواب . ورأيت من خلاله قاعة أخرى كان اللاعبون بملابسهم المختلفة يحيطون فيها باحـــدى الموائد الخضراء .

وقال لى رفيقى : « هذا هو فراسكاتى (١) حى بيرا . وفى استطاعتنا أن نلعب بعض الأدوار فى انتظار العشاء .

فقلت له غير آبه بالاختلاط بهذا الجمع : « اننى أفضل تلك القاعـــة التى تتألق بكثير من الملابس اليونانية » .

وفى تلك الأثناء دخلت فتاتان صغيرتان تحمل احداهما سلطانيـــة من البللور موضوعة فوق صينية كبيرة وتحمل الأخرى ابريقا للماء وبعض الكوبات ، كما كانت تحمل كذلك منشفة ذات حافة من الحرير ذى اللمعة الفضية . وتقدمت الشركسية التى كان يبدو أنها تقوم بدورربة البيت نحونا ، وأخذت ملعقة من الفضة المذهبة مزجتها بمربى الورد ثم قدمت الى الملعقة أمام فمى مع ابتسامة من أرق الابتسامات . وكنت أعرف أنه فى مثـــل هذه الحالة ينبغى ازدراد محتويات الملعقة ثم شرب كوب من الماء للمساعدة على البلع . ثم قدمت لى الفتاة الصغيرة المنشفة لتنشيف فمى . وقد حدث كل ذلك طبقا لتقاليد أرقى البيوت التركية .

وقلت : « يبدو لى أننى أشهد لوحة من ألف ليلة وليلة وأننى أرى الآن حلم النائم الصاحى . ولربما دعوت هؤلاء النسوة الجميلات عن طيب خاطر . سحر القلوب والضنى وعين النهار وزهرة الياسمين (٢) .

وكان الشيخ على وشك أن يذكر لى أسماءهن حين سمعنا ضجة شديدة

---

(١) بيت شهير من بيوت القمار فى باريس اختفى سنة ١٨٣٧ .

(٢) اشارة الى قصة النائم اليقظان من ألف ليلة وليلة :

كانت أسماؤهن هى : عنق المرمر وفم المرجان ووجه القمر وريق الشمس ومتعة العيون ومتعة القلب » .

على الباب يصحبها الرنين المعدنى لقبضات البنادق • وحدث هرج شــــديد فى قاعة اللعب وحاول كثير من الحاضرين الهرب أو الاختفاء •

فقلت وقد تذكرت القصة التى ذكرها لى الشيخ : « هل نحن لدى بعض السلطانات • وهل سيقذفون بنا الى البحر ! »

وطمأننى تعبير وجهه الهادىء بعض الشىء • وقال لى : «لنصخ السمع» وسمعنا صوت أناس يصعدون السلم ، وكان ضجيج أصـــوات مختلطة يسمع فعلا فى القاعات الاولى حيث توجد السيدات الكبيرات ودخل ضابط شرطة بمفرده الى قاعة الاستقبال وسمعت كلمة « افرنج » ينطق بها للدلالة علينا • وأراد أن يتجه الى قاعة اللعب حيث كان اللاعبون الذين لم يهربوا يواصلون اللعب فى هدوء •

لقد كانت تلك مجـــــرد داورية من رجال الامن للتأكد من أن ليس بالبيت أتراك أو طلبة من المدارس العسكرية • وكان من الواضح أن من لاذوا بالفرار كانوا ينتمون الى احدى هاتين الطائفتين • الا أن الداورية قد أحدثت كثيرا من الضجيج لدى دخولها حتى لا يفترض أحد أنها تتنــاول أجرها مقابل ألا ترى شيئا وألا تبلغ عن أية مخالفة • لقد كانت الامور تجرى على هذا النحو مع ذلك فى كثير من البلاد •

وحانت ساعة العشاء • وتصالح السعداء والتعساء من اللاعبين بعد الكفاح وأحاطوا بمائدة أعدت على الطريقة الاوربية • الا أن النساء لم يظهرن فى هذا الاجتماع الذى أصبح وديا وذهبن فجلسن فوق احدى المنصات • وأخذت فرقة موسيقية فى الطرف الآخر من القاعة تسمعنا أنغامها أثنــــاء تناول الطعام طبقا للعادات الشرقية •

ولم يكن هذا الاختلاط بين الحضارة والتقاليــــد البيزنطية من أدنى الأمور التى تجذب الناس الى تلك الليالى المرحة التى خلقها الاحتكاك الحالى بين أوربا وآسيا والتى تعتبر القسطنطينية مركزه البراق والذى يجعله تسامح الاتراك ممكن الوقوع • لقد حدث فعلا أننا لم نشهد هنا الا حفلا بريئا كسهرات مقاهى مرسيليا • أما الفتيات اللائى كن يسهمن فى نجاح هذا الاجتماع فقد استخدمن فى مقابل بعض القروش لكى يعطين للأجانب فكرة عن ألوان الجمال المحلى • ولم يكن ثمة ما يحمل على التفكير فى أنهــن قد استدعين لغرض آخر غير الظهور فى صورة جميلة وفى ملابس تدل على مستحدثات البلد • والواقع أن الجمع قد افترق لدى الخيوط الأولى للصباح

وتركنا قرية سان — ديمترى بهدوئها وسكونها الظاهرين . وليس ثمة منظر أكثر فضيلة من هذا المنظر الشاعرى حين يرى فى ضوء الفجر الا هـــذه البيوت الخشبية التى كانت أبوابها تفتح هنا وهناك لتظهر معهـا ربات البيوت المبكرات .

وافترقنا . وعاد رفيقى الى بيته فى بيرا ، أما أنا فقد كنت مازلت واقعا تحت سحر تلك الليلة فذهبت للنزهة فى ضاحية تكية الدراويش حيث يتمتع المرء بالمنظر الكامل لمدخل المضيق . ولم تلبث الشمس أن طلعت وأعادت الحياة الى الخطوط البعيدة للضفاف والرءوس المرتفعة .

وفى اللحظة ذاتها دوت طلقة مدفع فى ميناء طوفانا . ولم يلبث أن انبعث من المئذنة الصغيرة التى ترتفع فوق التكية صوت رقيق حزين يشدو قائلا : « الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر ! .

ولم أستطع التغلب على عاطفة غريبة من التأثر . الله أكبر ! الله أكبر ! .. وهؤلاء الدراويش المســـاكين الذين يكررون هذه الكلمات السامية دون تغيير من فوق مئذنتهم كانوا يبدون لى وكأنهم يوجهون لى نقدا على ليلة أسيء استعمالها . وكان المؤذن مازال يكرر . الله أكبر ! الله أكبر !

« لا اله الا الله ! محمد رسول الله ! »

تلك هى كلمات تلك الدعوة الخالدة ... أما بالنسبة الى فالله فى كل مكان مهما تغيرت أسماؤه . وكم أكون تعيسا لو شعرت أننى مذنب فى تلك اللحظة من أجل خطأ حقيقى . ولكنى لم أفعل سوى أن نشدت التسلية كما يفعل جميع الافرنج فى بيرا فى احدى ليالى الأعياد حيث يجتمع الناس من جميع الأديان فى تلك المدينة الدولية . لماذا اذن نخشى عين الله ؟ ان الأرض التى تبللها قطرات الندى ترد بأريجها العطرى على نسمة البحر العابرة التى تصل الى فوق حدائق السراى التى خططت على الضفة الأخرى .

وكان كوكب الصباح الباهر يرسم من بعيد تلك الخريطة الجغرافية السحرية للبسفور التى تجـــذب الأنظار فى كل مكان بســـبب ارتفاع الضفاف وتغير مناظر الأرض حين تقطعها المياه . وبعد أن بقيت ساعة فى التأمل والاعجاب شعرت بالتعب فعدت فى وضح النهار الى فندق الآنسات « بيشفتيه » حيث كنت أقيم والذى كانت نوافذه تطل على ساحة الموتى الصغيرة .

المسارح والأعياد

١ ـ خان يبلدز (١)

بعد أن أخذت قسطى من الراحة استفسرت عن طريقة حضور الحفلات الليلية التى تقام فى المدينة التركية • ولم يجد صديقى الرسام ، الذى عدت فرأيته خلال النهار ، بما له من ألفة بعادات البلاد ، من طريقة سوى أن يجعلنى أعيش فى استانبول ، وهو أمر كانت تعترضه صعاب كبيرة •

واستقللنا قاربا لعبور القرن الذهبى وهبطنا من سلم سوق السمك نفسه حيث كنا فى الليلة البارحة شهودا لحادثة دامية • وكانت الحوانيت مغلقة فى كل مكان ، كما كانت السوق المصرية التى تلى ذلك والتى تباع فيها التوابل والأصباغ والمنتجات الكيميائية مغلقة اغلاقا محكما • وفيما وراء ذلك لم يكن يسكن الطرقات الا الكلاب وقد أدهشها ، خلال الأيام الأولى من رمضان ، أن لم تعد تتلقى غذاءها اليومى من حانوت مجاور للسوق يشغله أرمينى يعرفه صديقى • لقد كان كل شيء مغلقا لديه • ولكن لما كان لا يخضع للقانون الاســـلامى فقد أباح لنفسه أن يصحو بالنهار وينام بالليل كالمعتاد دون أن يجعل شيئا يبدو من خارج حانوته•

واستطعنا أن نتناول غداءنا لديه فقد كان من الحذر بحيث اشترى بعض المؤن فى الليلة البارحة • ولو لم يكن الأمر كذلك لاضطررنا للعودة

---

(١) كتب نرفال في مراسلاته لوالده يقول : «منـذ بداية شهر رمضان ذهبت للاقامة لا فى بيرا ولكن فى الجزء الواقع بين القرن الذهبى والبحر : لقد وجدت مسكنا لطيفا للغاية يطل على أجمل منظر ، وهو فى خان يبلدز أى فندق النجمة . ان كل هذا المبنى الضخم ملىء بفرس وأرمن غاية فى الأدب . ولا يحوى المسكن الا الجدران ولكن أثاثه المكون من سرير سفرى وحصير وسجادة ومنضدة من سعف النخل فيه الكفاية » .

الى بيرا للحصول على الطعام . وبدت له فكرة اقامتى فى استانبول غريبة لأول وهلة اذ أن هذا الحق لم يكن يمنح لأى مسيحى ولم يكن يسمح لهم الا بالقدوم اليها أثناء النهار . ولم يكن ثمة فندق واحد ولا خان واحد بل ولا حتى نزل صغير معد لاستقبالهم . ولا يستثنى من ذلك الا الأرمن واليهود أو اليونانيون من رعايا الامبراطورية .

ومع ذلك فقد تشبثت بفكرتى وبينت له أننى وجدت طريقة للاقامة فى القاهرة خارج الحى الافرنجى وذلك بأن ارتديت ملابس البلاد وجعلت الناس يعتقدون أننى قبطى . فقال لى : « حسن ! ليس ثمة الا وسيلة واحدة وهى أن تجعل الناس يعتقدون أنك فارسى . لدينا فى استانبول نزل يدعى خان بيلدز (أى خان النجمة) يستقبل جميع التجار الآسيويين من جميع الأقطار الاسلامية . وهؤلاء الناس ليسوا من معتنقى مذهب على فحسب بل منهم المجوس والبرسيون والكورديون والوهابيون مما يكون خليطا من اللغات يستحيل معه على الأتراك معرفة الى أى جزء من الشرق ينتمى هؤلاء الناس . وهكذا اذا امتنعت عن التحدث بلغة من لغات الشمال يعرفونها من طريقة نطقها فانك تستطيع الاقامة بينهم .

وذهبنا الى خان بيلدز الذى يقع فى أعلى مكان فى المدينة بالقرب من « العمود المحترق » ، وهو من أظرف مخلفات بيزنطة القديمة . وكان الخان ، وهو مبنى كله من الحجارة ، يبدو من الداخل وكأنه كهف . وكان ثمة ثلاثة طوابق من الأروقة تشغل جوانب الفناء الأربعة ، وكانت المساكن ذات القباب كلها معدة اعدادا واحدا : فهى تتكون من قاعة كبيرة تستخدم كمخزن ، وحجرة صغيرة ذات أرضية خشبية يستطيع كل امرىء أن يضع فيها سريره . كما أن المستأجر كان له الحق فى وضع جمل أو حصان فى الحظيرة المشتركة .

ولما لم يكن لدى مطية ولا بضاعة فكان لابد أن يظننى الناس تاجرا فرغ من بيع بضاعته وأتى بقصد التزود من جديد بالبضائع . وكان الأرمينى على صلة عمل ببعض تجار الموصل والبصرة الذين قدمنى اليهم . واحضرنا الغلايين والقهوة وشرحنا لهم الامر فلم يجدوا أية غضاضة فى قبولى بينهم على شرط أن أرتدى ملابسهم . ولكن لما كنت أمتلك فعلا أجزاء كثيرة من تلك الملابس ، لاسيما عباءة من وبر الجمل استخدمته من قبل فى مصر وسورية ، فلم أكن فى حاجة الا لطاقية مدببة من الاستراخان على الطريقة الفارسية أحضرها لى الأرمينى .

وكان كثير من هؤلاء الفرس يتكلمون اللغة الافرنجية لبلاد الشرق التى يستطيع المرء بواسطتها دائما أن يتفاهم مع الناس بمجرد أن يعيش فى المدن التجارية . وهكذا استطعت بسهولة أن أعقد صلات صداقة مع جيرانى . ولقد كانت ثمة توصيات قوية بخصوصى وجهت الى جميع من يسكنون الرواق نفسه ، ولم يكن يضايقنى الا لهفتهم على تكريمى والى اصطحابى فى كل مكان . وكان لكل طابق فى الخان طاه خاص كان يقوم فى الوقت نفسه بصنع القهوة وهكذا استطعنا أن نستغنى تماما عن العلاقات الخارجية . ومع ذلك فحينما كان يحل المساء كان الايرانيون الذين كانوا كالأتراك ينامون سحابة اليوم ليستطيعوا الاحتفال بكل ليلة من ليالى رمضان . كانوا يصحبوننى معهم لشهود الاحتفالات المستمرة التى تدوم ثلاثين يوما .

واذا كانت المدينة تبدو لمن يراها من مرتفعات بيرا مزدانة بالأضواء المتلألئة الرائعة فان شوارعها الداخلية قد بدت لى أكثر رونقا وبهاء . كانت جميع الحوانيت المفتوحة مزينة بالأكاليل وأصص الزهور ، ومزدانة من الداخل بالمرايا والشموع ، وكانت البضائع مزينة فى فن والمصابيح الملونة تتدلى من الخارج . وكانت الرسوم والمذهبات نضرة وبائعو الفطائر بصفة خاصة وكذلك بائعو الحلوى ولعب الأطفال وبائعو المجوهرات يعرضون مالديهم من تحف ، كان ذلك هو مايجذب الأنظار فى كل مكان . وكانت الشوارع غاصة بالنساء والأطفال أكثر مما تزدحم بالرجال ، وذلك لأن هؤلاء كانوا يقضون أغلب وقتهم فى المساجد والمقاهى .

ولا ينبغى أن نعتقد أن الملاهى قد أغلقت ، فالأعياد التركية للجميع . كان لكل « ريس » كاثوليكى أو يونانى أو أرمينى أو يهودى الحق فى دخول هذه الأماكن . ولابد أن يظل الباب الخارجى مغلقا ، ولكن ماكان على المرء الا أن يدفعه وبعد ذلك يستطيع أن يروى ظمأه بكأس طيب من نبيذ «تنيدوس» مقابل عشر بارات (خمسة سنتيمات) .

كنت ترى فى كل مكان بائعى المقليات والفاكهة أو سنابل الذرة المسلوقة التى يستطيع المرء أن يعيش عليها طيلة اليوم بعشر بارات ، وكذلك بائعى البقلاوة ، وهى نوع من الكعك المشرب بالكثير من السمن والسكر يحبه النساء بصفة خاصة . وكان ميدان سيراسكييه هو أكثر

الميادين تألقا · كان مثلث الشكل تحف به من اليمين ومن الشمال أضواء مسجدين ، ومن الداخل أضواء المنشئات الحربية · وكان ذلك الميدان مكانا فسيحا لألعاب الفروسية ولمختلف المواكب التى تجتازه · كان ثمة عدد كبير مما يعرضه الباعة المتجولون يشغل واجهات المنازل ، كما كانت عشرات المقاهى تحاصرك باعلانات مختلفة عن العروض المسرحية والرقص وخيال الظل (١) ·

---

(١) خيال الظل أو الظلال الصينية هى بداية القراقوز الذى سوف نتحدث عنه فيما بعد (فى الفصل الثالث) ·

٣ ـ زيارة لبيرا

ولما لم أكن مضطرا ، مثل المسلمين ، الى النوم طيلة النهار والى قضاء الليل كله فى المتعة خلال شهر رمضان السعيد الذى يجمع بين الصوم واللهو فقد كنت كثيرا ما أذهب الى بيرا لكى أستمتع بالحديث الى الأوربيين ٠

وذات يوم لفت نظرى اعلان لأحد المسارح فوق الجدران كان يعلن افتتاح الموسم المسرحى ٠ وكانت الفرقة الايطالية هى التى ستبدأ بثلاثة أشهر من العروض المسرحية ٠ وكان الاسم الذى يلمـــع بحروف كبيرة كالنجم المسرحى لهذا الوقت هو اسم رونزى ـ تاتشيناروى ، تلك المغنية التى تمثل أجمل فترات الموسيقى روسينى وقد خصها الكاتب الفرنسى ستاندال ببعض صفحاته الرائعة (١) ٠ وقد تخطت رونزى للأسف سن الشباب ٠ ٠ وقد قدمت الى القسطنطينية كما حضرت اليها منذ سنوات ممثلة التراجيديا الشهيرة الآنسة جورج ، التى ذهبت لتعرض مسرحياتها فى القرم بعد أن مثلت على مسرح بيرا وكذلك أمام السلطان ومثلت مسرحية ايفيجينى فى توريد فى نفس المكان الذى أقيم فيه فيما مضى معبد توآس ٠ ان كبار الفنـــانين ، ومثلهم فى ذلك مثل جميع العبقريات ، يمتازون بشعورهم العميق بالماضى ٠ وهم يحبون كذلك رحلات المغامرات وتجذبهم دائما شمس الشرق كمـــا لو كانوا يشعرون أنهم من طبيعة النسور ٠ وكان دونيزتى يقود الأوركسترا بأمر خاص من السلطان الذى عينه منذ زمن طويل رئيسا لموسيقاه ٠

---

(١) ستاندال : حيـــاة هايدن ٠ روما ونابلى وفلورنســا ٠ حيـــاة روســــينى ٠ يلاحظ أن اســم المغنيــة غير حقيقى وان جيرار قد خلط بين اســم المغنى « التينور » تاتشيناردى والمغنية جوزيفين رونزى ـ ديبجينس ٠

حقيقة لم يكن هذا الاسم المتألق الا شقيقا للموسيقار الذى طالما أعجبنا به · ولكنه لم يكن أقل تألقا منه فوق الاعلان الذى كان له سحر خاص على الأوربيين · ولذا فلم يكن يشغل المدينة الافرنجية الا هذا العرض المسرحي القريب · وكانت التذاكر توزع قبل الموعد فى الفنادق والمقاهى ولذا أصبح من العسير الحصول عليها · وخطرت لى فكرة التوجه لزيارة مدير أهم جريدة فرنسية فى القسطنطينية ، تقع مكاتبها فى حى غلطة ، وقد بدا مسرورا لزيارتى واستبقانى للعشاء الذى كرمنى بعده بدعوتى لزيارة منزله · وقال لى : « اذا لم تكن قد نسيت مهنتك القديمة ككاتب قصص مسلسلة فسوف تقوم بكتابة التعليق على العروض المسرحية وتحصل هكذا على وسيلة لدخول المسرح » · وقبلت ربما بشىء من التسرع لانه فى حالة الاقامة فى استانبول ليس من السهل العودة اليها مرة كل يومين ليلا بعد نهاية العرض المسرحى ·

وقد عرضت أوبرا بيوند لمونتى (١) · كانت قاعة المسرح التى تقع فى أعالى بيرا تميل الى الطول أكثر من العرض · وكانت المقصورات متتابعة على الطريقة الايطالية دون أروقة · وكانت كلها تقريبا مشغولة بالسفراء ورجال البنوك · أما الأرمن واليونانيون والافرنج فكان يتكون منهم تقريبا كل جمهور الصالة · أما مقاعد الأوركسترا فقد كنا نلاحظ فيها بعض الأتراك من أولئك الذين أرسلهم عائلوهم منذ زمن طويل الى باريس أو فيينا ، وذلك لأنه اذا لم تكن التقاليد تمنع فى واقع الأمر المسلم من مشاهدة مسارحنا فانه مما يجدر أخذه فى الاعتبار أن موسيقانا لا تستحوذ من اعجابهم الا بالقدر اليسير ، وكذلك فان موسيقاهم التى تبدأ بأرباع النغمات تبدو لنا غير مفهومة الا اذا ترجمت طبقا لنظامنا الموسيقى · وكانت النغمات الوحيدة التى يفهمها الجميع هى الألحان اليونانية أو الفالاكية · وكان دونيزتى قد كلف شقيقه بأن يجمع منها أكبر قدر ممكن وكان يستخدمها دون شك فى الأوبرات التى يقدمها ·

وأراد مدير جريدة القسطنطينية أن يقدمنى الى السفير الفرنسى · ولكنى تجنبت هذا الشرف اذ أنه كان من المحتمل أن يدعونى للعشاء ، ولقد حذرونى من هذا الاحتمال ·

وكان هذا السفير يقيم طيلة الصيف فى ترابيا وهى قرية تطل على البوسفور على بعد ست ساعات من القسطنطينية · ولكى يتوجه المرء اليها ينبغى أن يستأجر قاربا يقوده ستة من المجدفين مدة نصف يوم

---

(١) Buondel Monte

وهذا يكلف تقريبا عشرين فرنكا · وهكذا تجد أن هذا العشاء الذى يدعوك اليه السفير باهظ التكاليف ··· ويمكننا أن نضيف الى مضايقات هذه الدعوة المتاعب التى تلقاها فى العودة بحرا فى ساعة متأخرة وأحيانا فى أحوال جوية رديئة فى قارب على شكل سمكة ، مثل سمك اليد يصاحبه كورس لا يكل ولا يمل من سمك القرش الذى يرقص فى تهكم على قمم الأمواج على أمل أن يحصل على عشائه على حساب المدعوين المتأخرين لسفير فرنسا ·

وسار العرض كما يحدث على أحد المسارح الايطالية · وانهالت باقات الزهور على رونزى وتكررت استعاداتها عشرين مرة ، ولابد أنها قد رضيت عن هذا الحماس البيزنطى · ثم عاد كل فأشعل مصباحه وتقدمت عربات السفراء وأصحاب البنوك · وامتطى آخرون صهوات جيادهم · أما أنا فقد استعددت للعودة الى خان بيلدز لأنه فى بيرا قد لا يجد المرء مكانا للمبيت ولو لليلة واحدة ·

وكنت أعرف الطريق الطويل المؤدى الى استانبول عن طريق القنطرة التى تعبر القرن الذهبى ، فلم أكن أخشى السير على ضوء قمر شهر رمضان وحده فى تلك الليلة الجميلة التى تشبه طلوع الفجر لدينا · أما الكلاب التى تقوم مقام الشرطة فى الشوارع فهى لا تهاجم أبدا الا غير الحذرين الذين يستهزئون بالتعليمات ولا يكلفون أنفسهم عناء حمل المصابيح · وتوجهت اذن عن طريق مقبرة بيرا خلال طريق يؤدى الى باب غلطة المؤدى بدوره الى مبانى البحرية · ان السور المحصن ينتهى هنا الا أن أحدا لا يستطيع عبور القرن الذهبى دون المرور منه · ويدق المرء على أحد النوافذ فيفتح له البواب مقابل نفحة من المال ، ويجيب على تحيات الحرس بكلمة : عليكم السلام · وفى طرف الطريق الهابط الى البحر يصل المرء الى هذه القنطرة الرائعة الطويلة والتى شيدها السلطان محمود ·

وما أن بلغت الشاطىء الآخر حتى سرنى ان وجدت من جديد أضواء العيد المتلألئة ، وهى لوحة من أكثر اللوحات ادخالا للبهجة على النفس لا سيما حينما يقوم المرء بمسيرة طويلة ليلا خلال أشجار السرو والقبور ·

ورصيف الفنار المزدحم ببائعى الفاكهة والحلوى والفطائر والمقليات والباعة المتجولين واليونانيين الذين يبيعون شراب الينسون وشراب الورد المخمرين يغص بالبحارة الذين تصطف سفنهم بالمئات فى الخليج · أما الملاهى والمقاهى المزدانة باللوحات الشفافة المضاءة من الخلف وبالمصابيح فمازلنا نراها الى حين فى الشوارع المحيطة · ثم تقل الأنوار وتقل

الضوضاء شيئا فشيئا ثم لابد لنا من عبور سلسلة طويلة من الأحياء المنعزلة الهادئة ذلك لأن العيد لا يقام الا فى الأجزاء التجارية من المدينة . وما تلبث الأقواس العالية لقناة ڤالنسى أن تظهر مشرفة ببنائها الحجرى الضخم على المنازل التركية المتواضعة المبنية كلها من الخشب . ويرتفع الطريق أحيانا فى شكل مدرجات مشرفا من اِرتفاع خمسين قدما على الطريق الذى يتقاطع معه أو يتبعه بعض الوقت قبل أن يرتفع نحو التلال أو يهبط نحو البحر .

ان استانبول مدينة يتخللها كثير من التلال ولم يستطع الفن أن يصنع فيها شيئا يذكر لاصلاح الطبيعة . ويشعر المرء أنه قد بلغ أرضا أكثر استقرارا حين يبلغ طرف ذلك الشارع الطويل شارع المساجد الذى يشكل الشريان الرئيسى للمدينة والذى ينتهى بالأسواق الكبيرة . وهذا الشارع يثير الاعجاب خصوصا بالليل وذلك بسبب الحدائق الرائعة والأروقة المتقطعة والنافورات الرخامية ذات السياج المذهب والأكشاك والبوابات والمآذن العديدة التى تتبينها تحت ضوء النهار الخافت المائل للزرقة . وتتألق هنا وهناك الكتابات الذهبية والرسوم المطلية بالألوان البراقة والسياجات ذات الخطوط الزاهية والرخام المنحوت والزينات التى تعلوها الألوان المختلفة ، مضفية على الحدائق ذات اللون الأخضر القاتم التى تتمايل فيها غصون الكروم المعلقة على التكاعيب العالية ، مضفية عليها الألوان الزاهية . وأخيرا تنتهى العزلة ويمتلىء الجو بالضوضاء البهيجة وتتألق الحوانيت من جديد . وتبدو الأحياء الآهلة الغنية بكل ما فيها من رونق . ويعرض بائعو لعب الأطفال على واجهات محلاتهم آلافا من الكماليات الغريبة التى تدخل السرور على قلوب الأمهات وأرباب الأسر الطيبين الذين يسرهم أن يعودوا الى منازلهم حاملين اما قراقوزا من صنع فرنسا أو لعبا من صنع نورنبرج أو بعض اللعب الصينية التى تحملها القوافل الى تلك المدينة . ان الصينيين هم أكثر شعوب العالم معرفة بما يلزم كتسلية الأطفال .

٣ - القراقوز

ومن بين هذه اللعب تتميز من كل جانب الدمية الغريبة المسماة بالقراقوز التى وصلت شهرتها الى الفرنسيين · ومن غير المعقول أن يوضع هذا الوجه غير المناسب فى متناول يد الأحداث دون مراعاة للنتائج · ومع ذلك فهو الهدية الشائعة · التى يقدمها الآباء والأمهات لأطفالهم · ان للشرق آراء أخرى حول التربية والأخلاق مخالفة لآرائنا ان الهدف هنا هو تنمية الحس فى حين أننا نسعى الى اخماد شعلته ·· (١)

وكنت قد وصلت الى ميدان سيراسكييه : وكان ثمة جمهور كبير يتزاحم أمام أحد مسارح خيال الظل يدل عليه لوحة شفافة كتب عليها بالخط الكبير : قراقوز ضحية حيائه !

وهذا العنوان غريب ومروع لمن يعرف تلك الشخصية ·· ولابد أن هاتين الصفتين اللتين استعملتهما قد ارتاعتا لاجتماعهما مع اسم كهذا · ومع ذلك فقد دخلت لمشاهدة العرض متحديا فرصا قد تأتى بخيبة أمل طائشة ·

وعلى باب هذا الملهى الليلى كان يقف أربعة من الممثلين ممن سوف يظهرون فى التمثيلية الثانية · ذلك لأنه بعد عرض القراقوز سوف تعرض تمثيلية « زوج الأرملتين » وهى مسرحية هزلية تهريجية مما يسمونه « **تقليد** » ·

---

(١) ان هذه الشخصية ، وأصلها غير مقطوع بصحته ، هى لبطل مسرح الخيالات وقد تحدث عنه الكاتب والشاعر تيوفيل جوتييه فى كتابه « القسطنطينية » أما عن عدم لياقته فلا تكون دائما ظاهرة ، ويقول تيوفيل جوتييه انه لم يكتشف عدم اللياقة هذه الا فى عرض شبه سرى ·

وكان الممثلون ، ويرتدون صديريات مطروزة بالذهب ، يحملون تحت طرابيشهم الأنيقة ضفائر طويلة من الشعر كضفائر النساء · وكانت جفونهم مطلية بالكحل وأيديهم بالحناء ، وقد ألصقوا بعض حبات « الترتر » على جلد الوجه وبعض النقط السوداء على أذرعهم العارية · وكانوا يستقبلون الجمهور بلطف ويتلقون ثمن الدخول بابتسامة رقيقة موجهة للأفندية الذين يدفعون أكثر مما يدفع الرجل الشعبي العادى · ان قطعة ذهبية من ذوات الفرنك والخمسة والعشرين سنتيما كانت تضمن للمتفرج تعبيرا حيا بالامتنان ومكانا محجوزا في الصفوف الأولى · وعلى كل فلم يكن أحد مجبرا على أن يدفع أكثر من عشر بارات · وينبغى أن نضيف أن ثمن الدخول كان يعطى الحق فى طلب واحد من القهوة والتبغ · أما الشربات والمرطبات المختلفة فكانت خارج الحساب ·

وما أن جلست على أحد المقاعد (الدكك) حتى تقدم منى صبى أنيق الملبس مكشوف الذراعين حتى الكتفين قد تدل ملامحه الجيبية على أنه فتاة ، تقدم منى يسألنى ما اذا كنت أطلب شبوق أو نرجيلة ، ولما أبلغته باختيارى أحضر لى كذلك قدحا من القهوة ·

وأخذت القاعة تمتلىء شيئا فشيئا بأناس من جميع الأنواع لاترى فيهم امرأة واحدة · ولكن كثيرا من الأطفال قدموا بصحبه العبيد أو الخدم · وكان اكثرهم انيق الملبس ولابد أن ذويهم قد رغبوا فى اعطائهم فرصة الاستمتاع بالعرض المسرحي دون أن يصحبوهم وذلك لأن الرجل فى تركيا لايضايق نفسه لا بالمرأة ولا بالطفل فكل يذهب بمفرده ويكف صغار الأولاد حين يتخطون السن الأولى عن السير فى ركاب أمهاتهم · ومع ذلك فان العبيد الذين يعهد اليهم بهؤلاء الأطفال يعتبرون من أفراد الأسرة .

ولقد اعفوا من الأعمال الشاقة وحددت مهمتهم بالأعمال المنزلية ، مثلهم فى ذلك مثل عبيد القدماء ، مما يجعل الخدم العاديين يحسدونهم · واذا كان العبيد من ذوى الذكاء فغالبا ما يصلون الى اعتاق أنفسهم بعد بضع سنوات من الخدمة مع الحصول على دخل جرى العرف بتحسينه فى مثل هذه الظروف · ومن المخجل أن نذكر أن أوربا المسيحية كانت أكثر قسوة من الأتراك حين اضطرت عبيد المستعمرات الى القيام بالأعمال الشاقة ·

ولنعد الى العرض المسرحى · فما أن امتلأت القاعة بعدد كاف من المشاهدين حتى اسمعنا الاوركسترا الجالس فى رواق مرتفع مقطوعة شبيهة بالافتتاحية · وفى أثناء ذلك كان أحد أركان القاعة يضاء بشكل

غير متوقع . كان ثمة ستارة من نسيج رقيق شفاف أبيض اللون تماما ويحيط بها زينات متعرجة ، تدل على المكان الذى سوف تظهر فيه الظلال الصينية . وأطفئت الأنوار التى كانت تضىء القاعة وترددت صرخة مرحة فى جميع أرجاء المكان حينما توقف الأوركسترا . وساد السكون بعد ذلك ثم سمعنا خلف الشاشة رنينا أشبه برنين القطع الخشبية المستديرة حينما يهزها المرء فى داخل أحد الأكياس . كانت تلك هى العرائس التى كانت تعلن عن نفسها بهذه الطريقة وقد استقبلها الأطفال بحماس شديد .

وحينئذ صاح أحد المشاهدين ، ولابد أنه أب ، صاح بالممثل يلح عليه فى أن يجعل عرائسه تتكلم قائلا :

ــ ما الذى ستقدمه لنا اليوم ؟

وقد أجاب الممثل على ذلك قائلا :

ــ ان ذلك مكتوب على الباب لمن يعرفون القراءة .

ــ ولكنى نسيت ماعلمنى اياه « الخوجة » .

ــ حسن ! ان الأمر يتعلق اليوم بالقراقوز الشهير ضحية حيائه .

ــ كيف ستستطيع تبرير هذا العنوان ؟

ــ بالاعتماد على ذكاء أصحاب الذوق السليم وبطلب المساعدة من أحمد ذى العيون السوداء » .

وأحمد هو اسم القراقوز . أما عن العيون السوداء فنلاحظ أنها الترجمة الحرفية لكلمة قراقوز (قره كوز) .

وأجاب المتحدث :

ــ « انك تحسن فن الحديث ، وبقى أن نعرف ما اذا كان العرض سيستمر ! » فأجاب الصوت المنبعث من المسرح :

ــ « اطمئن ! فأنا وأصدقائى تحت اختبار النقاد » .

وبدأ الأوركسترا يعزف من جديد ثم رأينا خلف الشاشة زينة تمثل ميدانا فى القسطنطينية فى مقدمته نافورة ومنازل . ثم مر أمامنا على التوالى أحد القواصين ثم كلب يتلوه سقا وغيرهم من الشخوص الآلية التى كانت تتميز بألوانها المختلفة والتى لم تكن مجرد خيالات كما يحدث عادة فى الظلال الصينية التى نعرفها .

ومالبثنا أن رأينا تركيا يخرج من أحد المنازل يتبعه عبد يحمل حقيبة سفر . وكان يبدو عليه القلق وفجأة اتخذ قرارا وذهب ليدق باب منزل آخر فى الميدان وهو يصيح : « قراقوز » ! قراقوز ! يا أعز أصدقائى أمازلت نائما ؟ » .

وأطل القراقوز بأنفه من النافذة وترددت بين المشاهدين صيحة حماس لرؤيته . ثم طلب مهلة من الوقت ليرتدى ملابسه ثم عاد فظهر بعد برهة وقبل صديقه .

وقال هذا الأخير :

« انصت الى ! انى أنتظر منك خدمة كبيرة . فهناك مسألة هامة تضطرنى للذهاب الى بروسا . وتعلم أننى زوج لامرأة جميلة جدا ، وأعترف لك أنه يصعب على تركها بمفردها لأنى قليل الثقة برجالى .. حسن ياصديقى ، لقد سنحت لى هذه الليلة فكرة ، هى أن أجعل منك حارسا لفضيلة زوجتى . اننى أعرف رقتك والود العميق الذى تكنه لى ويسعدنى أن أعطيك هذا البرهان على احترامى .

وقال القراقوز :

– أيها التعس ! ما هذا الجنون ! أنظر الى اذن قليلا ! .

– حسن ؟

– ماذا ؟ ألا تفهم أن زوجتك حين ترانى فلن تستطيع مقاومة الحاجة فى أن تكون لى ؟

فقال التركى :

– لست أرى ذلك فانها تحبنى . واذا كنت أخشى عليها مما قد تتعرض له من اغراء فان ذلك لا يأتى من ناحيتك ياصديقى ، وشرفك هو الذى يؤكد لى ذلك أولا .. وبعد ذلك .. تالله أن تكوينك لغريب .. وأخيرا اعتمد على » .

وابتعد التركى . وصاح القراقوز قائلا :

– « يالعشاوة الناس ! أنا غريب التكوين ! كان الأجدر بك أن تقول : بديع التكوين ! فائق الجمال فائق الاغراء شديد الخطر !

وقال يحدث نفسه :

« وأخيرا لقد عيننى صديقى حارسا لزوجته . ويجب أن أرد على

هذه الثقة • لندخل الى بيته كمـــا أراد ولنتربع على أريكته •• ولكن يالتعاسة : ان زوجته بدافع من حب الاستطلاع المشهود لدى جميع النساء سوف ترغب فى رؤيتى •• ومادامت عيناها سوف تقعان على فسوف تسحر وتفقد كل سيطرة على نفسها • كلا ! يجب ألا ندخل •• لنبق على باب هذا المسكن كجندى فى نوبة حراسة • ان امرأة لا تساوى الشيء الكثير •• أما الصديق الحق فهو نعمة نادرة ! » •

وأثارت هذه الجملة استحسانا حقيقيا بين المشاهدين من الذكور فى هذه القهوة • وكانت محـــاطة باطار بقالب شعرى فان مثل هذه التمثيليات يخلط فيها الجد بالهزل كما يحدث فى كثير من تمثيلياتنا • وكانت المقاطع التى تردد تكرر كثيرا كلمة « بقائم » وهى الكلمة المفضلة لدى الأتراك ومعناها : لا يهم ! أو ان الأمر لدى سواء !

أما القراقوز فقد رسم نفسه ببراعة فائقة خلال الشاشة الرقيقة التى كانت تصـــهر ألوان الزينات والشخوص ، رسم نفسه ببراعة بعينيه السوداء ، وحاجبيه المرسومة بطريقة واضحة ، وكذلك أكثر الامتيازات بروزا لحديثه الرقيـــق النـــاعم • أما اعتداده بكرامته ، فيما يختص بالاغراءات فلم يكن يبدو أنها قد أدهشت المشاهدين •

وبعد مقطوعته الشعرية بدا أنه مستغرق فى أفكاره • وقال فى نفسه : ما العـــمل ؟ انه بلاشك أن أسهر بالبـــاب فى انتظار عـــودة صديقى •• ولكن هذه المرأة تستطيع أن ترانى خلسة من المشربيات • وفوق ذلك فقد تغريها فكرة الخروج مع جارياتها للذهاب الى الحمام •• ليس ثمـــة زوج يستطيع منع زوجته من الخروج تحت هذه الحجة •• وحينئذ سوف تستطيع الاعجاب بى كما يحلو لهـــا •• أيها الصديق الغافل ! لماذا كلفتنى بهذه الرقابة ؟

وهنا تحولت التمثيلية الى الخيال الخرافى • فلكى يتجنب قراقوز نظرات زوجة صديقه انبطح على الأرض قائلا : سوف أبدو كما لو كنت قنطرة •• وينبغى أن نأخذ فى الاعتبار مالديها من استجابة من نوع خاص لفهم هذه الفكرة الشاذة • ويمكنك أن تتخيل « بوليشينيل» (١) وهو يجعل انتفاخ بطنه كما لو كان قوسا ويكمل شكل القنطرة برجليه وذراعيه • ولكن قراقوز ليس لديه احدوداب فوق كتفيه • وتمر جماعة من الناس وبعض الخيول والكلاب ثم دورية تتلوها عربة ، تجرها الثيران،

(١) أحد الشخوص المهرجين فى الاوبرا الايطالية •

مليئة بالنساء • وينهض قراقوز التعس فى الوقت المناسب حتى لا يجعل من نفسه قنطرة لمثل هذه العربة الثقيلة •

ثم يأتى مشهد أكثر اثارة للضحك وأسهل فى الوصف ليتلو هذا المشهد الذى أراد فيه قراقوز أن يتحول الى قنطرة ليتجنب نظرات زوجة صديقه • ولابد لشرح هذا المشهد من الاستشهاد بفن الكوميديا التهريجية لدى الرومان •• ان قراقوز ليس الا بوليشينيل فى تمثيليات «الأوسك» (١) الذين مازلنا نرى صورا جميلة منها فى متحف نابولى • ان هذا المشهد الغريب الذى يصعب علينا تحمل غرابته ينام فيه قراقوز على ظهره ويريد أن يظنه الناس قطعة من الخشب مدببة الطرف • ويمر الناس والجميع يتساءلون : « من ذا الذى زرع هنا هذا اللوح الخشبى المدبب ؟ فلم يكن موجودا هنا بالأمس • أهو من خشب البلوط أم الزان ؟ » •

وتمر غسالات عائدات من النافورة فينشرن بعض الغسيل على قراقوز الذى يرى بسرور أن افتراضه قد نجح • وبعد لحظة يدخل بعض العبيد يجرون خيولا الى المستشفى • ويقابلهم أحد الأصدقاء ويدعوهم الى الدخول فى أحد الملاهى لتناول المرطبات . ولكن أين يربطون خيولهم ؟ « حسن ، هاهو لوح مدبب » • وهكذا تربط الخيول فى قراقوز •

ثم لا يلبث صوت الغناء المرح أن يتردد فى الملهى بفعل حرارة نبيذ تينيدوس ، وتثور الخيول وقد نفذ صبرها • ويرى قراقوز نفسه والخيول تجره الى الجهات الأربع فيصرخ مستجيرا بالمارة ويثبت وهو يئن من الألم أنه ضحية خطأ • ويخلصه الناس ويوقفونه على قدميه • وفى هذه اللحظة تخرج زوجة صديقه من البيت للذهاب الى الحمام . ولا يجد قراقوز الوقت للاختفاء وتظهر هذه المرأة اعجابها بحماس شديد يدركه المشاهدون ادراكا تاما •

وتصيح المرأة قائلة : « ياللرجل الوسيم ! لم أر من قبل رجلا فى مثل وسامته •

ويقول قراقوز الذى مازال متمسكا بفضيلته :

« معذرة ياهانم ، اننى لست الرجل الذى تستطيعين التحدث اليه •• اننى خفير ليلى من أولئك الذين يضربون بحرابهم لانذار الناس بأن حريقا قد اندلع فى الحى •

---

(١) أحد شعوب ايطاليا .

ـ « ولم اذن مازلت هنا فى هذه الساعة من النهار ؟

ـ اننى مذنب تعس رغم أنى مسلم مؤمن • فقد أغرانى بعض رفاق السوء بالقدوم الى هذا الملهى ولا أدرى كيف تركونى فى هذا الميدان مخمورا أقرب الى الموت •

ـ يا للرجل المسكين .. لا بد أنك مريض .. ادخل الى البيت حيث تستطيع أن تجد بعض الراحة » .

وتحاول السيدة الامساك بيد قراقوز دلالة على كرمها • فيصبح هذا الأخير فى ارتياع :

ـ « لا تلمسينى ياهانم فاننى لست طاهرا ! ولا أستطيع الدخول الى بيت مسلم شريف •• فقد تنجست بلمس أحد الكلاب » •

ولكى نفهم هذا الادعــاء اللبق من جانب قراقوز لابد أن نعلم أن الأتراك رغم احترامهم لحياة الكلاب ، بل حتى تربيتهم لها فى مؤسسات خيرية ، يرون أنه من النجاسة لمسها أو تركها تلمسهم •

وقالت السيدة : وكيف حدث ذلك ؟

ـ لقد عاقبتنى السماء العادلة • فقد كنت أكلت بعض مربى العنب أثناء تبذلى هذه الليلة • وحينما استيقظت هنا فى الطريق العام شعرت والارتياع يملؤنى بأن كلبا يلعق وجهى •• تلك هى الحقيقة وليسامحنى الله ! » •

وبدا أن هذا الادعاء هو الذى انتصر من بين جميــع الادعاءات التى أخذ قراقوز يقدمها الواحد تلو الآخر لكى يرفض عروض زوجة صديقه •

وقالت السيدة بعطف :

ـ « يالرجل المسكين ! ليس ثمةمن يستطيع لمسك قبل أن تتوضأ خمس مرات كل مرة منها لمدة ربع ساعة وأنت تتلو آيات القرآن • اذهب الى النافورة حتى أجدك هنا لدى عودتى من الحمام » • وصاح قراقوز وقد غدا بمفرده :

يالجراءة نساء استانبول ! ان هذا الخمار الذى يخفين به وجوههن يمنحهم مزيدا من الجرأة للمساس بحياء فضلاء الناس • كلا ! لن تغرينى هذه الوسائل المصطنعة ولا هذا الصوت العسلى وهذه العين الملتهبة خلف فتحات قناعها المخملى • لماذا لا تلزمهن الشرطة باخفاء عيونهن ؟

وسيطول بنا الأمر لو وصفنا بقية المغامرات التعسة لقراقوز ٠ ان الناحية المضحكة فى هذا المشهد ترتكز بصفة خاصة على فكرة حراسة المرأة بواسطة الشخص الذى يبدو مخالفا كل المخالفة لأولئك الذين يمنحهم الأتراك عادة ثقتهم ٠ وتخرج السيدة من الحمام وتلتقى من جديد بحارس عفافها الذى اضطرته مضايقات كثيرة الى البقاء فى مكانه ٠

ولم تستطع أن تمنع نفسها من التحدث الى رفيقاتها فى الحمام عن الرجل الوسيم جميل التكوين الذى التقت به فى الطريق ٠ وهكذا نجد حشدا من المستحمات يندفع فى اثر صديقتهن ٠ ولنتصور الحرج الذى يقع فيه قراقوز وقد وقع فريسة لهؤلاء المعجبات الفاجرات الجديدات ٠

ومزقت زوجة صديقه ملابسهـا وأخذت تشد شعرها ولم تدخر وسعا لمقاومة قسوته ٠ وكان على وشك أن يخضع حين مرت فجأة عربة فرقت الجمع ٠ انها عربة مقفلة طبقا للذوق الفرنسى القديم ، عربة أحد السفراء ٠ وتعلق قراقوز بهذه الفرصة الاخيرة وتوسل للسفير الافرنجى أن يأخذه تحت حمايته ويتركه يصعد الى عربته حتى يستطيع الافلات من الاغراء المحيط به ٠ ونزل الســفير وكان يرتدى ملابس غاية فى الأناقة : قبعة مثلثة القمة وضعت على « باروكة » كبيرة وبزه وصديريا مطرزين وسروالا قصيرا وقد وضع سيفه فى غمده ٠ وأعلن السفير للسيدات أن قراقوز تحت حمايته وأنه أعز أصدقائه ٠٠ (وقبله هذا الأخير بحرارة وسارع بالصعود الى العـــربة التى اختفت حـاملة حلم المستحمات المسكينات) ٠

وعاد الزوج وانتفخت أوداجه فخرا لما علم أن حيـــاء قراقوز قد حافظ له على زوجته طاهرة نقية ٠ وتدل هــذه التمثيلية على انتصـار الصداقة ٠

ولم أكن لأعطى لهذه التمثيلية الشعبية كل هذا الاهتمام فى التحليل لولا أنها تدل على بعض عادات هذا البلد ٠ فثياب السفير تبين أنها تنتمى للقرن الماضى ٠ وقراقوز هو الممثل الأبدى لهذه التمثيليات التهريجية ومع ذلك فهو لا يختص دائما فيها بالدور الأول ٠ ويغلب على الظن بأن عادات القسطنطينية قد تغيرت منذ عهد الاصلاح ٠ أما فى العهود التى سبقت تولى السلطان محمود فربما رجح لدينا أن الجنس الضعيف كان يعترض بطريقته الخاصة ضد طغيان الجنس الأقوى ٠ وهذا يفسر السهولة التى اتسمت بها النساء فى الخضوع لمحاسن قراقوز ٠

وفى التمثيليــات الحديثة نرى أن هذه الشخصية تمت دائمــا

للمعارضة . فهو اما البورجوازى الساخر أو الرجل الشعبى ذو الحس السليم الذى ينتقد السلطات الثـــانوية . وفى العهد الذى حتمت فيه التعليمات لأول مرة عدم الخروج بدون مصباح بعد انتهاء النهار ، ظهر قراقوز وهو يحمل مصباحا قد تدلى بشكل غريب متحديا السلطات دون أن يقع تحت طائلة العقاب لأن الامر لم ينص على أن يحتوى المصباح على شمعة . ولما قبض عليه القواصون وأخلى سبيله نظرا لقانونية الملاحظة التى أبداها عاد فظهر بمصباح به شمعة كان قد أهمل اشعالها . ان هذا التهريج شبيه بقصصنا الخرافية الشعبية التى تنسب الى جان دى كاليه ممـا يدل على أن جميع الشعوب متشابهة . ويملك قراقوز حرية الكلام ولقد تحدى دائما الرمح والسيف والشرائط الحربية .

وبعد الاستراحة التى تجدد خلالها تقديم الطباق والمرطبات المختلفة رأينا الشاشة الشفافة تنسدل فجأة وظهر من خلفها العرائس . وظهر ممثلون حقيقيون على المنصة لتقديم تمثيلية « زوج الأرملتين » . وكانت الشخوص فى هذه التمثيلية تتكون من ثلاث نساء ورجل واحد . ومع ذلك فلم يكن ثمة الا رجال لأداء هذه الأدوار . ولكن الشبان الشرقيين حين يرتدون ملابس النساء وبسحرهم النسائى ورخاصة بشرتهم وجرأتهم فى التقليد التى قد لا نصادفها فى بلادنا ، فى استطاعتهم خداع المشاهدين خداعا تاما . وهم فى العادة اما من اليونانيين أو الشراكسة .

وظهرت على المسرح أولا امرأة يهـــودية ، ممن يقمن تقريبا بدور الدلالة ويشجعن ماتدبره النساء اللاتى يدخلن بيوتهن من حيل ومكايد . وكانت تحسب المبالغ التى ربحتها وتأمل فى الحصول على مزيد من الربح من عملية جديدة مرتبطة بشاب تركى يدعى عثمان يعشق أرملة غنية كانت الزوجة الرئيسية لضابط فى الجيش برتبة بكباشى (مقدم) قتل فى الحرب . ولما كان لكل امرأة الحق فى الزواج من جديد بعد ترمل ثلاثة شهور فقد كان يرجح أن السيدة سوف تختار العشيق الذى كانت قد اختارته فى حياة زوجها والذى أرسل لها مرات عديدة عن طـريق اليهودية باقات الورد التى تعتبر مقدمة لهذا العرض .

ولذا فقد سارعت هذه اليهودية بتقديم عثمان المحظوظ الذى لم يعد وجوده فى البيت يشكل أى خطر .

وكان عثمان يأمل فى ألا يتأخروا فى اشعال الشعلة وأخذ يحث حبيبته على التفكير فى ذلك .. ولكن ياللجحود ! أو بالأحرى يالنزق النساء الأبدى ! لقد رفضت هذه الموافقة على الزواج الا لو وافق عثمان على الزواج كذلك من الزوجة الثانية للبكباشى .

وقال عثمان : بحق الشـــيطان ان الزواج من امرأتين أمر أكثر خطورة : واستطرد قائلا للأرملة : « ولكن يا نور عينى من ذا الذى أوحى اليك بهذه الفكرة ؟ انه شرط غير عادى .

وقالت الأرملة : « سوف أشرح لك الأمر . اننى جميلة وشابة كما تعودت أن تقول لى دائما . حسن ، ولكن فى هذا البيت امرأة أقل جمالا منى وكذلك أقل شبابا استطاعت بحيلها أن تجعل زوجى المرحوم يتزوجها ثم يحبها . وكانت تقلدنى فى كل شىء وانتهى بها الأمر بأن أصبحت تروق له أكثر منى .. حسن ، ولما كنت متأكدة من الود الذى تكنه لى فانى أريد منك أن تتزوج على هذه المخلوقة القبيحة كزوجة ثانية . لقد تسببت لى فى العذاب المرير بسبب سيطرة حيلها على عقل زوجى الأول الضعيف جدا حتى أننى أردت من ذلك الحين أن تتعذب وأن تبكى حين ترى أننى المفضلة وأن تجد نفسها موضع الاحتقار .. وأن تصبح فى مثل التعاسة التى كنت فيها .

وأجاب عثمان : ان اللوحة التى ترسمينها ياسيدتى لعثمان قليلة التأثير فى اجتذابى لصفها . انى أفهم أنها شديدة القبح وأننى يجب أن أضيف الى سعادتى بزواجك ضرر ارتبـــاط ثان قد يجـر على المتاعب الكثيرة . وتعرفين أن الشريعة تحتم العـــدل بين الزوجات ســـواء أكان عددهن قليلا أو كان العدد قد وصل الى أربع .. وهذا ما أعفى نفسى من عمله .

ـ حسن ، اننى قد نذرت نذرا لفاطمة (ابنة النبى) ولن أتزوج الا الرجل الذى يفعل ما أخبرتك به .

ـ سيدتى ، انى أطلب منك الاذن بالتفكير فى الأمر .

وقال عثمان فى نفسه حين صار بمفرده :

« يالتعاستى ! أأتزوج من امرأتين أحدهما جميلة والأخرى قبيحة ؟ يجب أن نمر على العلقم قبل الوصول الى المتعة .

وعادت اليهودية وأخبرها بالموقف الذى يوجد فيه .

وأجابت هذه الأخيرة :

« ماذا تقول ؟ ولكن الزوجة الثانية رائعة الجمال ! لا تستمع الى امرأة تتحدث عن غريمتها . حقيقة ان من تحبها شقراء والأخرى سمراء . ولكن هل تكره السمراوات .

وقال العاشق : « أنا ! ليس لى مثل هذه الأحكام » .

فقالت اليهودية : « حسن ! هل تخشى امتلاك زوجتين متساويتى الحسن ؟ ذلك لأنهما رغم اختلافهما فى اللون متساويتان .. انى أعرف ذلك جيدا !

وقال عثمان : « لو كنت تقولين الصدق فان الشريعة التى تضطر كل زوج الى أن يقسم وقته بالتساوى بين روجاته تصبح أقل شدة .

وقالت اليهودية :

ـ سوف تراها . لقد أخبرتها أنك تحبها وأنها حينما رأتك تمر فى الشارع وتتوقف تحت نوافذها فقد كان ذلك من أجل حبها .

وسارع عثمان بمكافأة اليهودية التى أثبتت أنها رسولة ذكية . ثم ما لبثت الأرملة الثانية للبكباشى أن دخلت . لقد كانت رائعة الجمال حقا رغم بشرتها البرونزية . وبدا عليها الزهو لعواطف هذا الشاب تجاهها ولم تتراجع أمام الزواج وقالت :

ـ لقد كنت تحبنى فى صمت وبلغنى أنك لم تكن تريد التصريح بحبك بسبب حيائك .. ولقد تأثرت لهذه المشاعر . والآن أنا حرة وأريد ارضاء أمانيك . أرسل فى استدعاء المأذون .

وقالت اليهودية : ليس ثمة أية صعوبات والا أن هذا الشاب التعس مدين ببعض المال للسيدة الكبيرة (الأرملة الأولى) .

فقالت الثانية :

ـ ماذا ؟ أتقرض هذه المخلوقة القبيحة الشريرة .

المال بالربا ؟

ـ نعم للأسف ! .. وأنا التى تدخلت فى هذه العملية تدفعنى رغبتى الدائمة فى تقديم الخدمات للشباب . لقد أنقذ هذا الفتى المسكين من خطوة مؤذية بفضل تدخلى ولما لم يستطع رد المال فان الهانم لم تقبل ابراء ذمته الا بالزواج .

وقال الشاب :

ـ تلك هى الحقيقة المرة (وبدا التأثر على السيدة) .

وأضافت اليهودية قائلة :

ـ ولكن أى متعة سوف تجدينهـا فى رؤية تلك المرأة الماكرة وقد غدت موضع احتقار الرجل الذى تحبينه !

ومن طبيعة المرأة الفخورة المقتنعة بما لديها من ميزات ألا تشك فى حدوث مثل هذه النتيجة . ولذا فقد وافقت بدورها على هذا الزواج المزدوج . وأرسل فى استدعاء المأذون .

وتم توقيع العقد . ومنذ ذلك الحين أصبحت المسألة تتعلق بمعرفة أى المرأتين ستكون لها الأولوية . وأحضرت اليهودية الى عثمان السعيد باقة من الزهور لتكون رمزا لمن يقع عليها اختيار الزوج الجديد بالنسبة لليلة الزفاف .

ووقع هذا الأخير فى الحيرة فان كلتا الزوجتين قد مدت يدها لتلقى عربون التفضيل هذا . ولكن فى اللحظة التى بدا عليه التردد فيها بين السمراء والشقراء حدثت ضوضاء فى البيت . وجرى العبيد مرتاعين وهم يقولون أنهم رأوا غفريتا .

وكانت الصورة تقترب من المأساة . وتدخل البكباشى بالعصا . وتبين ن الزوج الذى لم تحزن عليه المرأتان لم يمت كما كنا نعتقد . فقد قيد فى عداد الأموات لأنه كان متغيبا عن الجيش ولكنه لم يكن الا أسيرا . وبعد توقيع المعـاهدة بين الروس والأتراك أعيد الى وطنـه ... والى غرامياته . ولم يلبث أن فهم المشـهد الدائر وتدخل بحملة من ضربات العصى على جميع الحاضرين . وهربت المرأتان واليهودية والعاشـق لدى الضربات الأولى . أما المأذون الثقيل الحركة فقد انهال عليه الجميع ضربا مع التصفيق الحماسى الشديد من المشاهدين .

هكذا كان هذا المشهد الذى أطربت نهايته الأخلاقية جميع الأزواج الحاضرين .

ويمكن الاسـتدلال على حالة الفن المسرحى فى تركيـا من هاتين التمثيليتين . ومن المسـتحيل أن نتجاهل فى هـذا الفن الميل الطبيعى للناحية الهزليه الذى نجده فى التمثيليات اليونانية واللاتينية . ولكن الأمر لا يعدو ذلك . فان تكوين المجتمع الاسلامى (١) يعارض اقـامة مسرح لألوان من الفن اكثر جدية . فان المسرح لا حياة له بدون النساء

---

(١) كما رأينا مرات عديدة من قبل يخلط نرفال بين الدين وبين المجتمع الرجعى فى هذا الوقت .

ولن يستطيع أحد مهما بذل من جهد أن يقنع الأزواج بترك زواجهم يظهرن أمام الجمهور ۰ أما الدمى العرائس وحتى الممثلين الذين يظهرون فى عروض المقاهى فلا يستخدمون الا فى تسلية روادها وهم عادة غير كرماء ۰ أما الأغنياء فيقيمون العروض المسرحية فى منازلهم ۰ فيدعو الثرى أصدقاءه وتدعو زوجاته صديقاتها ومعارفها ويتم العرض فى قائمة كبيرة من قاعات البيت ۰ ولذا فمن المستحيل اقامة مسرح معد اعدادا ميكانيكيا الا لدى الشخصيات الكبيرة ۰ والسلطان نفسه رغم ولعه بالعروض المسرحية لا يملك أية قاعة للعرض ذات بناء متين ۰ ويحدث أن تسمع نساء السراى باحدى العروض الجميلة التى تمت على مسرح بيرا فيبدين رغبتهن فى مشاهدة هذا العرض ۰ وحينئذ يسارع السلطان باستئجار الفرقة لليلة واحدة أو لعدة ليال ۰

ثم أقيم فى القصر الصيفى مسرح مؤقت يستند على احدى واجهات المبنى ۰ وأصبحت نوافذ غرف السيدات المحاطة تماما بالقضبان مقصورات للمشاهدة ، ولذا فتصدر منها أحيانا الضحكات العالية أو علامات التأييد ۰ أما القاعة المدرجة القائمة بين هذه المقصورات والمسرح فلا تجد فيها الا الذكور من المدعوين والشخصيات الدبلوماسية وغيرهم من المدعوين لمثل هذه السهرات المسرحية ۰

وشاءت رغبة السلطان منذ وقت قليل فى مشاهدة عرض احدى مسرحيات موليير : « مسيودى پورسونياك » ۰ وكان تأثيرها هائلا ۰ وكان المترجمون يشرحون المواقف التمثيلية لرجال البلاط الذين لا يفهمون الفرنسية ۰ ولكن ينبغى الاعتراف بأن أكثر رجال الدولة الأتراك يعرفون لغتنا ان قليلا وان كثيرا بسبب أن الفرنسية هى لغة الدبلوماسية الأولى ۰ ويضطر الموظفون الأتراك الى استعمال لغتنا فى المراسلة مع الادارات الأجنبية ۰ وهذا يفسر وجود المدارس التركية والمصرية فى باريس ۰

أما عن نساء السراى فهن عالمات ۰ فكل امرأة تنتمى الى بيت السلطان تتلقى ثقافة جدية فى التاريخ والشعر والموسيقى والرسم والجغرافيا ۰ وكثيرات منهن فنانات أو شاعرات ۰ وكثيرا ما نرى المقطوعات الشعرية وأشعار الحب التى تكتبها هؤلاء السجينات الجميلات تنتشر بسرعة فى بيرا ۰

٤ ـ شاربو الماء

لعلنا نستطيع أن نتوقف بعض الوقت أمام مشاهد ميدان سيراسكييه ، وأمام المشاهد الجنونيه التى تتجدد فى جميع الأحياء الشعبية والتى تتخذ فى كل مكان طابعا تصوفيا لا يمكن تفسيره بالنسبة لنا معشر الأوربيين . فمثلا ما هو قراقوز ، هذا النوع الغريب من النزوات والدنس ، الذى لا ينتشر وسط الجماهير الا فى الأعياد الدينية ؟ أليس هو ذكرى ضالة لاله لامبزاك (١) ، هذا الاله « بان » ، الأب العالمى ، الذى ما زالت آسيا تبكيه حتى اليوم ؟

ولما خرجت من المقهى تنزهت فى الميدان وأنا أفكر فيما رأيته . ووجهنى الشعور بالعطش الذى كنت أشعر به الى البحث عن واجهات محلات بائعى المشروبات .

ففى هذا البلد الذى لا يمكن فيه بيع المشروبات الروحية أو التى تحتوى على الكحول علنا نلاحظ وجود صناعة غريبة ، صناعة بيع الماء بالمكيال أو بالزجاجة .

وهذه الحانات الغريبة تملك واجهات نلاحظ فيها طائفة من الأوانى والأقداح مليئة بنوع من الماء يطلبه الجميع . فالماء فى القسطنطينية لا يأتى الا عن طريق قناة فالنس ولا يحتفظ به الا فى الخزانات التى أقامها الأباطرة البيزنطيون حيث تأخذ طعما كريها ... وهكذا نظرا لندرة هذا العنصر تكونت فى القسطنطينية مدرسة من شاربى الماء الذواقة المدققين من وجهة نظر هذا السائل .

---

(١) اسم قديم لآسيا الصغرى .

وفى هذا النوع من الحوانيت يباع الماء المجلوب من بلاد مختلفة ومن سنوات مختلفة • وأفضل المياه هى ميـاه النيل لأنها المياه الوحيدة التى يشربها السلطان • وهى تشكل جزءا من الجزية التى يأتون اليه بها من الاسكندرية • ومن شهرتها أنها ذات فائدة بالنسبة للخصوبة • أما مياه الفرات ، وهى مائلة قليـلا الى الخضرة وذات طعم آسن بعض الشىء فهى موصوفة فى حالات الضعف أو الاسترخاء• ومياه الدانوب المحملة بالأملاح يفضلها ذوو البنية القوية • وثمة مياه من بلاد كثيرة • ويعجبون هنا كثيرا بمياه النيل سنة ١٨٣٣ المحفوظة فى زجاجات مغلقة مختومة تباع بسعر مرتفع جدا ••

ولا يشعر الأوربى الذى لا خبرة له بالشريعة طبعا بالتعصب للماء• وأذكر أننى سمعت طبيبا سويديا يثبت فى فيينا ان الماء لم يكن الا نوعا من الحجارة ، من البللورات كان فى حالة ثلج طبيعى ولم يتحول الى سائل فى أجواء جنوبى القطب الا تحت تأثير حرارة شديدة نسبيا لم تصل مع ذلك الى اذابة بقية الحجارة • ولتدعيم نظريته كان يقوم بتجارب كيميائية على المياه المختلفـة للأنهـار والبحيرات أو الينابيع وأثبت أن بالمخلفـات الناجمة عن البخر بها مواد ضارة بصحة الانسان • ومن الجدير بالذكر أن الهدف الرئيسى للدكتور من وراء الاقلال من قيمـة الماء هو الحصـول من الحكومة على امتياز مصانع البيرة الامبراطورية • ويبدو أن السيد ميترنخ قد أعجب بهـذه الحجج لا سيما وأنه كان من صالحه ، كواحـد من اكبر منتجى النبيذ ، أن يشاركه فى فكرته .

ومهما يكن من أمر الاحتمـال العلمى لهذا الغـرض فقد تأثرت به تأثرا كبيرا : وقد لا يحب المرء أن يزدرد الحجـارة الذائبة • وصحيح أن ذلك لا يضـير الأتراك فى شىء ولكن كم يتعرضـون نظير ذلك للأمراض الخاصة والحميات والطاعون والأوبئة المختلفة •

تلك هى الأفكار التى عاقتنى عن شرب هذا المرطب • ولقد تركت هواة الماء لمشروبهم المعتق المنتقى وتوقفت أمام واجهة أحد المحلات كانت تحوى قنينات لامعة بها سائل يبدو أنه عصير الليمون • وابتعت واحدة منها بقرش تركى (٢٥ سنتيما) • وما أن رفعته الى فمى حتى اضطررت الى لفظ الجرعة دون ابتلاعها • وضحك البائع من سـذاجتى (وسـوف تعرف فيما بعد ماذا كان هذا المشروب) وكان لا بد من العودة الى ييلدز ــ خان لأجد مشروبا أحسن طعما •

وكان النهار قد طلع والايرانيون الذين عادوا فى ساعة مبكرة جدا

قد ناموا منذ وقت طويل · أما أنا فلم أتمكن من النـوم بسبب انفعالات تلك الليلة فى جولاتها ومشاهدها .وانتهى بى الأمر الى ارتداء ملابسى والعودة الى بيرا لزيارة صديقى الرسام ·

وقيل لى أنه انتقل من منزله وأنه يقيم فى «قوروقشمى» لدى بعض الأرمن الذين كلفوه برسم لوحة دينية ·

وتقع قوروقشمى على الضفة الاوربية للبسفور على بعد ساعة واحدة من بيرا · وكان لا بد لى من أن أستقل قاربا لدى سلم طوفانا ·

ليس هناك ماهو أجمل من هذا الرصيف البحرى للمدينة الافرنجية· فالمرء يهبط من بيرا بواسطة شـوارع ملتوية تؤدى من أعلى الى الشارع الكبير ثم الى القنصليات المختلفة والسفارات · ثم يجـد المرء نفسه فى ميدان سوق خاص بواجهات محلات الفاكهة حيث تعرض المنتجات الفاخرة للشاطىء الاسيوى · فالكرز يوجد تقريبا على مدار السنة لأنه من المنتجات الطبيعية لهذه الأجواء · أما البطيـخ والتين الشوكى والعنب فتدل على الموسم القائم · ويصل شمام القصبة(١) الكبير ، وهو أجود شـمام فى العالم ، من أزمير ، وكل هذه الفاكهة تدعو كل من يمر الى تناول وجبة غداء بسيطة ولذيذة · ومما يميز هذا الميدان نافورة رائعة على الذوق التركى القـديم تزينها بوابات كبيرة متقطعة ومستندة الى أعمدة صغيرة ونقوش عربية منحوتة ومرسومة · ونرى حول الميـدان وفى الشـارع المؤدى الى الرصيف عددا كبيرا من المقاهى لاحظت على واجهاتها لوحات شفافة ، قد أطفئت اضاءتها ، كانت تحمل هى أيضا اسم قراقوز الذى يحبونه هنا كما يحبونه فى استانبول ·

ورغم ان طوفانا جزء من الأحياء الافرنجية فان فيها عددا كبيرا من المسلمين وأغلبهم من الحمالين وموجهى البواخر (قايدجى) · وكان على الرصيف بطاريات مدافع من ست قطع لتحية البواخر التى تدخل القرن الذهبى وللاعلان عن طلوع الشمس وغيابها فى أجزاء المدينة الثلاثة التى تفصلها المياه وهى بيرا واستانبول واسكودار ·

وفى عظمه تبدو هذه المدينة الاخيرة من الجهة المقابلة للبسفور وهى تعرج الافق بالقبـاب والمآذن والاكشاك مثلهـا فى ذلك مثل منافستها استانبول ·

---

(١) مدينة تقع شرقى أزمير تعرف بجودة خضرواتها وفاكهتها .

ولم أجد عناء فى العثور على قارب يقوده اثنان من المجدفين • وكان الجو رائعا وأخذ القارب الرفيع الخفيف يمخر عباب الماء بسرعة غريبة • ويفسر احترام المسلمين للحيوانات المختلفة كيف أن قنــاة البسفور التى تقطع تلال أوربا وآسيا اليانعة كما لو كانت نهرا كيف أنها دائما مليئة بالطيور المائية التى تطير أو تعوم بالالوف فوق المياه الزرقاء وتبث الحياة فى الافق الطويل الملىء بالقصور « والفيلات » •

وابتداء من طوفانا تبدأ الضفتان المتقاربتان فى المظهر أكثر مما هو فى الحقيقة فى تقديم خط طويل من المنازل المطلية بالالوان الزاهية والتى تتميز بالزينات والسياجات المذهبة •

ولا تلبث أن تظهر على الضفة اليسارية سلسلة من الاعمدة تستمر مدة ربع ساعة • انها أبنية القصر الجديد لباشيك ــ طاش • وهى مبنية كلها على الطراز اليونانى ومطلية بالزيت باللون الابيض • أما السياجات فمذهبة • وجميــع مواسير المداخن قــد صنعت على شكل أعمدة يونانية والمظهر العام يتميز بالفـخامة والجمــال • وتطفو القوارب المذهبة وهى مشدودة الى الارصفة التى يهبط منها تجــار الرخام حتى البحر • وثمة حدائق شاسعة تتبع ، من أعلى تفاريج التلال . وتطغى أشجار الباوط ذى الظلال فى كل مكان على الاشجار الاخرى • ولا نعثر فى أى مكان على أشجار النخيل لأن منــاخ القسطنطينية شــديد البرودة بالنسبة لهذه الاشجار . ويلى القصر قرية نرى فى مرفئها القوارب الــكبيرة التى يسـمونها « قايق » . ثم نمر أمام سراى أكثر قدما وهى نفسها التى كانت تسكنها فى آخر حياتها السلطانة « أسماء » شقيقة السلطان محمود .

انه الطراز التركى الذى ساد فى القرن الماضى والذى يتميز بالتعاريج ورسوم « الزلط » وبالاكشاك التى تزينها الرسوم الهندسية ذات الدوائر والنقوش العربية والتى تبدو كأقفاص ضخمة ذات قضبان ذهبية ، وأسقف مدببة وأعمــــدة قصيرة مطلية بالالوان الزاهية •• ونحــلم بعض الوقت بعجائب ألف ليلة وليلة •

وفى القوارب « قايق » يرقد المســافر على مرتبة فى أقصى القارب حينما يجاهد المجدفون فى شق عبــاب الموج بأذرعهم القــوية وأكتافهم البرونزية وقد ارتدوا فى أناقة قمصانا فضفاضة من الحرير ذى الحافة اللامعة . وهؤلاء الرجال جمو الادب ويتخذون فى أوضــاع جسمهم اثناء العمل نوعا من الرشاقة الفنية •

واذا تبعنا الشاطىء الاوربى للبسفور نجد سلسلة طويلة من المنازل

الريفية التى يسكنها عادة موظفو السلطان • وأخيرا يبدو لنا مرفأ جديد غاص بالقوارب ، انه قوروقشيمى •

وحجزت القارب حتى يعود بى فى المساء كما هى العادة • ودخل المجدفون الى المقهى • وظننت وأنا أدخل القرية اننى بصدد لوحة للرسام دى كامب(١) • وكانت الشمس قد نثرت فى كل مكان قطعها الذهبية المضيئة على الحوانيت المطلية والجدران المطلية بماء الجير • وكان اللون الأخضر المائل للزرقة الذى تتسم به المزروعات يريح هنا وهناك العين التى أضناها الضوء • ودخلت لدى أحد تجار التبغ لشراء بعض تبغ سوريا وسألت عن البيت الارمينى الذى يقيم فيه صديقى •

ولقد دلنى الناس على البيت بظرف • والواقع أن الاسرة التى كانت تفضل فى هذا الوقت الرسم الفرنسى كانت مكونة من شخصيات أرمينية كبيرة • واصطحبنى مرشدى حتى الباب ولم ألبث أن وجدت الفنان وقد استقربه المقام فى قاعة رائعة شبيهة بالمقاهى التركية فى طريق «التامبل» تتسم زينتها الشرقية بالدقة أكثر مما قد يتبادر الى الذهن •

وقد اجتمع بالقاعة عدد كبير من الفرنسيين وهم يعجبون باللوحات الكرتونية الكبيرة التى يعرضها الرسام وكان منهم عدد كبير من الملحقين فى السفارة الفرنسية وأمير بلجيكى وأمير فالاشيا وقد قدم لقضاء العيد فى القسطنطينية • وذهبنا لزيارة الكنيسة الصغيرة حيث يمكننا رؤية الجزء الاكبر من الزخرفة المقبلة • وكانت هناك لوحة فسيحة تمثل صلاة المجوس تملأ أقصى القاعة فى المكان الذى سيقام فيه المذبح الرئيسى • وكانت الرسوم العرضية هى وحدها التى تم تخطيطها الاولى فقط ••• وكانت الأسرة التى أوصت بهذه الأعمال قد تركت للرسام البيت بأجمعه بما فيه الاتباع والخيول تحت امرته ، وذلك لان لها مساكن أخرى فى القسطنطينية • وهكذا عرض علينا الذهاب للنزهة فى الضواحى المجاورة• وكان ثمة حفل يونانى فى حى ارنوط ــ قول الذى يقع على بعد فرسخ واحد من هذا المكان • ثم انه ، لما كان اليوم هو يوم الجمعة (يوم الاحد بالنسبة للأتراك) فقد كنا نستطيع لو سرنا ساعة أخرى ولو عبرنا البسفور أن نشاهد « الحياة العذبة » لآسيا •

---

(١) الكسندر ديكامب (١٨٠٣ ــ ١٨٦٠) هو من أشهر الرسامين الرومانتيكيين ممن اتجهوا الى المواضيع الشرقية . وجيرار على حق فى ملاحظته أن ألوان دى كامب تستند الى التبادل بين الالوان المختلفة واللون الابيض . ولابد أن جيرار دى نرفال قد عرف بعض لوحاته الشرقية التى يغلب عليها الطابع المحلى الذى يتحدث عنه .

ورغم أن الاتراك يناموں عادة سحابة اليوم فى شهر رمضان فالقانون الدينى لا يرغمهم على ذلك وهم لا ينـامون الا لكى لا يفـكروا فى الطعام ما داموا لن يستطيعوا الأكل الا لدى غروب الشمس • وفى أيام الجمعة فانهم ينتزعون أنفســهم من وجبتهم ويذهبـون عادة للنزهة فى الريف وخصوصا فى « المياه العذبة » لاوربا التى تقع فى طرف القرن الذهبى أو الى «المياه العذبة» لآسيا التى كانت هدف نزهتنا •

وبدأنا بالذهاب الى أرنوط ـ قول ولكن الحفل لم يكن قد بدأ بعد ومع ذلك فقـد كان جمع غفير وعدد كبير من الباعة المتجولين • وفى واد ضيق تظلله أشجار البلوط والسرو أقيمت أسوار وسقالات أولاها لتحديد مكان الرقص والاخرى للمعرض المسرحى • وكان المكان الرئيسى للحفل كهفا تزينه نافورة مهداه للنبى الياس لا تبدأ مياهها فى التدفق كل عام الا فى عيد أحد الانبياء وقد نسيت اسمه(١) • وقد وزعت زجاجات هذا الماء على جميع الحاضرين من المؤمنين • وتزاحمت مئات من النساء اليونانيات على حافة النافورة المقدسة الا أن ساعة المعجزة لم تكن قد حلت بعد • بينما أخذ بعضهن يتنزهن تحت ظلال الاشــجار أو يتجمعن فوق الاعشاب • وتعرفت فيما بينهن على الجميلات الاربع اللاتى رأيتهن من قبل فى بيت اللهو فى سان ـ ديمترى • ولم يكن يرتدين الملابس المتنوعة اللاتى كن يرتدينها والتى كان الغرض منها اطلاع المتفرجين على المثل الأعلى للاجناس النسائية الاربعة فى القسطنطينية• على أنهن قد بالغن فى التزين بالمساحيق وفى استعمال الخيال الصناعى • وكانت هنـاك امرأة مسنة لحراستهن ولم يكن ضوء الشمس فى صالحهن كما هو الحال فى الضوء الصناعى • وبدا أن الملحقين فى السفارة يعرفونهن من زمن طويل فقد أخذوا يتحدثون اليهن ودعونهن لتناول المرطبات •

---

(١) هذا العيد يقع فى الحادى والعشرين من يوليه وهو عيد النبى الياس •

٥ ـ باشا اسكودار

بينما كنا نستريح تحت شجرة جميز ضخمة قدم رجل تركى فى سن النضج يرتدى «ردنجوتا» مزررا وقد غطى رأسه بطربوش ذى شرابة حريرية زرقاء وزين صدره بنيشان صغير يكاد لا تلمحه العين ، قدم ليجلس على المقعد المحيط بالشجرة · وصحب معه صبيا صغيرا يرتدى نفس ملابسه ولكن بصورة مصغرة · وحيانا هذا الصبى بجد يتسم به عادة الصبية الاتراك الذين تعدوا للتو المرحلة الاولى وتخلصوا من رقابة أمهاتهم · ولما رآنا التركى نمتـــدح لطف ابنه حيانا بدوره واستدعى «القهوجى» الذى كان واقفا بالقرب من النافورة . وبعد لحظة أحضرت لنا وسط دهشتنا الفلايين والمرطبات التى رجانا الرجل المجهول أن نقبلها . ولما ترددنا قال «القهوجى» : «لكم أن تقبلوها لأن هذا الرجل العظيم هو الذى يقدم لكم هذه التحية ، انه باشا اسكودار · ولا يرفض المرء شيئا من أحد الباشوات .

ودهشت اذ وجدت أننى الوحيد الذى لم أتلق نصيبى من المرطبات والغلايين التى وزعت · وأبدى صديقى تلك الملاحظة للقهوجى الذى أجابه قائلا : « لن أكون أبدا كافرا » ·

وصحت قائلا : « كافر ، ان تلك اهانة ، أنت نفسك الكافر يابن الكلب » !

ولم يخطر ببالى أن هذا الرجل ، وهو بلا شك مسلم من السنيين ، لا يوجه اهانته الا للباس الايرانى الذى كنت أرتديه ، والذى كان يظهرنى كما لو كنت من أتباع مذهب على ، مذهب الشيعة ·

وتبادلنا بعض الكلمات الحادة لأنه لاينبغى أبدا فى الشرق أن تكون

الكلمة الأخيرة للرجل الفظ • والا ظنك جبان وقد يصل الأمر الى الاعتداء عليك بالضرب بينما فى امكان احدى كلمات الشتائم الشديدة أن تمنح النصر لهذا أو ذاك فى أذهان الحاضرين • وفى تلك الاثناء ولما كان الباشا يشاهد المنظر بدهشة ، أفهمه رفاقى الذين ضحكوا كثيرا فى أول الامر من هذا الخطأ ، أفهموه أننى فرنجى • وانى لا أذكر هذا المشهد الا لملاحظة التعصب الذى ما زال قائما فى الطبقات الدنيا والذى ما زال يمارس بقوة بين المذاهب المختلفة فى حين أنه هادىء جدا بالنسبة للاوربيين • والامر مماثل تقريبا من ناحية المسيحيين : فالمسيحى الرومانى يحترم التركى أكثر مما يحترم اليونانى •

وضحك الباشا كثيرا من هذه المغامرة وبدأ يتحدث مع الرسام • وبعد انتهاء الحفل عدنا مع الباشا فى نفس الوقت بقواربنا • ولما كان على القوارب أن تمر أمام القصر الصيفى للسلطان الذى يقع على الساحل الاسيوى سمح لنا بزيارته •

ان هذه السراى الصيفية التى لا ينبغى أن نخلط بينها وبين الاخرى الواقعة على الساحل الاوربى هى أجمل مقر فى العالم • فتصل الحدائق الشاسعة المدرجة فى طبقات الى قمة الجبل الذى يطل بوضوح على اسكودار من ناحية اليمين كما تبدو فى خلفية هذه اللوحة المشهد الظلى الماثل للزرقة لجبل أولمب فى بيثينيا • وقد شيد القصر على طراز القرن الثامن عشر • وكان لا بد قبل دخولنا أن نستبدل أحذيتنا بنعال أعيرت الينا • ثم صرح لنا بزيارة أجنحة السلطانات التى كانت بطبيعة الحال خالية فى هذا الوقت •

وقد بنيت القاعات السفلى على أوتاد من الخشب الثمين، بل وحدثونا عن أوتاد من عود الند وهو أصلب مقاومة للتلف الناجم عن مياه البحر • وبعد زيارة القاعات الفسيحة فى الدور الارضى ، وهى لا تسكن ، دخلنا الى الاجنحة • كان ثمة قاعة كبيرة فى الوسط ، يفتح عليها عشرون غرفة ذات أبواب مستقلة كما يحدث فى أروقة الحمامات •

واستطعنا الدخول الى كل غرفة ، وكلها مؤثثة بطريقة واحدة بأريكة وبعض المقاعد ومنضدة للفراش من خشب الاكاجو ومدفأة من الرخام تعلوها ساعة حائط ذات أعمدة • وقد يظن المرء نفسه فى غرفة احدى الباريسيات لا سيما لو أن الاثاث قد أكمله سرير حقيقى ولكن فى الشرق تستخدم الارائك وحدها كأسرة •

وكانت كل واحدة من هذه الغرف خاصة باحدى المحظيات • ولقد

أدهشني التشابه التام في أثاث تلك الغرف، وقد علمت في هذا الشأن أن العدالة التامة هي السائدة بين نساء السلطان .. والدليل الذى قدمه لى الوسام على ذلك هو الآتي : حينما يوصى عظمة السلطان بشراء بعض علب الحلوى من بيرا ، وهي تشترى عادة لدى حلوانى فرنسى ، كان الشرط الاساسي لتوريدها هي أن تكون مكونة من حلوى متشابهة تشابها مطلقا. فاذا زادت حبة من الحلوى في علبة عن الاخرى ، أو وضع فيها حلوى من شكل مختلف أو عدد من حبات الملبس أقل أو أكثر تسبب ذلك فيتعقيدات خطيرة في العلاقات بين هؤلاء الجميلات . فهن يشعرن ، ومثلهن في ذلك مثل المسلمين جميعا مهما اختلفوا ، يشعرن بالمساواة .

وفي القاعة الرئيسية أداروا لنا ساعة ذات رنين موسيقى فأسمعتنا ألحانا كثيرة من الأوبرات الايطاليــة . وكانت الطيور الميكانيكية والبلابل المغردة والطواويس رافعة الذيل تزين هذه التحفة الفريدة الصغيرة . وفي الطابق الثــانى كانت توجد مســـاكن الوصيفات وهن ينقسمن فيما بين المغنيات والخادمات . أما الجوارى فيسكن أعلى من ذلك . والنظام الذى يسود الحريم يشابه ذلك الذى يسود « البنسيونات » حسنة الادارة . وتمسك أقدم المحظيات بزمام السلطة ولكنها دائما أقل شأنا من السلطانة الأم التى عليها أن تزورها من وقت لآخر في السراى القديمة في استانبول.

هذا ما استطعت ملاحظته من العادات الداخلية للسراى. وكل شيء يدور عادة بطريقة أبسط مما يتصوره خيال الاوربيين السقيم . ولا تبنى مسألة عدد النساء لدى الاتراك الا على فكرة الانجاب . فقد نقص الجنس القوقازى الجميل القوى كثيرا لعوامل فيزيولوجية من الصعب تحديدها . وقد أضعفت الحروب الاخيرة الشعب التركى الاصيل كثيرا . فقــد أفنته شجاعته كما حدث لاجناس الفرنجة في العصور الوسطى .

ويبدو أن السلطان كان على استعداد ، منجهته ، لتعمير الامبراطورية التركية ، هذا ما يدلنا عليه عدد الأمراء والأميرات الذين يعلن مولدهم في المدينة من وقت لآخر بطلقات المدافع والانوار في استانبول .

ثم شاهدنا بعد ذلك الكهوف والمطـــابخ وقاعات الاســتقبال وقاعة العزف . ولقد اعدت جميعها بحيث تستطيع النســاء أن يشاركن فيها ، دون أن يراهن أحد ، في جميع الحفلات التى تقام لتسلية ضــيوف السلطان . ونلاحظ في كل مكان المقصورات ذات القضبان التى تطل على القاعات ، وكأنها منصات ، متيحة لنساء الحريم ان يشـــاركن بمشاعرهن في السياسة أو في اللهو .

وأعجبنا بالحمام المبنى بالرخام وبالمسجد الخــاص بالقصر • ثم أخرجونا من رواق ذى أعمدة يطل على الحدائق تزينه الأعمدة ويغلقه رواق ذو واجهة زجاجية يحتوى على أشجار صغيرة ونباتات وزهور من الهند •

وهكذا نرى أن القسطنطينية الباردةبسبب موقعها المرتفع والعواصف الكثيرة القادمة من البحر الاسود تملك مشاتل للنباتات الاستوائية كما هو الحال فى بلادنا فى الشمال •

ومن جديد أخذنا نجوب الحدائق ودخلنا الى جنــاح قدمت لنا فيه تحيه من فاكهة الحديقة والمربى • لقد دعانا الباشا الى هذا الطعام الشهى ولكنه هو نفسه لم يأكل شيئا لان قمر رمضان لم يكن قد ارتفع بعد • ولقد خجلنا جميعا من أدبه وزاد من حرجنا قليلا أننا لم نستطع أن نتعرف على هذا الادب الا فى الكلام فقط •

وأجاب الباشا على الشكر الذى وجهناه اليه قائلا: «سوف تستطيعون أن تقولوا انكم تناولتم وجبة لدى السلطان ! »

ودون ما حاجة الى المبالغة في شرف حضور حفل استقبال أنيق مثل هذا فلا أقل من أن نرى ما فيه من دلائل حسن النية الكبير ونسيانا ، قد يكون تاما اليوم لدى الاتراك ، للمعتقدات الدينية •

٦ ـ الدراويش

وبعد أن أعجبنا ما شاء لنا الاعجاب بالاجنحة والحدائق فى سراى آسيا عدلنا عن زيارة المياه العذبة بها لانها كانت ستضطرنا الى السير فى البسفور مسيرة ساعة ولما كنا بالقرب من اسكودار فقد وضعنا مشروعا لزيارة تكية الدراويش الصياح ٠

واسكودار هى مدينة الاورثوذوكسية الاسلامية أكثر من استانبول حيث تختلط الشعوب وهى تنتمى لاوربا ٠

أما اسكودار الاسيوية فما زالت تحتفظ بتقاليدها العتيقة ٠ ولذا فان الثوب الذى صممه عهد الاصلاح يكاد لا يكون معروفا فيها وما زالت العمامة الخضراء تظهر فيها فى عناد وتصميم ٠ انها باختصار حى سان ـ جرمان فى القسطنطينية ٠

أما المنازل والنافورات والمساجد فمن طراز أكثر قدما ٠ ولذا فان الاختراعات الجديدة من تنقية الجو ورصف الشوارع أو عملهـا بالحصى والارصفة والمصـــابيح والعربات التى يجرها الخيـــول التى نراها فى استانبول ، كل ذلك يعتبر هنا بدعا خطرة ٠ واسكودار هى ملاذ المسلمين المسنين الذين يتمنـــون ، وسط اقتناعهم بأن الجزء الاوربى من تركيـا لن يلبث أن يقع غنيمة فى يد المسيحيين ، يتمنون أن يضـــمن كل منهم لنفسه قبرا يرقد فيه فى سلام فوق أرض الأناضول وهم يعتقـدون أن البسفور سيكون حدا فاصلا بين الامبراطوريتين والدينين وبعد ذلك سوف يتمتعون فى آسيا بالامن والطمأنينة كاملين ٠

ولا نلاحظ فى اسكودار الا مسـجدها الكبير وقرافتهـا التى تظللها أشجار السرو الضخمة ٠ أما أبراجها وأكشاكها ونافوراتها ومئات المآذن

فيها فــلا تميزها ، لولا ذلك ، من المدينــة التركية الاخرى • وتقع تكية الدراويش الراقصين على مسافة قصيرة من المســجد • وطرازها الهندسى أقدم من تكية الدراويش فى بيرا وهم من الدراويش الراقصين •

وكان الباشا الذى صحبنا حتى المدينة يريد أن يجعلنا نعدل عن زيادة هؤلاء الصوفية الذين كان يسميهم بالمجانين • ولكن لابد من احترام حب الاستطلاع لدى الرحالة • وقد فهم الباشــــا ذلك وغادرنا ودعانا للعودة لزيارته .

ومما يميز الدراويش أنهم أكثر تسامحا من أى هيئة دينية أخرى • أما المسلمون المتعصبون فلا يفعلون أكثر من تحملهم وسط اضطرارهم لقبول وجودهم كهيئة مستقلة .

والشعب يحبهم ويؤيدهم ، وتعجب الجمـــاهير بحماسهم ومزاجهم الهادىء وســـهولة طباعهم ومبادئهم أكثر مما يعجبون بتعصب الأئمة ورجال الدين • وهؤلاء يعاملونهم على أنهــم من معتنقى مذهب أن الاله الواحد ماثل فى جميع الكائنات وكثيرا ما يهاجمون مذهبهم دون أن يستطيعوا مع ذلك رميهم بالكفر .

وثمة منهجان فلسفيان مرتبطان بالدين فى تركيا والتعاليم المنبثقة منه . احد هذين المنهجين ينتمى الى ارسطو والآخر الى أفلاطون . ويرتبط الداروبش بالمنهج الاخير • ولا ينبغى أن ندهش لهذه العلاقة بين المسلمين واليونانيين ما دمنا لم نعرف نحن أنفسنا المؤلفات الفلسفية الأخيرة للعالم القديم الا من خلال تراجمهم العربية .

واذا كان الدراويش من معتـــــنقى مذهب أن الاله الواحـــد ماثل فى جميع الكائنات فهذا لا يمنع مع ذلك من أن لهم ألقابا دينية لا جدال فيها • وهم يقولون انهم أقروا فى منازلهم ومع مالهم من الامتيازات بفضل أوزحان السلطان الثانى للأتراك • والرؤساء الذين أسســـوا مذهبهم عدوهم سبعة وهو رقم فيثاغورثى (١) يدل على أصل أفكارهم • والاسم العام لهم هو « مولاى » (٢) نسبه الىأول مؤسس لهم . أما كلمة درويش فمعناها فقير . انه فى حقيقة الأمر مذهب شيوعى اسلامى (هكذا) .

---

(١) من الواضح أن جيرار يحاول أن يرجع جميع المذاهب التى يصـــادفها الى أصول فيثاغورثية محاولا بحسن نية تبسيط المذاهب الاسلامية وتقريبها الى الفهم •

(٢) نسبة الى « مولانا » جلال الدين الرومى •

وينتمي الكثـــيرون منهم الى مذهب تناســـــخ الأرواح ، ويرون أن كل رجل لا يستحق أن يخلق من جديد فى صورة انسانية فان روحه تدخل بعد موته فى جسد الحيوان الذى يشابهه أما فى المزاج أو الطبع . أما الفراغ الذى يحدث نتيجة لهذا التناسخ فتسده أرواح الحيـوانات التى تســـتحق لذكائها أو اخلاصها أن ترقى فى السلم الحيـوانى الى مرتبة أعلى . أن هذا الشعور الذى ينتمى بلا شك الى التقاليد الهنـدية يفسر كثرة الهيئات الدينية فى المساجد والكنائس لصالح الحيوانات . ذلك لأنهم يحترمونهم سواء لأنهم كانوا فعلا في يوم من الأيام بشرا أو لأنهم ربما يتحولون الى بشر فى المستقبل . وهذا يفسر لماذا لا يأكل المسلمون لحم الخنزير ، لأن هذا الحيوان قريب بشكله وشهيته فى الطعام من الجنس البشرى (١) .

أما « الاشراقيون » فيهتمون بتأمل الله في الاعداد والأشـــــكال والألوان . وهم عادة أكثر تحفظا وأكثر حبا وأناقة من الآخرين . والناس يفضلونهم فى التدريس لانهم يسعون لتنمية قوة تلاميذهم بواســطة تمارين للتقوية أو للرشاقة . وتنبثق نظريتهم قطعا من فيثاغورث وأفلاطون . وهم شعراء وموسيقيون وفنانون .

ويوجد بينهم جماعة يسمونها « اهل الحيرة » (ربما تكون تلك الكلمة هى أصل الكلمة الفرنسية « هيريتيك » أى ملحد (٢)) ، وهم يمثلون روح الشك واللامبـالاة . وهؤلاء يعتبرون بحق من الابيقوريين . ومن مبادئهم أن الكذب لا يمكن تمييزه من الحقيقة وانه من التهور محاولة تبين صحته فكرة ما وسط ما يتميز به الانسان من مكر . وقد تستطيع الشهوة أن تخدعك وتثيرك وتجعلك عاجزا فى الخير وفى الشر ولذا فينبغى لك أن تقول : «الله يعلم ونحن لا نعلم» او «الله يعرف ما هو الاحسن».

تلك هى الآراء الفلسفية الثلاثة السائدة هنا كما هى سائدة فى كل مكان تقريبا . ولا يتسبب ذلك بين الدراويش فى أية كراهية من تلك التى تثيرهـا هذه المبـــادىء المتناقضـــة فى المجتمع البشرى . « فالاشراقيون » ، وهم مبتدعون ، أذكياء يعيشون في ســــلام مع « أهل التناسخ » وهم من أصحاب نظرية « الله الواحد ماثل فى جميع المخلوقات » المادية ، بينما يحذر « أهل الحيرة » من استنزاف رئتيهم

---

(١) تفسير طريف ، وهو نزوة من نزوات جيرار العديدة .

(٢) يميل جيرار كثيرا الى هذا النوع من التفير وهو في أكثر الاحوال مشـــكوك فى صحته .

فى مناقشات مع الآخرين . وكل منهم يعيش على طريقته الخاصة بما يتفق مع مزاجه فبعضهم يسرف فى الأكل بلا اعتدال وبعضهم الآخر يسرف فى الشرب وتعاطى المخدرات والآخرون يسرفون فى الحب . ويعتبر الدرويش أكثر الناس حظوة لدى المسلمين على شرط أن يشهد له أخوانه بالفضيلة والحماس والاخلاص .

وتضعه القداسة التى يمارسها والفقر الذى يعيش فيه ، من حيث المبدأ ، والذى لا يخففه الا الهبات الاختيارية التى يقدمها له المؤمنون ، والصبر والتواضع وهما من صفاته المعتادة . تضعه هذه الصفات جميعا من الناحية المعنوية فى مرتبة أعلى من الناس جميعا مادام قد وضع نفسه فى مرتبة أقل . ويستطيع الدرويش أن يشرب النبيذ والمشروبات الروحية اذا قدمت له لأنه من المحرم عليه شراء اى شيء واذا مر فى الطريق وتاقت نفسه الى الحصول على أية تحفة أو زينة معروضة فى أحد الحوانيت فان البائع يمنحها له عادة أو يتركه يأخذها. واذا قابل امرأة فانه يستطيع أن يقربها دون دنس مهما كان مقدار احترام الناس له (هكذا) . حقيقة أن هذا لم يعد يحدث الآن فى المدن الكبيرة حيث تكون الشرطة قليلة المعلومات بالنسبة لصفات الدراويش، ولكن المبدأ الذى يبرر هذه الحرية هو أن الرجل الذى يحرم نفسه من كل شيء من حقه أن يحصل على كل شيء ، فما دامت فضيلته قد دفعته الى نبذ كل شيء فلا بد من أن يعوضه المؤمنون عن هذا الحرمان بالمنح والهبات .

وللدراويش الحق ، بموجب قداستهم الخاصة ، فى أن يعفوا أنفسهم من السفر للحج الى مكة ، وهم يستطيعون أكل لحم الخنزير والأرنب الجبلى ، بل وحتى لمس الكلاب ، وهى جميعا من المحرمات على الأتراك الآخرين رغم احترامهم جميعا لذكرى كلب النائمين السبع . (١)

ولما دخلنا الى فناء التكيه رأينا عددا كبيرا من هذه الحيوانات التى يوزع عليها أخوة من الخدم طعام العشاء . وقد رصدت لذلك هبات من عهد قديم جدا تنفذ باحترام شديد . وكانت جدران الفناء الذى تظلله أنواع مختلفة من أشجار الأكاسيا ، مزينة هنا وهناك بهياكل خشبية صغيرة مطلية ومنحوته ومعلقة على ارتفاع قليل كما لو كانت مساند . كانت تلك بيوتا صغيرة للطيور التى تأتى كما تريد للحصول عليها والعيش فيها فى حرية تامة .

---

(١) قصة أهل الكهف كما ذكرت فى السورة الثانية عشرة من القرآن .

ولم أر جديدا فى العرض الذى قدمه الدراويش الراقصون فقد كنت رأيت ما يشابه ذلك فى القاهرة . ويقضى هؤلاء الناس الطيبون ساعات عديدة فى الرقص وهم يضربون الأرض بقوة بقدمهم حول سارية مزينة بالأكاليل يسمونها « سارى » . وهذا يحدث تأثيرا مشابها لتأثير الرقص البروفانسى الذى يؤدى والراقص فى مكانه . وهم يغنون بأنغام مختلفة ترنيمة قديمة تتردد فيها كلمة « الله حى » . ويسمح للجمهور بحضور هذه الجلسات حيث يجلس على منصات عاليه ذات درابزين من الخشب . وبعد أن يستمر هذا التمرين ساعة تعترى البعض حالة ارهاص تكشف عنهم الحجاب . فيأخذون فى التدحرج على الأرض ويشاهدون رؤى طوباوية (١) .

وكان الدراويش الذين رأيناهم فى هذا العرض ذوى شعور طويلة يخفونها تحت غطاء رأس من الجوخ على شكل اناء زهور مقلوب . وكانت ثيابهم بيضاء ذات أزرار سوداء . وهم يسمون القادرين نسبة الى مؤسسى طائفتهم (٢) .

وقص علينا أحد الحاضرين أنه رأى رقص الدراويش فى تكية بيرا وأكثرهم من الدراويش الراقصين . وكما يحدث فى اسكودار يدخل الناس الى قاعة خشبية فسيحة تكثر فيها الأروقة والمنصات . ويدخل الجمهور دون أى شرط ولكن من المستحسن تقديم صدقة قليلة . وفى تكيه بيرا يرتدى جميع الدراويش الملابس البيضاء ذات الكسرات كما فى (جوبات) قراطق اليونانيين الوطنية . وتنحصر مهمتهم فى الجلسات العامة على الدوران حول أنفسهم أطول وقت ممكن . وهم جميعا يرتدون الملابس البيضاء حينما يرتدى رئيسهم وحده الملابس الزرقاء . وفي أيام الثلاثاء والجمعة تبدأ الجلسة بخطاب دينى ينحنى بعده جميع الدراويش تحية أمام رئيسهم ثم يتفرقون فى أرجاء القاعة حتى يستطيعوا الدوران كل بمفرده دون أن يتلامسوا أبدا . وتطير القراطق البيضاء وتدور الرأس بغطائها المصنوع من الجوخ ويبدو كل واحد من رجال الدين هؤلاء كما لو كان تلك اللعبة الطائرة المكونة من حزمة من الريش مثبته فى قاعدة من الفللين يتقاذفها اللاعبون .

---

(١) تجعلهم سعداء (م)

(٢) أسس هذه الطائفة عبد القادر جيلانى ١٠٧٧ — ١١٦٦ .

وفى هذا الوقت يقوم بعضهم بأداء نغمات حزينة على ناى من البوص • وتأتى ، بالنسبة للراقصين كمـا يحدث بالنسبة للمنشدين ، لحظة تجلى تحدث لهم نشوة خاصة .

ولا يحق للمثقفين أن يدهشوا لهذه الممارسات الغريبة • فهـؤلاء الدراويش يمثلون التقليد المتواصل للقساوسة اليونانيين وفئاتهم المختلفة الذين رقصوا وصاحوا طيلة قرون طويلة سحيقة على هذا الشاطىء نفسه . ان هذه الحركات التشنجيه بمساعدة المشروبات والعجائن المثيرة تصل بالانسـان الى حالة عجيبة يقبل ازاءها الله ، وقد تأثر من حب الناس له ، أن يتجلى لهم فى أحلام رائعة كمذاق الجنة .

وحينما هبطنا من تكية الدراويش لبلوغ السلم البحرى رأينا القمر وقد ارتفع الى كبد السماء وبدت فى ضوئه الى اليسار اشجار السرو الضخمة فى مقبرة اسكودار ، والى أعلى البيوت الملونة اللامعة والمذهبة فى أعالى مدينة اسكودار التى يسمونها المدينة الفضية •

وبدا القصر الصيفى للسلطان ، الذى زرناه فى الصـــــباح ، فى وضوح الى اليمين على شاطىء البحر بجدرانه المعرجة والمطلية بالأبيـض مع حافة عليا من اللون الذهبى الشاحب . واخترقنا ميدان السوق ، وأوصلنا « القارب » فى عشرين دقيقة الى طوفانا على الضفة الأوربية •

وحينما رأيت اسكودار تبدو من بعيد فى افقها الذى تحدده الجبال الزرقاء والممرات الطويلة التى تحفها أشجار الشربين والسرو فى قرافتها تذكرت جملة بايرون المأثورة :

« ايه يا اسكودار ! ان بيوتك البيضاء تشرف على مئات القبور حينما نرى فوقها الشجرة دائمة الخضرة ، شجرة السرو الفارهة الحزينة التى تتسم أوراقها بحداد لا ينتهى ولا يبادله واياها أحد »(١).

---

(١) ديوان : « خطيبة أبيدوس » الباب الثانى القطعة ١٨ .

الـــرّواة
أسطورة في أحد المقاهي

لن يكون من المستطاع اعطاء القارىء سوى فكرة ضعيفة عن متع القسطنطينية خلال شهر رمضان وأهم ما تتسم به لياليها من سحر اذا لم نذكر الروايات الرائعة التى يقصها الرواة أو يرتلونها فى أهم مقاهى استانبول • وان ترجمة احدى هذه الأساطير كفيلة باكمال الأفكار التى ينبغى أن نكونها عن أدب عال وشعبى فى وقت واحد يحيط بالتقاليد وبالأساطير الدينية المأخوذة من وجهة النظر الاسلامية احاطة بديعة •

واعتبرنى الايرانيون الذين يتولون حمايتى طالب علم (أى عالما) ، ولذا ففد أخذوا يصحبوننى الى المقاهى الواقعة خلف مسجد بايزيد التى كان يجتمع فيها فيما مضى مدخنو الأفيون • أما اليوم فان هذا « الكيف » محظور ولكن التجار الغرباء عن تركيا يرتادون بحكم العادة هذه البقعة البعيدة عن صخب أحياء وسط المدينة •

ويجلس الرواد ويطلبون النرجيلة أو الشبوق ويستمعون الى الروايات التى تطول أطول مدة ممكنة ، كما هو الحال فى مسلسلاتنا ، فهذا يحقق مصلحة صاحب القهوة والراوى على السواء •

ورغم أنى بدأت دراسة لغات الشرق فى سن مبكرة فانى لا أعرف منها الا الكلمات التى لاغنى عنها (١) • ومع ذلك فان حيوية القصة قد شوقتنى وساعدنى أصدقائى فى الخان على الأقل على تفهم الموضوع •

ولذا فانى أستطيع بصفة تقريبية أن أصف تأثير هذه القصص التصويرية التى يبدع فيها الذوق الشرقى التقليدى • والجدير بالذكر

---

(١) قال جيرار فى «نزهات وذكريات» الجزء الخامس ويدعى «السنوات الأولى» «كنت أدرس فى وقت واحد الايطالية واليونانية واللاتينية والالمانية والعربية والفاوسية»

أن المقهى الذى كنا فيه يقع فى أحياء العمال فى استانبول وهى مجاورة للأسواق • وفى الشوارع المجاورة توجد ورش صاهرى المعادن والنقاشين والحفارين الذين يصنعون أو يصلحون الاسلحة الجميلة المعروضة فى البيزستان، وكذلك صناع الادوات المنزلية المصنوعة من الحديد أو النحاس• وثمة مهن كثيرة أخرى ترتبط بالسلع المختلفة المعروضة فى الأقسام العديدة فى السوق الكبير •

ولذا فان الجمع كان لابد أن يبدو فى اعين رجال المجتمع شعبيا • ومع ذلك فقد كان هنا وهناك على المقاعد والمنصات بعض الملابس المتأنقة•

ويبدو أن الراوى الذى سنسمعه من المشهورين • وفيما عدا رواد المقهى كان ثمة جمع من المستمعين يتزاحمون فى الخارج •

وطلب الى النـاس أن يلوذوا بالصمت وأتى شاب ذو وجه شاحب وملامح غاية فى الدقة ونظرة ملتهبة وشعر طويل يتدلى من تحت غطاء رأسه ، المختلف عن الطربوش كالأولياء ، أتى هـذا الشاب ليجلس على كرسى بلا ظهر فى مكان تبلغ مساحتهمن اربعة الى خمسة أقدام وسط المقاعد • وأحضرت له القهوة وأصاخ الناس السمع فى احترام دينى اذ أن كل قصة ، حسب العادة ، لابد أن تستمر نصف ساعة •

ان هؤلاء الرواة المحترفين ليسوا شعراء ولكنهم رواة شعر • انهم ينظمون ويطرقون موضوعات سبقت معالجتها بطرق مختلفة أو موضوعات مبنية على الأساطير القديمة • وهـكذا تتجدد مغامرات عنتر وأبو زيد والمجنون مع آلاف الاضافات أو التغييرات • وكان الأمر يتعلق هذه المرة بقصة تتغنى بأمجاد هذه الجماعات العاملة القديمة التى خلقها الشرق •

وقال الراوى : الحمد لله ولصفيه أحمد الذى تضىء عيناه بنور جميل : انه نبى الحق الوحيد

وصاح الجميع : آمين •

قصة ملكة الصباح وسليمان

أمير الجن

أدونيرام (١)

امتنع أدونيرام الذى كان فى خدمة الملك الكبير سليمان بن داود عن النوم والملذات والمرح فى الولائم منذ عشر سنوات وذلك لخدمة مشاريع هذا الملك . ولما كان رئيسا لجوقات العمال الذين كانوا ، مثلهم فى ذلك مثل خلايا النحل العديدة ، كانوا يســـهمون فى بناء خلايا من الذهب وخشب الأرز والمـــرمر والحديد كان ملك فلســطين يبنيها من أجل الله « أدونايى ويعدها لعظمته الشخصية ، فقد كان المعلم « أدونيرام » يقضى الليل فى ادماج الخطط والنهار فى تشكيل الوجوه العملاقة التى يصنعها لتزيين الواجهة (٢) .

وكان قد أقام ، على مكان ليس بالبعيد من القبر ، ورشا ، للحدادة تدق فيها المطرقة بلا انقطاع ، وكذلك ورشا تحت الأرض لصهر المعادن كان البرونز المصهور فيها يجرى فى مائة قناة من الرمل ويأخذ أشكال الأسود والنمور والتنين ذى الاجنحة ورءوس الاطفال المحمولة على جناحين

---

(١) شخصية حيرام التى وردت فى التوراة مع تطوير رومانسى كبير اضافه خيال نرفال .

(٢) نلاحظ أن نرفال هنا يقتبس من حياة الرسام والنحات الايطالى العملاق ميكل ـ انجلو ومشاريعه الجبارة لا سيما مقبرة جوليوس الثانى وأعظم أثر باق منها اليوم هو تمثال موسى .

بل حتى أشكال الجن الغريبة المرتاعة .. وهى أجناس بعيدة كادت تندثر في ذاكرة الانسان .

وكان ثمة أكثر من مـــائة ألف صـــانع تحت امرة أدونيرام ينفذون أفكاره الواسعة : كان هناك ثلاثون ألفا من صاهرى المعادن وكان النحاتون وكاسرو الاحجار يشكلون جيشا آخر يبلغ ثمانين ألفا من الرجال ، وكان هناك سبعون ألفا من العمال يســاعدون فى حمل المواد والمعدات . أمـا قاطعو الأخشاب فقد قسموا فى كتائب عديدة وتفرقوا فى الجبال حيث أخذوا يقطعون أشجار الصنوبر الموغلة فى القدم حتى صحارى قوم يأجوج ومأجوج كما أخذوا يقطعون أشجار الأرز من هضاب لبنان . واســتعان أدونيرام بثلاثة آلاف وثلاثمائة من القهارمة فى اقرار النظام بين هؤلاء العمال الذين كانوا يعملون بلا أدنى اضطراب .

ومع ذلك فقد كانت نفس آدونيرام القلقة تشرف على هذه الأعمال الكبيرة بشىء من الازدراء . وكان انجاز احدى معجزات الدنيا السبع يبدو له عملا وضيعا . وكلما كان العمل يتقدم كلما بدا له ضعف الجنس البشرى أمرا مؤكدا وكلما شكا من عدم الكفاية ومن الامكانيات المحدودة التى يقدمها له معاصروه . لقد كان أدونيرام ذا حمية ملتهبة فى التفكير وأكثر التهابا فى التنفيذ .

كان يحلم بالأعمال العملاقة ، وكان ذهنه يغلى كالمرجل ويخلق الأفكار العبقرية السامية . وحينما كانت أعماله تدهش أمراء العبرانيين كان هــو وحده يستخف بالأعمال التى ألفى نفسه مضطرا لتنفيذها .

كان انسانا قاتما غامضا ، وكان ملك صور الذى كان يستخدمه ، هو الذى أهداه لسليمان . ولكن ما هو وطن أدونيرام ؟ لا أحد يعرفه . من أى مكان أتى ؟ كان هذا لغزا . أين تعلم مبادىء علمه الواسع العملى العميق المتنوع ؟ لا ندرى . كان يبدو كمـــا لو كان يخلق كل شىء ويحدس بكل شىء وينفذ كل شىء . ما هو أصله ؟ الى أى جنس ينتمى ؟ كان ذلك هـــو السر الذى يخفيه أكثر من غيره ، ولم يكن يقبل أبدا أن يسأله أحد عنــه

وكان كرهه للناس يجعله غريبا وحيدا وسط جميع أبنـــاء آدم . كانت عبقريته المتألقة الجريئة تضعه فوق البشر الذين لم يـكونوا قط يشعرون أنهم اخوته . لقد كان مزيجا من روح النور ومن الظلمة .

كان لا يبالى بالنساء اللاتى كن يتأملنه خفية ولا يتحدثن أبدا عنه ، وكان يحتقر الرجال الذين كانوا يتجنبون نظرته النارية كما كان يحتقر

الرعب الذى كان يوحى اليهم به مظهره المهيب وقامتـــه العالية القوية ، والتأثير الذى يحدثه جماله الغريب المذهل • كان قلبه صامتا وذلك لأن نشاط الفنان فيه كان وحده هو الذى يحرك يديه اللتين خلقتا لعجن العالم ويحنى كتفيه اللتين خلقتا لحمل هذا العالم •

واذا لم يكن له أصدقاء فقد كان له عبيد مخلصون • وقد اتخــذ رفيقا واحدا •• طفل صغير ، صـــبى فنان ينتمى الى الأسر الفينيقية التى نقلت فيما مضى تحفها الفنية الى الشواطىء الشرقية لآسيا الصغرى • كان بينونى شاحب الوجه وكان فنانا دقيقا يحب الطبيعة ويطيعها • وقد قضى طفولته وصباه فيما وراء الشام فى هذه الضفاف الخصبة للفرات الذى كان فى ذلك الوقت جدولا صغيرا ، ولم يكن يعيش على ضفتيه الا الرعاة الذين ينشدون أغانيهم تحت ظلال أشـــجار الغـــار الخضراء التى تتخللهـــا الورود • (١)

وذات يوم ، حينما بدأت الشمس تميل نحو البحر ، وكان بينونى واقفا أمام كتلة من الشمع يشكل منها بقرة تشكيلا دقيقا ، ويدرس قدرته على الشعور بقدرة العضلات على الحركة اقترب منه « الأستاذ » أدونيرام وقضى وقتا طويلا يتأمل هذا العمل الفنى الذى كاد يتم وقد قطب حاجبيه •

وصاح قائلا : « يا للعمل التعس ! أرى صبرا وذوقا وطفولة ! ولكن لا عبقرية فى أى موضع ولا ارادة مطلقا • ان كل شىء يتدهور ، وأرى العزلة والتنوع والتناقض وعدم النظـــام ، وهى الأدوات الابدية التى تقضى على أجناسكم ذات الأعصاب الثائرة ، أراها تشل تصوراتك الضعيفة أين هم عمالى أين صاهرو المعادن ، أين عمال التسخين والحدادين ؟ •• لقــد تفرقوا ! •• ان هذه الأفران التى بردت كان ينبغى فى هذه الساعة أن تشهق وتزفر من اللهب الذى يزداد استعارا • ان الأرض كان يجب أن تتلقى آثار هذه الأشكال التى عجنتها بيدى • ألف ذراع كان ينبغى أن تنحنى على الأفران •• ومع ذلك فها نحن وحدنا !

وأجاب بينونى برقة :

ـ أيها الأستاذ ، ان هؤلاء الناس الاجلاف لا تساندهم العبقرية التى تلهبك • وهم فى حاجة الى الراحة • والفن الذى نحن أسيران له قد ترك

---

(١) شخصية بينونى هذه من اختراع نرفال •

أذهانهم عاطلة . لقد أخذوا اجازة لليوم كله . وقد أمر سليمان الحكيم بأن الراحة واجب عليهم . ان القدس في عيد مزدهر .

ـ عيد ! فيم يهمني ذلك ؟ الراحة .. لم أعرفها أبدا . ان الذى يهددني هو البطالة ! أى عمل هذا الذى نقوم به ؟ معبد من الذهب ، قصر للغرور والملذات ، مجوهرات قد تحولها قطعة خشب ملتهبة الى رماد . انهم يسمون ذلك « الخلق للخلود » .. وذات يوم تأتي جحافل من المنتصرين وقد جذبتها رغبة مبتذلة في الكسب وتألبت ضد شعب أفسدته الرخاوة ، تأتى فتهدم في ساعات قليلة هذا المبنى الواهى فلا تبقى منه الا الذكرى . ان الأشكال التى نصورها سوف تصهر على ضوء المشاعل كما تذوب ثلوج لبنان حينما يأتى الصيف وسوف تقول الأجيال القادمة وهى تجوب هذه التلال القاحلة: « لقد كان العبرانيون أمة ضعيفة مسكينة ! .

ـ ماذا ! أتتحدث ياأستاذى عن هذا القصر الرائع.. وهذا المعبد الذى يعتبر أثمن وأوسع وأمتن معبد .

ـ غرور ! غرور ! كما يقول السيد سليمان على سبيل الغرور .

أتعرف ماذا كان يفعل أبناء هينوس فيما مضى ؟

لقد قاموا بتنفيذ عمل بلا اسم ارتاع له الخالق نفســـه وارتعدت له الأرض وهى تقلبه رأسا على عقب . ولقد بنيت مدينة بابل من المخلفـــات المبعثرة للمواد التى صنع منها. يا للمدينة الجميلة التى تستطيع عشر عربات أن تطير فوق مقاطع جدرانها . أتعرف ما معنى أثر يقام ؟ أتعرف الأهرام ؟ انها سوف تعيش حتى اليوم الذى تنهار فيه جبال قاف (١) التى تحيــط بالعالم . وليس هم أبناء آدم الذين بنوها .

ـ ومع ذلك فيقال ...

ـ هذا كذب : لقد ترك الطوفان آثاره فوق قمتها . اصغ الى : على بعد ميلين من هنا وأنت تصعد الأرز توجد كتلة مربعة من الصخر حجمها ستمائة ذراع . فليعطونى مائة ألف من العمال مسلحين بالحديد والمطارق . وسوف أنحت فى الصخرة الضخمة رأسا عملاقة لأبى الهول .. وهو يبتســـم ويرسل نظرة لا تتغير الى السماء وسوف يراه الاله جيوفا من أعلى السحاب وسوف يشحب لونه من الذهول . ذلك هو الأثر . وسوف تمر مائة ألف عام وما زال أبناء البشر يقولون : انه شعب عظيم ذلك الذى ترك هنا آثاره.

---

(١) جبل أسطورى ذكره جيرار من قبل فى قصة الخليفة الحاكم .

وقال بينوني وهو يرتعد :

ـ سيدى من أى جنس أنت هذه العبقرية المتمردة ؟ ...

ـ ان تلك التلال التى يسمونها جبالا تثير فى الشفقة . ماذا لو عملنا على وضعها الواحد فوق الآخر فى تدرج سلمى وننحت تحت أقدامها وجوها عملاقة ...

ان هذا قد يساوى شيئا . وفى القاعدة نحفر كهفا من الاتساع بحيث يأوى جوقة من القساوسة : فيضعون فيه تابوت العهد بملائكته الذهبية والحصاتين اللتين يسمونها مناضد وهكذا تحصل القدس على معبد ، وسوف يعيش الاله كما لو كان بنكيرا (صاحب مصرف) من منفيس .

ـ ان أفكارك تحلم دائما بالمستحيل .

ـ لقد ولدنا فى عصر متأخر جدا فالعالم موغل فى القدم والشيخوخة واهنة ، انك على حق . انه انحلال وانهيار . انك تنقل من الطبيعة فى برود وتقضى وقتك كما تفعل ربة البيت التى تنسج خمارا من الكتان . ويأتى ذهنك المضطرب فيصير عبدا اما لبقرة أو لأسد أو لحصان أو لنمر ، وهدفك من العمل هو أن تتنافس بالتقليد مع بقرة أو لبؤة أو نمرة أو فرس .. ان هذه الحيوانات تصنع ماتصنعه أنت وأكثر لأنها تنقل الحياة مع الصورة . أيها الطفل ان الفن ليس فى ذلك . انه يتوقف على الخلق . فهل اذا أردت رسم احدى هذه الزخارف التى تتلوى بطول الافاريز هل تكتفى بنقل الزهور وأوراق الأشجار التى تزحف على الأرض ؟ كلا . إنك تبتكر وتترك العنان لنزوات التخيل خالطا بين أكثر النزوات غرابة . حسن ! ولم لاتبحث بجانب الانسان والحيوان الأحياء ، لم لا تبحث عن أشكال مجهولة ورءوس لا اسم لها وتجسيدات تراجع الانسان أمامها وازدواجات مروعة ووجوه كفيلة بنشر الاحترام والمرح والذهول والارتياع ؟ تذكر قدماء المصريين وفنانى الأشوريين الذين يتسمون بالجرأة والسذاجة . ألم ينتزعوا من جلاميد الجرانيت تماثيل ابى الهول والغوريلات وتلك الروائع المصنوعة من البازلت التى كان منظرها يثير جيوفا اله داود الشيخ ؟ فاذا رأى الناس من جيل الى جيل تلك الرموز المخيفة سوف يرددون أنه قد كان فى الماضى عبقريات جريئة . هل كان هؤلاء الناس يفكرون فى الشكل ؟ لقد كانوا يسخرون منه وكانوا يستطيعون ، وقد مدتهم ابتكاراتهم بالقوة ، أن يصيحوا بخالق كل شيء قائلين : « ان هذه الكائنات من الجرانيت ليست فى

تصورك ولا تجرؤ على بث الروح فيها » . ولكن اله الطبيعة متعدد الشكل قد طواك تحت نيره والمادة تحدد من مجهودك وعبقريتك المتدهورة تغوص في مبتذلات الشكل . يا لضيعة الفن .

وقال بيونى فى نفسه : من أين أتى أودنبرام هذا الذى تفوق عبقريته البشر :

واستطرد هذا السباك قائلا وهو يمر بيده فوق جبهته العريضة مبعدا خصلة كثيفة من الشعر الاسود المجعد :

« لنعد الى دمى الأطفال لتكون فى متناول الفهم المتواضع لسليمان العظيم . ها هى ثمانيــة وأربعون ثورا من البرونز ذات تـكوين حســن ومثلها من الأسود والطيور والنخيل والملائكة . وكلها أحسن تعبيرا من الطبيعة . وانى أخصصها لحمل حوض من الفولاذ من عشرة أذرع تصب في دفقة واحدة عمقه خمسة أذرع ويحده اطار زخرفى طوله ثلاثون ذراعا

ولكن لدى أشكال لابد أن أتمهـــا . ان قالب الحـوض جاهز . وأخشى أن يذوب بفعل حرارة هذا اليوم . ينبغى لنا الاسراع وكما ترى يا صديقى فان العمال فى عيد وقد تخلوا عنى .

أتقول انه عيد ؟ أى عيد ؟ وبأية مناسبة ؟ » .

وتوقف الراوى عند هذا الحد فقد مر نصف الساعة . وأصبح كل واحد من الرواد فى حل من طلب القهوة أو الشراب أو الطباق . وبدأت الأحاديث حول جمال التفصيلات والتشويق الذى تتسم به الرواية . ولاحظ أحـد الايرانيين ممن كانوا بالقـرب منى أنه يخيل اليه أن تلك القصة مستقاة من ملحمة سليمان ــ نامه (١) .

وفى أثناء تلك الاســتراحة ، هـكذا يسمون الفترة التى يأخـذها الراوى للراحة وكذلك فان كل ســهرة تسمى جلسة ، كان الصــبى الذى اصطحبه الراوى معه يمر بين الصفوف وهو يقدم وعاء عميقا من الخشب لكل واحد من الرواد ثم عاد بالوعاء مليئا بالنقود فوضعه تحت قـــدمى سيده .

واستأنف هذا الأخير الحديث برد بيلونى على أدونيرام .

---

(١) للشـــاعر الايرانى الفردوسى من القرن العاشر وهى جزء من الشـــاهنامة (كتاب الملوك) م.

٣ - بلقيس

قبل أسر العبرانيين في مصر بعدة قرون أتى سبأ ، وهو الرجل العظيم من نسل ابراهيم وكيتورا ، أتى ليقيم في الأرض السعيدة التي نسميها اليمن حيث أسس مدينة حملت في أول الأمر اسمه وتعرف اليوم باسم مأرب • وكان لسبأ أخ يدعى اعراب وهو الذي أورث اسمه الى جزيرة العرب الصخرية • وحملت سلالة خيامها هنا وهناك حينما ظلت سلالة سبأ تحكم اليمن التي أصبحت امبراطورية عظيمة كانت في ذلك الوقت تحت امرة الملكة بلقيس الوريثة المباشرة من سبأ ليوختان للبطريق عيبر •• الذي كان جده الثالث سام وهو الأب المشترك للعبرانيين والعرب (١) •

وقاطعه أدونيرام وقد نفذ صبره :

ـ انك تبدأ كالكتاب المصرى وتستمر على النغمة الرتيبة التي كان يتحدث بها موسى بن عمران (النبي موسى) المخرر المسهب لشعب يعقوب • ان رجال الكلام يأتون دائما بعد رجال العمل •

ـ كما يأتي مقدمو الحكم بعد الشعراء المقدسين • باختصار يا أستاذي فان ملكة الجنوب (٢) ، أميرة اليمن ذات الجمال الملائكي بلقيس سوف تصل اليوم الى سليم في زيارة لسليمان الحكيم وللاعجاب بالروائع التي نصنعها بأيدينا •

---

(١) أخذ جيرار هذه التفصيلات في غالب الأمر عن المستشرق سيلفستردي ساسي .
(٢) كانت مملكة سبأ تشغل الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية .

وقد ذهب عمالنا لاستقبالها ضمن حاشية الملك وقد غص الريف بالناس بينما خلت الورش من العمال • ولقد كنت من أوائل من سارعوا بالذهاب ورأيت الموكب ثم عدت اليك •

ـ اعلن لهم عن مقدم السادة فانهم سرعان ما يجرون تحت أقدامهم بطالة •• عبودية •

ـ بل حب الاستطلاع خاصة ، ولقد كنت تفهم ذلك لو ••• ان نجوم السماء أقل عددا من الجند الذين يتبعون الملكة • فخلفها تسير ستون من الفيلة البيضاء المحملة بالاحمال التى تتلألأ بما فيها من ذهب ودمقس ، ويسير ألف من أبناء سبأ بجلدهم الذى أحالته الشمس الى لون الذهب ويقودون جمالا تكاد سيقانها تنثنى من ثقل الأمتعة والهدايا التى أحضرتها الاميرة • ثم يليهم الاحباش وقد تسلحوا بأسلحة خفيفة وبدا لونهم القرمزى كما لو كان نحاسا مطروقا ، وتلتهم سحابة من الاحباش السود فى لون الابنوس وقد راحوا يمرون هنـا وهناك وهم يقودون خيولهم وعرباتهم ويطيعون الجميع ويسهرون على كل شىء • ثم •• ولكن ما جدوى هذه القصة ؟ انك لا تتنازل بالاستماع اليها •

وتمتم أدونيرام كما لو كان فى حلم :

ـ ملكة سبأ ! انه جنس انقرض ولكن دمه نقى لم يخلط •• وماذا أنت تفعل فى هذا البلاط ؟

ـ ألم أقل لك السبب يا أدونيرام ؟ لقد قدمت لترى ملكا عظيمـا وتختبر حكمته التى طبقت شهرتها الآفاق وربما لتحطيمها اربا • ويقولون انها تحلم بالزواج من سليمان الحكيم على أمل أن ترزق منه بذرية جديرة بالجنس الذى تنتمى اليه •

وصاح الفنان فى ثورة عارمة : جنون ! جنون ! انه دم عبد ، دم أحط المخلوقات •• يوجد منه الكثير فى عروق سليمان ! أتقترن اللبؤة بالكلب التابع المبتذل ؟ لقد مرت قرون طويلة ظل فيها هذا الشعب يضحى بالبيوتات ويسلم نفسه لنساء غريبات فانحلت الاجيال المتتالية وفقدت قوة الأجداد وحيويتهم • من هو هذا السليمان المسالم ؟ انه ابن سبية حرب من الراعى المسن داود ، وداود نفسه ابن راعوث وهى مغامرة أتت من بلاد مؤاب فارتمت تحت أقدام مزارع من بيت لحم •

انك تعجب بهذا الشعب العظيم يا بنى : انه لم يعد الا ظلا وانطفأ

فيه الجنس المغوار . ان شمس هذه الامة تقترب من نهايتها وهى بعد فى السمت . لقد أثار السلام أعصابهم وجعلهم الترف والملذات يفضلون الذهب على الحديد ولم تعد ذرية الملك المرفه المحب للشهوات يصلحون الا فى التجول بالبضائع أو نشر الربا بين الناس . وسوف تنحدربلقيس الى هـــذا الدرك الأســـفل وهى ابنة البطارقة ! قل لى يا بنونى ، لقـد قدمت أليس كذلك ؟ .. وسوف تعبر سور أورشليم هـــذا المساء بالذات .

ــ ان الغد هو يوم السبت . ولما كانت متمسكة بعقائدها فقـــد رفضت أن تدخل هذا المساء وبعد غروب الشمس فى تلك المدينة الغريبة ولذا فقد نصبت الخيام على ضفاف صيدا ورغم الحاح الملك الذى أتى اليها يحيط به موكب غاية فى الفخامة والأبهة فقد زعمت أنها سوف تقضى الليل فى الريف .

ــ ان حذرها هذا جدير بالثناء ! أما زالت شابة ؟ ...

ــ نستطيع القول بأنها ما زالت فى شرخ الشباب . وان جمالهـا ليخلب الألباب . ولقد لمحتها كما يلمح الانسان الشمس فى مشرقهـــا فما تلبث أن تلهب عينيه وتجعله يغض بصره وقد خر الناس جميعـــا لمرآها سجودا وفعلت أنا كما فعل الآخرون . ولما نهضت رأيت صورتها ولكن يا أدونيرام ان الليـــل قد أرخى سدوله وانى لأســـمع العمال وقـد عادوا متجمعين لاستلام رواتبهم لأن الغد هو يوم السبت .

وهنا قدم رؤساء الصناع العديدون . وأقام أدونيرام الحراس لدى مدخل الورش وفتح خزائنه الكبيرة وبدأ يدفع للعمال أجورهم بعد أن يتقدموا نحوه الواحد تلو الآخر وهم يهمسون فى أذنه بكلمة السر .

وذلك لأنهم كانوا من كبر العدد بحيث يصعب تحديد المرتب الذى يستحقه كل منهم .

ولذا ففى اليوم الذى استخدموا فيه تلقوا كلمة السر لا ينبغى أن يذكروها لأحد والا دفعوا حياتهم ثمنا لذلك وأيدوا ذلك بقسم جليل . وكان للرؤساء كلمة سر وكان للعمال كذلك كلمة سر تختلف عن كلمة من هم تحت التمرين .

---

(١) هذه التفصيلات مستقاة من تقاليد البنائين ، فلدى انشاء معبد القدس كانت رتب العمال هى : عامل تحت التمرين ، عامل ثم رئيس عمل . وكان لكل رتبة كلمـة سر .

وهكذا فكلما مر أحدهم أمام أدونيرام وقهارمته كان ينطق بكلمة السر فيوزع عليهم أدونيرام مرتبا يختلف باختلاف تدرج وظائفهم •

ولما انتهى « الحفل » الذى تم على ضوء مشاعل صمغ الصنوبر قرر أدونيرام أن يقضى الليل وسط أسرار أعماله ، ولذا فقد صرف بينونى الشاب وأطفأ شعلته • ولما بلغ مصانعه تحت الارضية اختفى فى أعماق الظلمات •

ولما طلع نهار اليوم التالى اجتازت بلقيس ملكة الصباح مع أول شعاع من أشعة الشمس الباب الشرقى لأورشليم • وقد استيقظ العبرانيون على الضوضاء التى أحدثها رجال حاشيتها فتهافتوا على باب مدينتهم وتبع العمال الموكب وهم يهتفون هتافات صاخبة • ولم ير أحد من قبل مثل هذا العدد من الخيول والجمال ولا مثل هذه الجوقة السخية بالفيلة البيضاء التى تقودها خلية تضم هذا العدد الكبير من الأحباش السود •

وتأخر سليمان بسبب المراسم التى لا تنتهى ، وكان على وشك الانتهاء من ارتداء لباس يخلب الألباب وانتزاع نفسه من أيدى الوصفاء المختصين بلبسه حين هبطت بلقيس على عتبة القصر ودخلت اليه بعد أن حيت الشمس الزاهية التى كانت قد ارتفعت فوق جبال الجليل •

واستقبل الأمناء الملكة وهم يرتدون غطاء رأس على شكل أبراج وقد تسلحوا بعصى طويلة مذهبة وأدخلوها أخيرا الى القاعة التى كان يجلس فيها سليمان بن داود وسط رجال بلاطه على عرش مرتفع وقد سارع بالنزول منه ببطء وئيد ليستقبل الزائرة العظيمة •

وتبادل الملكان تحية يحفها كل الاجلال والتكريم اللذين يمارسهما الملوك ويحلو لهم أن يوحوا بهما نحو جلال الملك • ثم جلسا جنبا الى جنب بينما أخذ العبيد يمرون صفا وقد حملوا الهدايا التى أحضرتها ملكة سبأ : الذهب والقرفة والمر • ولا سيما البخور الذى كان مصدر تجارة كبيرة لليمن ، ثم انياب الافيال وأكياس العطر والأحجار الكريمة • وكذلك أهدت الملكة للملك مائة وعشرين مثقالا من الذهب النقى •

وكان سليمان فى ذلك الوقت فى سن الكهولة الا أن السعادة التى كانت تجعل أسارير وجهه دائما منبسطة قد ابعدت عنه التجاعيد والآثار الحزينة التى تتركها العواطف العميقة • كانت شفتاه براقتين وعيناه

فى مستوى رأسه تفصلهما أنف كبرج من العاج كما قال هو نفسه على لسان سلاميت (١) • وكان جبينه المنفرد كجبين الاله سيرابيس (٢) كانت ملامح وجهه هذه تدل على السلام الدائم ، الذى تسببه تلك الطمأنينة التى لا توصف لملك راض عن عظمته الشخصية كان سليمان يشبه تمثالا من الذهب له يدان وقناع من العاج •

وكان تاجه مصنوعا من الذهب وثيابه من الذهب • وكان معطفه الأرجوانى ، وهو هدية من حيرام أمير صور ، منسوجا فوق سلسلة من خيوط الذهب • كان الذهب يضوى على حزامه وفوق مقبض سيفه • وكان حذاؤه الذهبى يرقد فوق بساط موشى بالرسوم المذهبة وكان عرشه مصنوعا من الأرز المذهب •

وجلست ابنة الصباح البيضاء الى جواره وقد تدثرت بسحابة من منسوج الكتان والاقمشة الشفافة التى لا تشف عما تحتها بوضوح ، فكانت تبدو كزنبقة تائهة وسط باقة كثيفة من زهور السوسن • كانت زينتها حذره وقد أخذت تبديها أكثر فأكثر وهى تعتذر عن بساطة ثيابها الصباحية قائلة :

ــ ان الثياب البسيطة تناسب الثراء ولا تتنافى مع العظمة •

فأجاب سليمان قائلا :

ــ ان الجمال الالهى يناسبه أن يثق فى قوته ، أمـا الرجل الذى يتحدى ضعفه فمن المناسب له ألا يهمل شيئا فى ملابسه •

ــ يا للتواضع الرائع الذى يزيد من تألق سليمان الذى لا يقهر •• •• النبى الحكيم قاضى الملوك ومؤلف نشيد الانشاد الخالد وهو أنشودة الحب الحنون وغيره من زهور الشعر •

فقال سليمان وقد احمر وجهه من السرور :

ــ ماذا أيتها الملكة الجميلة ؟ هل تنازلت وألقيت نظرة على ••• تلك المحاولات الضعيفة !

---

(١) نشيد الانشاد ٥٠٧ : «عنقك برج من العاج وأنفك برج لبنان» ولكن فى نشيد الانشاد يوجه الزوج هذا الكلام لسلاميت وقد بدل جيرار هنا الاوضاع ••

(٢) اله مصرى من عهد البطالمة والعصر الرومانى •

فصاحت ملكة سبأ قائلة :

ــ انك شاعر عظيم !

فنفخ سليمان صدره المذهب ورفع ذراعه المذهبة ومر بيده فى رفق على ذقنه السوداء وقد قسمت فى ضفائر عديدة تتخللها خيوط من الذهب .

وكررت بلقيس قولها :

« شاعر عظيم ! وهذا يغفر لك عن رضا هفوات الأدب المكشوف » .

وأطالت تلك الخاتمة غير المنتظرة خطوط وجه سليمان العظيم وأحدثت حركة فى صفوف رجال البلاط القريبين . وكان من بينهم زابود المقرب للأمير والذى كان يرتدى ثيابا مرصعة بالاحجار الكريمة ، وصادوق الكاهن الكبير وابنه عزرياهو قهرمان القصر المتعالى على جميع من يعملون تحت امرته ، ثم أخياواليحورف كبير المستشارين ويهوشافاط رئيس السجل وهو شبه أصم . ووقف أخيا ، وهو رجل أمين ، فى ثياب قاتمة يخشى بأسه لقدرته على التنبؤ فوق أنه ساخر بارد وميال للصمت . وبالقرب من الأمير جلس القرفصاء ، وسط ثلاث وسائد مترا صة ، باناياهو الشيخ ، القائد الأعلى المسالم لجيوش الملك الهادىء سليمان ، وقد ثقل باناياهو بالسلاسل الذهبية والنياشين المرصعة بالاحجار الكريمة حتى كادت قامته تنحنى ذلك لأنه كان يعتبر فى مجال الحرب شبه اله . وكان الملك قد كلفه فيما مضى بقتل جواب والكاهن الكبير أبياتار فقتلهما باناياهو بالخنجر . ومنذ ذلك اليوم وجد سليمان الحكيم انه جدير بكل ثقته فكلفه بقتل أخيه الأصغر الأمير أدونيا ابن الملك داود .. وقطع باناياهو رقبة شقيق سليمان الحكيم .(1) .

أما اليوم فقد نام باناياهو وسط مظاهر عظمته وهدأت السنون من حدته، وغدا شبه أبله يتبع البلاط فى كل مكان وهو يكاد لا يسمع شيئا ولا يعى شيئا ويقضى بقية حياته المتداعية وهو يسعد قلبه ببريق العظمة الذى تركه الملك يتألق فوقه . أن عينيه الباهتتين تبحثان بلاتوان عن عينى الملك . وهكذا تحول الفهد فى آخر أيامه الى كلب .

ولما تركت بلقيس تلك الكلمات الغامزة تفلت من بين شفتيها الساحرتين فأصابت رجال البلاط بالذهول انفرد باناياهو الذى لم يفهم شيئا والذى اعتاد أن يرد على كل كلمة من كلمات الملك أو ضيفته

---

(1) جميع هذه الاسماء مشتقة من التوراة .

بصيحة اعجاب ، انفرد وحده وسط الصمت العام • بالصياح وهو يبتسم فى سذاجة : يا للسحر ! يا للقداسة ! •

وعض سليمان على شفتيه وتمتم بطريقة شبه مباشرة : «يا للأبله!» فرد بانياهو صائحا : وقد لاحظ أن سيده هو الذى تكلم : كلام جدير بأن تحفظه الذاكرة ! وحينئذ انفجرت ملكة سبأ ضاحكة •

ثم انتهزت تلك المناسبة وسط دهشة الجميع بتوجيه ثلاث احجيات الواحدة تلو الأخرى لكى يجد لها سليمان حلا بذكائه الذى طبقت شهرته الآفاق وكان يعتبر أمهر الناس فى حل الأحاجى التى يتعين فيها تفسير حروف كلمة ما حرفا حرفا ثم تكوين تلك الكلمة بعد ذلك . تلك كانت العادة فى ذلك الوقت . فبلاط الملوك الذى يهتم عادة بالعلوم قد عدل عن ذلك عن طيب خاطر أصبح حل الأحاجى عملا من أعمال الدولة . فعلى هذا الأساس كان يختبر ذكاء الأمراء والحكماء.

وقد قطعت بلقيس مائتين وستين فرسخا لكى تضع سليمان تحت هذا الاختبار •

وحل سليمان الأحاجى الثلاثة دون أى اهتزاز وذلك بفضل الكاهن الكبير صادوق الذى كان فى الليلة الماضية قد دفع ثمن حلها نقدا الى كبير كهان السبأيين . (١)

وقالت الملكة فى شىء من التفخيم :

ــ ان الحكمة تنطق بلسانك .

ــ هذا على الأقل ما يدعيه الكثيرون •

ــ ومع ذلك أيها الملك النبيل سليمان فان زراعة شجرة الحكمة وتعهدها لا يخلو من أخطار . فقد يشغف المرء على طول الزمن بالتقريظ والمديح وبأن يكيل المديح للناس لتملقهم وأن ينحدر نحو المادية لكى يحصل على تأييد الجماهير ..

ــ هل لاحظت فى مؤلفاتى أننى ...

ــ آه ياسيدى ! لقد قرأت مؤلفاتك بانتباه كبير . ولما كنت أرغب فى مزيد من المعلومات فان الخطة التى وضعتها لكى أقدم لك بعض

---

(١) هذه الخدعة من تأليف جيراردى نرفال نفسه فى محاولات مستمرة منه فى الكشف عن أسرار شخصية سليمان الحكيم •

الأحاجي وبعض المتناقضات وبعض السفسطائيات بدافع من جهلي بلا شك ، تلك الخطة ليست غريبة على الهدف الذى من أجله قمت بهذه الرحلة الطويلة » .

فقال سليمان بشيء من الاعتداد ردا على تلك الغريمة التى يخشى بأسها : « سوف نفعل ما فى وسعنا » .

وكان فى واقع الأمر يفضل أن يذهب بمفرده للنزهة تحت اشجار الجميز فى منزله فى ميلو . واشرأبت أعناق رجال البلاط لهذا المشهد المثير وتفتحت عيونهم . فاى وضع أسوا من أن يفقد سليمان شهرته كملك لا يخطيء أمام رعاياه ؟ وبدا صادوق متربصا وابتسم النبى اخيا ابتسامة غامضة باردة . أمام باناياهو فقد أبدى وهو يلهو بنياشينه سعادة بلهاء كانت تضفى مقدما ظلا من التهزيء على جانب الملك . وفيما يختص بحاشية بلقيس فقد ظلت ساكنة لا تتحرك ولاذت بالصمت كما لو كانت تماثيل أبى الهول .

ولنضف الى الميزات التى كانت للملكة سبأ جلال الآلهة وسحر الجمال المسكر وجانب وجه آية فى النقاء تتألق فيه عين سوداء كعين الغزال أبدع الخالق فى شقها واطالتها حتى أنها كانت تبدو دائما لجميع من تنظر اليهم كما لو كانت من أمام الوجه لا من جانبه ، وكذلك فمن ميزاتها ذلك الفم التائه بين الضحك والنشوة ، والجسد اللدن الذى تستطيع العين أن تحدس جماله من وراء الغلالة الرقيقة التى ترتديها . ولتتصوروا كذلك ذلك التعبير الرقيق الساحر المتعالى الذى يتسم به الذين ينتمون الى الطبقة العليا للذين تعودوا السيطرة وحينئذ سوف تدركون الحيرة التى وقع فيها السيد سليمان التائه بين الحرج والنشوة الذى كان بعقله يتأجج شوقا وان كان بقلبه قد سلم نصف تسليم . كانت هاتان العينان الحوراوان الغامضتان الجميلتان الهادئتان النفاذتان وسط ذلك الوجه الوضاء كالبرونز حديث الصهر تصيبانه بالاضطراب رغما عنه . كان يخيل اليه أن الذى يرى الى جواره هو وجه الالهة ايزيس المثالى الوقور (١) .

---

(١) هذا التقريب بين بلقيس وايزيس يدلنا على الاصل الذى استقى منه جيرار هذا الوصف . انها المرأة الام الحبيبة التى يلذ لخيال نرفال الرومانسى أن يلتقى بها . والاضاءة فى هذه القصة مركزة عليها ولذا فهو يسخر من سليمان ويحاول اطفاء بريقه . ولنفس السبب غير نرفال الوقائع التاريخية التى تقول ان زيارة الملكة تمت بعد بناء المعبد لا قبله .

وحينئذ بدأت تلك المناقشات الفلسفية التى ذكرتها كتب العبرانيين حارة قوية .

واستطردت الملكة قائلة :

ـ « ألست تعلم الناس الأثرة وغلظة القلب حين تقول :

« اذا كنت تعرف أن تجيب عن صديقك فقد وقعت فى الفخ ؛ انزع ثياب الذى يكرس نفسه لخدمة غيره .. » وفى مثل آخر تطرى قوة الذهب والثراء .

ـ ولكنى فى مكان آخر أمجد الفقر .

ـ هذا تناقض . فان سفر الجامعة يحث الناس على العمل ويعير الكسالى بكسلهم ولكنه فى مكان آخر يصيح قائلا : « ما الذى سوف يجنيه الانسان من كل أعماله ؟ أليس من الافضل له أن يكتفى بالأكل والشرب ؟ » وفى حكمك تندد بالفساد ولكنك تقرظه فى سفر الجامعة .

ـ أظن أنك تسخرين ..

ـ كلا فانى أستند الى النصوص : « لقد عرفت أن ليس هناك أفضل من المتع والشراب وأن الصناعة ليست الا متاعب لا جدوى منها مادام الناس يموتون كما تموت السائمة ومصير كليهما واحد . » تلك هى مبادؤك الاخلاقية أيها الحكيم !

ـ ليست هذه الا أوجها من أوجه الكلام أما قلب النظرية ..

ـ اليك هو ... وقد عثر عليه غيرى من قبل للاسف : « متع نفسك بالعيش مع النساء فى جميع أيام حياتك لأن ذلك هو نصيبك فى العمل ألخ » وأنت تعود كثيرا الى هذا النص ومن هنا استنتجت أنه من الملائم لك أن تحول شعبك الى المادية حتى تتمكن من حكم العبيد باطمئنان .

ورأى سليمان أن هذا القول يبرر سياسته ولكن بالاستناد الى حجج لم يكن يحب أن تعرض أمام شعبه . ولذا فقد اضطرب فوق عرشه ونفذ صبره .

واستمرت بلقيس قائلة بابتسامة صحبتها نظرة طويلة :

وأخيرا فأنت قاسى بالنسبة لجنسنا ، ومن هى المرأة التى تجرؤ أن تقع فى حب سليمان الوقور ؟

ـ ايه أيتها الملكة : ان قلبى قد انبسط كما ينتشر ندى الربيع فوق زهور عواطف الحب فى نشيد الزوج ! (١)

ـ انه استثناء لابد أن سلاميت فخورة به . ولكنك أصبحت قاسيا مع تحملك لأعباء السنين .

واوقف سليمان امتعاضة عابسة . وقالت الملكة : « اننى أتوقع بعض كلمـــات المجـــاملة المهذبة . حذار فســوف يسمعك مؤلف سفر الجامعة وأنت تعرف انه يقول : « ان المرأة أمر من الموت . ان قلبها فخ ويديها سلاسل . أما خادم الله فسوف يهرب منها الا أن الغافل هو الذى يقع فى حبائلها . ماذا ! أتتبع مثل هذه الحكم المتزمتة ؟ أيكون لسوء حظ بنات صهيون أن السماء قد منحتك ذلك الجمال الذى وصفته أنت نفسك باخلاص بهذه الكلمات :

« اننى زهرة الحقول وزنبقة الوديان ! »

ـ أيتها الملكة ، ذلك وجه آخر من أوجه البلاغة ..

ـ أيها الملك ، ذلك هو رأيى . لتتفضـــل بالتفكير فى اعتراضـــاتى وتوضيح غموض حكمى ، ذلك لأن الخطأ من جانبى أما أنت فقد هنأت الحكمة لانها تكمن فيك .

ولقد كتبت تقول : « سوف يعرف الناس عمق فكرى وسوف يدهش أكثر الناس قوة حين يرونى وسوف يبدو اعجـاب الأمراء عـلى وجوههم . وحينما أصمت سوف ينتظرون منى الكلام . وحين أتكلم سوف ينظرون الى فى انتباه وحين أخطب فسيضعون أيديهم فوق افواههم . » أيها الملك العظيم لقد شعرت فعلا بجزء من هذه الحقائق : لقد سحرنى فكرك وأدهشنى مظهرك ولا أشك فى أن وجهى يبدى لعينيك اعجابى . اننى فى انتظار كلماتك فسوف تجدنى هذه الكلمات منتبهة وفى خلال حديثك سوف تضع خادمتك يدها على فمها (٢) .

وقال سليمان وهو يرسل تنهيدة عميقة .

ـ سيدتى ، ماذا يكون الحكيم بالنسبة لك ؟ ان مؤلف ســفر

---

(١) جزء من نشيد الانشاد .

(٢) مراجع هذا الوصف من التوراة هى : ٦ ، ١٥٠١١ ، ١٥٠١٠ ، ٤٠١١ ، ٨٠١٣ ، ٢٠٠٢٢ . سفر الجامعة : ٤٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٧٠٥ ، ٩٠٩ ، ٢٦٠٧ .

الجامعة منذ أن استمع اليك لم يعد يجرؤ على تأييد الا فكرة واحدة من أفكاره يشعر بوزنها : «يا للغرور يا للغرور ! ان كل شيء ليس الا غرورا!»

وأعجب الجميع برد الملك . وقالت الملكة في نفسها : للمتحذلق متحذلق ونصف .. آه لو استطعنا شفاءه من داء الكتابة .. فهو مع ذلك رقيق بشوش وما زال محتفظا بشبابه .

أما سليمان فبعد أن قدم هذه الاجابات اضطر الى تخليص شخصه من التحفظ الذى كثيرا ما فرضه عليه وقال للملكة بلقيس . « انك يا صاحبة الصفاء تملكين طائرا لست أعرف نوعه . »

والواقع أن كان ثمة ستة من صغار الزنوج يرتدون الملابس القرمزية مكلفين برعاية هذا الطائر الذى لم يكن يفارق سيدته أبدا . وكان أحد هؤلاء الصبيان يضعه تحت قبضة يده وكانت أميرة سبأ كثيرا ما تنظر اليه .

وأجابت الملكة قائلة : « نحن نسميه هدهدا . ويقال ان جده الثالث الذى عمر طويلا قد أحضره بعض سكان الملايو من بلاد بعيدة كانوا هم وحدهم يعرفونها أما نحن فنجهلها . انه حيوان جد مفيد للقيام بمهمات كثيرة للسكان وللجن » (١)

وانحنى سليمان ، دون أن يدرك تماما معنى هذا الشرح البسيط ، انحنى انحناءة ملك ينبغى أن يدرك كل شيء تماما ومد ابهامه وسبابته لمداعبة الطائر الهدهد . ولكن الطائر الذى قبل المداعبة رفض جهود سليمان فى الامساك به .

وقالت الملكة : ان الهدهد شاعر وهو لذلك جدير بمحبتك . وهو مثلى قاس بعض الشيء وكثيرا ما يحاول كذلك أن يكون مهذبا . أتظنه قد تجرأ على الشك فى صدق عاطفتك نحو سلاميت ؟

وأجاب سليمان : أيها الطائر الالهى كم تدهشنى !

ــ لقد قال الهدهد يوما وهو ينقر جوانا ذهبيا : « ان هذه المقطوعة الرعوية فى نشيد الأنشاد رقيقة بكل تأكيد . ولكن الملك العظيم الذى

---

(١) قصة الهدهد من أصل قرآنى (السورة ٢٧) ولكن القرآن يذكر انه طائر سليمان ولابد انه شغل مكانا كبيرا فى خيال جيرار فتصور هذه القصة وقلب الاوضاع بهذه الصورة . وهو هنا رمز للاعتراف بالجميل .

يوجه هذه الأنشودة الحزينة الشاكية الى زوجته ابنة فرعون ألم يكن يظهر لها مزيدا من الحب لو عاش معها عما أظهر لها وقد اضطرها الى العيش بعيدا عنه فى مدينة داود فاضطرت الى تسلية أيام شبابها المهجور بقرض مقاطيع الشعر ··· أجمل مقاطيع فى العالم قطعا ؟

ـ كم من الآلام تعودين فتصورينها لذاكرتى ! يا للأسف ان فتاة الليل هذه كانت من أتباع عقيدة ايزيس ··· أفكنت أستطيع ، دون أن أرتكب جرما ، أن أسمح لها بدخول المدينة المقدسة وأن أجعل منها جارة لخزينة الله وأن أقربها من هذا المعبد العظيم الذى أقيمه لاله آبائى ؟

قالت بلقيس مبدية ملاحظة صحيحة :

ـ ان مثل هذا الموضوع دقيق ، فلتقبل عذر الهدهد فان الطيور أحيانا ماتكون هوجاء · وطائرى يدعى العلم خصوصا فى مجال الشعر ·

فصاح سليمان بن داود قائلا :

ـ حقا ! سوف يهمنى معرفة ···

ـ انها مشادات قاسية يا مولاى ، أقسم لك أنها سوف تكون قاسية ! فان الهدهد يعيب عليك أنك قارنت بين جمال حبيبتك وجمال خيول مركبة الفراعنة ، وشبهت اسمها بالزيت المسكوب وشعرها بقطعان الماعز وأسنانها بنعاج عشر قد جز صوفها ، وخديها بنصف رمانة وثدييها بعنزتين صغيرتين ورأسها بجبل الكرمل وسرتها بكأس يجد المرء فيه دائما بعض الشراب وبطنها بكومة من الدقيق وأنفها ببرج لبنان المتجه نحو دمشق ·

وخدشت هذه الملاحظة كرامة سليمان فأسقط ذراعيه الذهبيتين على ذراعى مقعده الذهبيتين كذلك بينما أخذ الطائر يضرب الهواء بجناحيه المكسوين بريش من الذهب والميناء الخضراء · وقال سليمان :

ـ سوف أرد على الطائر الذى يحسن خدمة ميولك الساخرة بأن الذوق الشرقى يبيح هذه المسموحات وأن الشعر الحق يفضل هذه التشبيهات وبأن شعبى يجد أشعارى رائعة ويتذوق الاستعارات السخية ويفضلها ···

فاستطردت ملكة سبأ قائلة :

ـ ليس ثمة ما هو أشد خطرا على الأمم من استعارات الملوك فان هذه الأوجه البلاغية وقد خرجت على الأسلوب الوقور الجليل ، وربما تكون تتسم بالجرأة ، قد تجد من المقلدين أكثر مما تجد من النقاد ، وهكذا ربما أدت نزواتك السامية الى افساد ذوق الشعراء طوال عشرة آلاف عام . ألم تشبه سلاميت ، تحت تأثير دروسك ، شعرك بسعف النخل وشفتيك بكئوس تقطر صبرا وقامتك بقامة الأرز وساقيك بأعمدة من المرمر وخديك يا مولاى بأحواض صغيرة من الزهور عبقة الرائحة زرعها تجار العطور ؟ وهكذا فان الملك سليمان يبدو لى وكأنه رواق ذى أعمدة تحيط به حديقة نباتات معلقة فوق سطح تظلله أشجار النخيل .

وابتسم سليمان بشيء من المرارة . ولو طاوعته نفسه للوى عنق القنبرة التى كانت تنقر صدره فى مكان القلب باصرار عجيب .

وقالت الملكة : ان الهدهد يلح فى أن يبين لك أن مصدر الشعر يكمن هنا .

فأجاب الملك قائلا : انى لأشعر بذلك جيدا منذ أن أتيحت لى الفرصة السعيدة لتأملك . لنكف عن هذا الحديث . هل تقبل ملكتى تشريف خادمها المتواضع بزيارة أورشليم وقصرى وخصوصا المعبد الذى أقيمه للرب فوق جبل صهيون ؟

ـ لقد رن صدى هذه العجائب فى العالم . ولا يعادل روعتها الا شوقى لرؤيتها ولذا فلا ينبغى تأخير السعادة التى منيت بها نفسى .

وكان على رأس الموكب الذى أخذ يجوب شوارع أورشليم ببطء اثنان وأربعون من قارعى الطبول الذين كانت ضرباتهم تشبه صوت الرعد ويليهم الموسيقيون بملابسهم البيضاء يقودهم آصاف واديثم ثم ستة وخمسون من الصناجة وثمانية وعشرون من عازفى الناى ومثلها من عازفى الآلات الوترية والقيثارة ونافخى الأبواق تلك الآلات التى انتشرت فيما مضى حين استعملها جدعون تحت أسوار اريحا ثم تأتى بعد ذلك ثلاثة صفوف من الشمامسة الذين كانوا يمشون الهوينى وهم يؤرجحون مباخرهم فى الهواء وقد انبعثت منها عطور اليمن . أما سليمان وبلقيس فقد تهاديا فى عربة فسيحة يحملها سبعون من الفلسطينيين من أسرى الحرب .

وانتهت الجلسة وتفرق القوم وهم يتحدثون عن مختلف حوادث القصة وكان موعدنا هو اليوم التالى .

٣ - بيت الرب

واستأنف الراوى قصته قائلا :

كان سليمان العظيم قد أعاد بناء المدينة منذ قليل وفق خطة لا غبار عليها : فكانت الشوارع مستقيمة والبيوت مربعة وكلها متشابهة ، كانت كالخلايا ذات مظهر رتيب ٠

وقالت الملكة : فى هذه الشوارع الجميلة الفسيحة لابد أن نسيم البحر الذى لا يعوقه شىء يطيح بالمارة كما لو كانوا من القش كما أنه فى أوقات الحرارة الشديدة لابد أن الشمس التى تغرق هذه الشوارع دون عائق تلهبهم بحرارة كحرارة الأفران ٠ أما فى مأرب فان الشوارع ضيقة وتوجد بين كل بيت وآخر قطع من القماش نشرت على عكس اتجاه الطريق العام فتجذب النسيم وتنشر الظلال على الأرض وتحتفظ بالفىء ٠

فأجاب سليمان :

انكم بذلك تضحون بالتوازن الفنى ٠ هانحن قد وصلنا الى رواق قصرى الجديد الذى استغرق بناؤه ثلاثة عشر عاما ٠

وزارت ملكة سبأ القصر وأبدت اعجابها به ووجدته فخما مريحا طريفا ويتميز بذوق رائع ٠

وقالت الملكة :

« ان خطته رائعة ونظامه خليق بالاعجاب وأعترف أن قصر أجدادى الحميريين المشيد على الطراز الهندى بأعمدة مربعة تزينها وجوه بدلا من

رءوس الأعمدة لايضا هي هذه المتانة وهذه الأناقة · ان مهندسك فنان عظيم ·

فصاح سليمان فی فخر :

ـ اننی أنا الذی أصدرت جميع الأوامر ووجهت جميع العمال ·

ـ ولكن التفصيلات الهندسية من الذی رسمها ؟ من هو هذا العبقری الذی عرف كيف ينفذ خططك بكل هذا السمو ·

ـ انه شخص يدعى أدونيرام ، وهو شخص غريب شبه وحش نفور أرسله لی صديقی ملك صور ·

ـ ألا أستطيع رؤيته يا مولای ؟

ـ انه يتجنب الناس ويهرب من المديح · ولكن ماذا ستقولين أيتها الملكة حين تجربين بيت الرب ؟ انه ليس من عمل أی صانع فأنا الذی أمليت الخطط واخترت مواد البناء التی ينبغی استعمالها · ولقد كانت آراء أودنيرام محدودة أمام خيالی الشاعری ·

والعمل جار فی هذا البيت منذ خمس سنوات وهو يحتاج الى عامين آخرين لكی يصل الى درجة الكمال ·

ـ ان سبع سنوات تكفيك اذن لاقامة الهك فی مكان جدير به فی حين أنك احتجت لثلاثة عشر عاما لاقامة عبده ؟

قال سليمان معترضا :

ـ ان الزمن لا دخل له فی الموضوع ·

وبقدر ما أعجبت بلقيس بالقصر انتقدت بيت الرب فقالت :

ـ لقد أردت عمل شیء عظيم ولذا فقد حصل الفنان على حرية أقل · ان المشهد العام ثقيل بعض الشیء رغم أنه غاص بالتفاصيل ·· وقد أفرط فی استعمال الخشب ، خشب الأرز ، فی كل مكان والأعمدة الخشبية بارزة ··· والجوانب السفلی المغطاه بالخشب تبدو كما لو كانت تحمل الضغوط العليا للأحجار مما يشكك فی صلابة البناء ·

واعترض الأمير قائلا :

ـ ان هدفی كان الاعداد للروائع الداخلية بالنقيض البارز ·

فصاحت الملكة وقد وصلت الى السور الخارجى :

ـ يا الهى ! ما أروع هذه المنحوتات ! تلك تماثيل رائعة تمثل حيوانات غريبة ذات مظهر مهيب٠من ذا الذى صهر ونقش هذه العجائب ؟

ـ انه أودنيرام فالنحت أهم نواحى عبقريته ٠

ـ ان عبقريته واضحة فى كل شيء ٠ الا تماثيل الملائكة الأطفال هذه ثقيلة فانها جدا كما أنها شديدة التذهيب كبيرة الحجم بالنسبة لهذه القاعة التى تكاد تهدمها ٠

ـ لقد أردت ذلك وقد كلفنى كل منهما ستة وعشرين درهما كما ترين أيتها الملكة ! ان كل شيء هنا من الذهب والذهب هو أثمن ما فى الوجود ٠ والملائكة الأطفال من الذهب والأعمدة من الأرز ، وهى هدية من صديقى الملك حيرام ، قد غطيت برقائق من الذهب ويوجد ذهب على جميع الأعمدة وعلى هذه الجدران المذهبة سوف يوضع نخيل من الذهب وافريز برماناتمن الذهب الخالص ٠ وعلىطول الحواجز الذهبية سوف أعلق مائتى درع من الذهب النقى ٠ وكذلك فسوف تغطى الهياكل والموائد والشمعدانات وأوانى الزهور والأرضيات والأسقف جميعا برقائق من الذهب ٠٠٠

واعترضت الملكة قائله فى بساطة :

يبدو لى أن هذا الذهب كثير ٠

واستطرد الملك سليمان قائلا :

ـ « هل هناك ما هو أكثر روعة بالنسبة لملك الناس ؟ »

اننى شديد الرغبة فى ادهاش الأجيال القادمة ٠٠٠ ولكن لندخل الى قدس الأقداس الذى لم يرفع سقفه بعد حيث وضع أساس البيت فى مواجهة عرشى الذى أوشك أن يتم ٠ وكما ترين توجد ست درجات وقد صنع الكرسى من العاج ويحمله أسدان جلس تحت أقدامهما أثنا عشر شبلا ٠ ولا زال التذهب فى حاجة الى اللون البنى ونحن فى انتظار رفع المظلة ٠ تفضلى أيتها الأميرة الجليلة بأن تكونى أول الجالسين على هذا العرش الذى لم يسبق أن جلس عليه أحد ٠ ومن هنا تستطيعين التفتيش على الأعمال فى مجموعها ولو أنك سوف تتعرضين للشمس لأن الرواق مازال بلا سقف ٠

وابتسمت الأميرة وأمسكت بالهدهد فوق قبضة يدها حينما أخذ رجال البلاط يتأملونه فى حب استطلاع شديد ٠

وليس ثمة طائر أكثر شهرة ولا احتراما فى الشرق كله ٠
ولا يستمد هذا من دقة منقاره الأسود الطويل ولا من خديه الحمراوين ولا من رقة عينيه الرماديتين كالبندق ولا من التاج المكون من ريشات ذهبية صغيرة الذى يتوج رأسه الجميل ، وكذلك فان ذلك لا يستمد من ذيله الطويل الأسود الذى يشبه القهرمان الأسود ولا من البريق الأخضر الذهبى لجناحيه اللذين يعلوهما خطوط « وفرنشة » من الذهب البراق ، ولا من مخالبه الخلفية الوردية ولا قدميه القرمزيتين ٠ ليس لهذا كله تمتع الهدهد اللماح باعجاب الملكة وحاشيتها ٠ كانت هذه القنبرة جميلة دون أن تعرف ذلك وفية لسيدتها ودودة لكل من يحبهـا ولذا فكانت تتألق بســحر رائع دون محاولة منهـا لاجتذاب الاعجاب ٠ وقد رأينا كيـف تستشير الملكة هذا الطائر كلما أشكل أمر ٠

وقد أراد سـليمان اجتذاب ود الهدهد ولذا فقد حاول فى هـذه اللحظة الامساك به على قبضـة يده الا أن الهدهد قاوم هذه الرغبة ٠ وابتسمت بلقيس برقة واستدعت اليهـا طائرها المفضـل وأسرت اليه ببعض كلمات بصوت خافت ٠٠ وسرعان ما اندفع الطائر كالرمح واختفى فى الأفق الأزرق ٠

ثم جلست الملكة واصطف الجميع حولها وأخذوا يتحدثون لبعض الوقت ٠ وشرح الأمير لضيفته مشروع بحر الحديد الذى وضعه ادونيرام فاستشف الاعجاب بملكة سبأ وألحت من جديد فى أن يقدم اليها هذا الرجل ٠ وبناء على أمر الملك أخذوا يبحثون فى كل مكان عن الفنـان المكتئب أدونيرام ٠

وبينما كان الناس يغـدون الى ورش الحـدادة ويبحثـون عنه بين الأبنية أجلست بلقيس ملك أورشليم بالقرب منها وسألته عن الطريقة التى سوف يزخرف بها الجناح الخاص بعرشه ٠

وأجاب سليمان :

« سوف يزخرف كبقية أجزاء بيت الرب » ٠

فقالت الملكة :

« ألا تخشى أن تبدو بتفضيلك للذهب كما لو كنت تنتقد بقية المواد التى خلقها الله ؟ وهل تظن أن ليس فى الوجود ما هو أجمل من هذا

المعدن ؟ ولتسمح لى أن أضيف الى خطتك بعض التغيير .. وسوف تحكم أنت بنفسك عليه » .

وفجأة أظلم الجو وغطت السماء نقط سوداء أخذت تكبر وتقترب بعضها من بعض . انها غمامات من الطيور أخذت ترفرف فوق بيت الرب وتتجمع وتهبط دائريا وتتزاحم على بعضها البعض ثم تتوزع كما لو كانت أوراق شجر رائعة تهتز . كانت أجنحتها المفرودة تكون باقات سخية من ذات ألوان خضراء وقرمزية وسوداء وزرقاء . وهكذا انفرد هذا السرادق الحى تحت القيادة الماهرة للقنبرة التى كانت تطير وسط هذه الجموع المجنحة . وتكونت شجرة رائعة فوق رأسى الأميرين أصبح فيها كل طير يمثل ورقة . وذهل سليمان وانتشى طربا اذ وجد نفسه فى حمى من الشمس تحت هذا السقف الحى الذى ينبض ويتماسك بأن يضرب بأجنحته ويلقى على العرش ظلا كثيفا ينبعث منه أنغام رقيقة من أغاريد الطيور . وبعد ذلك أتت القنبرة التى كان الملك مازال يحمل لها بعض الموجدة ، أتت لتحط فى خضوع تحت أقدام الملكة .

وسألت بلقيس الملك قائله :

ـ مارأى مولاى فى ذلك ؟

وصاح سليمان وهو يحاول جذب القنبرة التى ظلت مبتعدة عنه فى اصرار يدل على نية لم يفتها أن تثير انتباه الملكة ، صاح قائلا :

ـ رائع !

وأردفت الملكة قائلة :

ـ اذا كانت هذه الفكرة قد حظيت باعجابك فانى أتشرف باهدائك هذا السرادق الصغير من الطيور بشرط أن تعفينى من طلائها بالذهب . ويكفيك أن تدير فص هذا الخاتم الى اتجاه الشمس حين يحلو لك أن تدعوها اليك ... ان هذا الخاتم ثمين وقد ورثته عن أجدادى سوف تنهرنى ساراهيل (١) مرضعتى حين تعلم أننى قد أهديته اليك .

وصاح سليمان وهو يركع أمامها :

ـ ايه أيتها الملكة العظيمة ! انك لجديرة بأن تحكمى الرجال والملوك والعناصر . ولتساعدنى السماء وما تتسمين به من طيبة قلب على حملك

(١) استقى نرفال هذا الاسم من « المكتبة الشرقية » لهربولو ولكن يقال أن ساراهيل هذه هى أم ملكة سبأ لا مرضعتها .

على قبـول نصـف عرش لن تجدى فيه تحت قدميـك الا أكثر رعاياك خضوعا ! »

فقالت بلقيس :

ـ « ان عرضك هذا فخر لى وسوف نتحدث عنه فيما بعد »

وهبط الاثنان من فوق العرش ومن ورائهما يتبعهما موكب الطيور الذى أخذ يتبعهما كالمظلة وهو يرسم على رأسيهما أشكالا مختلفة من الزخارف ٠

وحين الفيانفسيهما بالقرب من المكان الذى أرسى فيه أساس الهيكل لاحظت الملكة جذرا كبيرا لشجرة كرم انتزع من الأرض وألقى به جانبا ٠ وبدأ الشرود على وجهها وأتت بحركة تنم عن الدهشة وأرسلت القنبرة صيحات ألم وهربت غمامة الطيور مطلقة لأجنحتهـا العنان ٠ وتحولت نظرة بلقيس الى القسوة وبدت قامتها أكثر ارتفاعا » وقالت بصوت جاد متنبىء :

ـ يا لجهل الناس وخفتهم ! يا لتفاهة الغرور ! ٠٠ لقد بنيت مجدك على قبر آبائك ٠ ان جذر الكرم هذا ، هذا الخشب المبجل ٠٠٠

ـ لقد كان يضايقنا أيتها الملكة ٠ ولقد انتزع ليحل محله نوع من المرمر وخشب الزيتون سوف تزينه أربعة أسرفة (١) من الذهب

ـ لقد ارتكبت منكرا وحطمت أول نبت كرم عرفته البشرية ، وقد غرسته فيما مضى يد أبى الجنس السامى ، يد نبى الله نوح ٠

وأجاب سليمان وقد استبد به الخجل :

ـ أهذا ممكن ؟ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ بدلا من الاعتقاد بأن العظمة هى مصدر العلم رأيت عكس ذلك أيها الملك ! ولقد اتخذت من الدراسة دينا محببا ٠٠ واسمع كذلك أيها الرجل الذى أعمته عظمته الجوفاء : ان هذا الخشب الذى حكم عليه كفرك بالموت هل تعلم أى مصير خصته به القوة الخالدة ؟

ـ تكلمى

لقد خصص لصنع آلة تعذيب سوف يصـلب عليهـا آخر أمير من جنسك ٠

---

(١) جمع ساروف وهو ملك من الطبقة الاولى من الملائكة ٠

-- لينشر اذن هذا الخشب اللعين الى قطع صغيرة وليتحول الى رماد !

-- أيها المجنون ! من ذا الذى يستطيع مسح ما سطر فى كتاب الله ؟ وأى نجاح ستحققه حكمتك اذا حلت محل الارادة الالهية ؟ لتخر ساجدا أمام القرارات التى لا يستطيع عقلك المادى النفاذ اليها : ان هذا التعذيب الذى تفرضه على نفسك هو وحده الكفيل بانقاذ اسمك من النسيان وهو وحده الذى يجعل هالة من نور المجد الخالد تتألق فوق بيتك .. »

وحاول سليمان العظيم عبثا اخفاءاضطرابه تحت مظهر من الاستهزاء والسخرية حين قدم اليه أناس يعلنون أنهم عثروا أخيرا على المثال أدونيرام .

وما لبث أودنيرام تتبعه صيحات الجموع أن ظهر فى مدخل البيت وكان بنونى يصحب أستاذه وصديقه الذى كان يتقدم وقد توهجت عيناه وبدا القلق على وجهه وشاعت الفوضى فى مظهره كفنان انتزع فجأة من ايحاءاته وأعماله . ولم يكن ثمة أثر لحب الاستطلاع يضعف التعبير القوى النبيل لملامح هذا الرجل الذى ينبعث تأثيره الأقوى من الطابع الجاد الجسور المسيطر لسمات وجهه الجميلة لا من بنيان جسمه الكبير .

وتوقف فى ارتياح وفخر على بعد خطواط من بلقيس وهو لا يشعر لا بعدم الكلفة ولا بازدراء . ولم تستطع بلقيس أن تتحمل نظرته الحادة دون الشعور ببعض الحياء والاضطراب .

ولكنها مالبثت أن تغلبت على هذا الاضطراب اللا ارادى . واعادها التفكير السريع فى حالة هذا العامل الأصيل الماثل أمامها بذراعيه العاريتين وصدره المكشوف الى نفسها . وابتسمت لما بدا عليه من حيرة وقد ازدهت لشعورهما بأنها مازالت شابة ، وتنازلت بالحديث الى هذا الصانع .

وأجاب أودنيرام وأثر صوته فى الملكة كما لو كان صدى لذكرى شاردة . ومع ذلك فلم تعرفه ولم تره من قبل قط .

تلك هى قوة العبقرية التى تعبر فيها جمال النفوس . فالنفوس تتعلق بها ولا تستطيع عنها سلوا . لقد أنسى حديث أدونيرام أنسى ملكه سبأ كل ما يحيط بها . وبينا كان الفنان يريها الانشاءات التى كان يقوم بها وهو يسير فى خطى وئيدة كانت بلقيس تتبع فى غفلة منها حركته الدافعة كما كان الملك والحاشيه يتبعون آثار خطى تلك الملكة الساحرة .

ولم تتعب هذه الأخيرة من القاء الأسـئلة الواحد تلو الآخر الى أدونيرام حول أعماله الفنية وبلده ومولده ٠٠٠

وأجاب أدونيرام بشيء من الحرج وهو يرسل اليها نظراته النفاذه : لقد جبت بلادا كثيرة ٠ وان وطنى يوجد فى كل مكان تضيئه الشمس ٠ ولقد قضيت سنى حياتى الأولى فى السفوح الشاسعة لجبل لبنان حيث تلمح من بعيد مدينة دمشق فى قلب السهل ٠ لقد نحتت الطبيعة والناس هذه الأقطار الجبلية التى تبرز فيها الصخور المهددة والأطلال ٠

وقالت الملكة ملاحظة :

ـ ان أسرار هذه الفنون التى تتقنها لا يتعلمها المرء مطلقا فى هذه الصحارى ٠

ـ ان فيها على الأقل يرتفع الفكر وتتنبه المخيلة ٠ ولطول ما ينغمس المرء فى الاستغراق يتعلم كيف يبتكر ٠ ان أستاذى الأول كان الوحدة ٠ ولقد طبقت تعاليم هذا الأسـتاذ فيما بعد فى أسـفارى ٠ وقد أدرت أنظارى نحو ذكريات الماضى وتأملت الآثار وهربت من مجتمع الناس ٠٠

ـ ولماذا أيها الأستاذ ؟

ـ ان الانسان لا يشعر بأى متعة فى رفقة أمثاله ٠٠٠ ولقد كنت بينهم أشعر أننى وحدى ٠

وتأثرت الملكة بهذا الخليط من الحزن والعظمة فغضـت أنظارها ولاذت بالصمت ٠

وأردف أدونيرام قائلا :

ـ وكما ترين فان فضلى فى ممارسة الفنون ليس كبيرا ، فان تعلم هذا الفن لم يكلفنى أى جهد ٠ وقد عثرت على أصول تماثيلى فى الصحارى ، وكنت أصـور الانطباعات التى تلقيتها من هـذه المخلفات المجهـولة ومن الوجوه المروعة الضخمة لآلهة العالم القديم ٠

وقاطعه سليمان قائلا فى حزم لم تشهده الملكة عليه حتى الآن :

ـ لقد لاحظت عليك أكثر من مرة أيها الأستاذ اتجاها الى الوثنية ، ذلك الايمان القوى بآثار ديانة غير طاهرة ٠ احتفظ بأفكارك لنفسك ولا تدع شيئا منها يسطر للملك على البرونز أو الأحجار ٠

وقتل أدونيرم وهو ينحنى ابتسامة مريرة كانت تراوده ٠

وقالت الملكة مواسية أدونيرام :

ــ ان أفكار الأستاذ يا مولاى ترتفع دون شك فوق الاعتبارات الكفيلة باقلاق ايمان اللاويين (١) ... وان نفس الفنان فيه تقول ان الجمال يبدى عظمة الله ، وهو يبحث عن الجمال فى ايمان برىء .

وقال أدونيرام :

ــ وهل أعلم أنا ماذا كانت هذه الآلهة فى أزمنتها ، هذه الآلهة التى انطفأت وتحجرت بفعل الجن فيما مضى ؟ ومن ذا الذى يفكر فى هذا ؟ لقد طلب منى سليمان ملك الملوك أن أفعل المعجزات وكان لابد لى من أن أتذكر أن اجداد العالم قد خلقوا المعجزات .

وقالت الملكة فى حماس :

ــ اذا كانت أعمالك الفنية جميلة وسامية فستكون أرثوذكسية (٢) وسوف تنقلها عنك الأجيال القادمة لتكون أرثوذكسية بدورها .

ــ أيتها الملكة العظيمة ، العظيمة حقا ، ان ذكاءك خالص كجمالك .

وسارعت بلقيس بمقاطعته قائلة :

ــ لقد كانت هذه المخلقات عديدة اذن على سفح لبنان ؟

ــ كانت ثمة مدن بأكملها مطمورة فى كفن من الرمال التى تثيرها الرياح حينا وتهبط بها حينا آخر . ثم كانت ثمة آثار تحت الأرض تتسم باتقان يفوق قوة البشر ولا يعلم سواى عنها شيئا . كنت أعمل من أجل طيور الهواء ونجوم السماء فكنت أجوب الآفاق وأنا أخط أشكالا فوق الصخور .

ــ ثم أنحتها فى مكانها بدقة وأحكام . وذات يوم ... ولكن ألا أسيء استغلال صبر مستمعى العظيمين ؟

ــ كلا فان هذه القصص تأسرنى .

ــ لقد اهتزت الأرض بضربات مطرقتى التى كانت تغمد سلاحها فى أحشاء الصخر وكانت تبدو تحت أقدامى رنانة جوفاء . ولما كنت أحمل رافعة فقد دحرجت الكتلة الصخرية التى كشفت عن مدخل غار

---

(١) الذين ينتمون الى سبط (قبيلة) لادى — اى اليهود

(٢) اى متمشية مع الدين .

سارعت بالاندفاع اليه . لقد كان منحوتا فى الصخر الحى ومحمـلا على أعمدة ضخمة مثقله بالبروز والرسوم الغريبة .

وكانت أعالى الأعمدة بمشـابة جذور لثنايا أكثر القباب دقة فى التنفيذ . وخلال أقواس اعمدة هذه الغابة الحجرية انتشرت جوقات من الوجوه المتنوعة الهائلة الحجم كانت تقف ساكنة بلا حراك وهى تبتسم منذ آلاف السنين . كان مرآها يملؤنى بالرعب المذهل . كانت تمثل رجالا وعمالقة اختفوا من عالمنا وحيوانات رمزية تنتمى الى سلالات انقرضت . وباختصار كان بها كل ما تحلم به مخيلة تهذى وكل ما تستطيع بالكاد أن تتصوره من روائع ! ... ولقد عشت ثمة أشهرا بل وسنوات أسائل هذه الأشباح الباقية من عالم انقضى وهناك تلقيت تقاليد فنى وسط هـذه الروائع للعبقرية البدائيه .

وقال سليمان وهو شارد الذهن :

ـ لقد وصلت شهرة هذه الأعمال الفنية التى لا تحمل اسما الينا ويقال أن هناك فى الأقطـار التى حلت عليهـا اللعنة تبرز بقايا المدينة الفاسقة التى غمرتها مياه الطوفان وآثار المجرمة هينوشيا .. التى بنتها سلالة طوبال (١) العملاقة . انها مدينة أبناء قابيل . لتحل اللعنة على هذا الفن القائم على الكفر والظلمـات ! ان معبدنا الجديد يعكس أضـواء الشمس ، وخطوطه بسيطه نقية ويترجم نظام خطته ووحدتها استقامة عقيدتنا التى تصل حتى الى طراز هذه البيوت التى أقيمها للاله الخالد . تلك هى ارادتنا ، انها ارادة الله الذى نقلها الى أبى .

وصاح أدونيرام بصوت مستوحش :

ـ لقد اتبعنا خططك فى جملتها ، وسـوف يتعرف الله فيهـا على طاعتك له . وقد أردت فيما عدا ذلك أن يدهش العالم لعظمتك .

ـ أيها الرجل الماهر الدقيق ، انك لن تحاول قط المساس بمولاك ومليكك . انك لهذا الغرض قد ذوبت سـبائك هذه المسـخ التى تثير الاعجاب والارتياع ، هذه الأوثان العملاقة الثائرة ضد جميع الصور التى أقرتها الشعائر العبرانية . ولكن خذ حذرك فان قوة ادوناى معى وسوف تحيل قدرتى الغاضبة ستحيل « بعل » ترابا .

---

(١) الذى اكتشف فن صناعة الحديد .

وأردفت ملكة سبأ قائلة في رقة :

ــ « كن متسامحا أيها الملك نحو صانع الأثر الذى سوف يخلد عظمتك ٠ فالقرون تمر والمصير البشرى يكمل تقدمه طبقا لارادة الخالق ٠ فهل ينكر المرء الله حين يفسر أعماله بمزيد من السمو ؟ وهل يتحتم على الفنان أن يظل الى الابد يصور الوجوه الدينية الباردة التى لا حياة فيها التى نقلها الينا المصريون ونترك التمثال الذى يختفى لمنتصفه في قبره الجرانيتى الذى لا يستطيع منه فكاكا ونصور عبقريات راسفة فى العبودية قد ارتبطت الى الأحجار بالسلاسل ؟ ينبغى لنا أيها الأمير العظيم أن تخشى وثنية الروتين كأداة نفى خطرة » ٠

وقد استاء سليمان لمعارضتها اياه الا أن ابتسامة الملكة الساحرة قد أخضعته فتركها توجه مجاملاتها الحارة الى الرجل العبقرى الذى يعجب به هو نفسه ، بشيء من الحقد ، والذى كان يتلقى مدائحها بنشوة جديدة كل الجدة وهو الذى كان فى العادة لا يأبه للمدح ٠

وكانت الشخصيات العظيمة الثلاث قد وصلت الى الرواق الخارجى للمعبد المشيد على هضبة مرتفعة ذات زوايا أربع يشرف المرء منها على ريف شاسع تتخلله الكثير من المرتفعات ٠ وكانت ثمة جموع غفيرة تغطى من بعيد الريف ومشارف المدينة التى شيدها داود ٠ فقد احتشد الشعب على مشارف القصر والمعبد ليرى ملكة سبأ ويعجب بها من قريب أو من بعيد ٠ وكان عمال البناء قد غادروا محاجر جلبعا والنجارون قد أخلوا الورش البعيدة وصعد عمال المناجم الى سطح الأرض ٠ ان صيحة الشهرة وهى تمر على الجهات المجاورة قد حركت سكانها العمال وجعلتهم يتجهون نحو مركز أعمالهم ٠

لقد كانوا هنا اذن جموعا مختلطة من النساء والأطفال والجنود والتجار والعمال والعبيد والمواطنين الميسورين فى أورشليم ٠ كانت السهول والوديان لا تكاد تكفى هذه الجمهرة الشاسعة ٠ وامتدت عين الملكة فى دهشة الى أبعد من مسافة ميل على هذه الفسيفساء المكونة من الرءوس البشرية والتى تتدرج حتى قمة الأفق ٠ وكانت السحب التى تحجب هنا وهناك الشمس التى تغرق هذا المشهد تلقى على هذا البحر الحى بعض غطاءات من الظل ٠

وقالت الملكة بلقيس :

« ان شعوبك أكثر عددا من حبات رمل البحر ٠٠٠

ـ ثمة أناس من جميع البلدان وقد هرعوا لرؤيتك · ومما يدهشنى ألا يهرع العالم كله اليـوم ليحف بأورشليم ! لقـد هجر الناس الريف بفضـلك وأصبحت المـدينة خاوية · حتى عمال الأستاذ أدونيرام الذين لا يدركهم التعب ···

وقاطعته أميرة سبأ قائلة وهى تبحث فى ذهنها عن طريق تكرم بها الفنان :

ـ حقا ! ان مثل عمال أدونيرام يعتبرون أساتذة فى بلاد أخرى · انهم جنود لهذا القائد « للميليشيا » الفنية · اننا نرغب يا أستاذ أدونيرام فى استعراض عمالك وتهنئتهم وتوجيه الثناء اليك فى حضورهم » ·

ورفع سليمان الحكيم ذراعيه فوق رأسه فى ذهول لدى سماعه لهذه الكلمات وصاح قائلا :

« كيف نجمع عمال بيت الرب وقد تفرقوا فى الحفل وتشتتوا فوق التلال واختلطوا بالجماهير ؟ ان عددهم كبير جدا وعبثا نحاول أن نجمع فى بضع ساعات كل هؤلاء الرجال وهم من بلاد مختلفة ويتكلمون لغات عديدة ابتداء من اللغـة السنسكريتية فى جبال هيمالايا الى اللهجـات الغامضة التى يتكلم بها أهل ليبيا ·

وقال أدونيرام فى بساطة :

ـ لا عليك من هذا يا مولاى ! ان الملـكة لا تطلب شـيئا مستحيلا وتكفينا بضع دقائق ·

وبهذه الكلمـات أسـند أدونيرام ظهره على الباب الخارجى واتخذ لنفسه قاعدة من كتلة من الجرانيت قريبة واتجه نحو هذه الجموع الغفيرة فسرح بصره فوقها · وأتى باشارة شخصت لها جميع أمواج هذا البحر لأنهم جميعا رفعوا وجوههم نحوه ·

وأصاخت الجموع السـمع فى حب اسـتطلاع ··· ورفع أدونيرام ذراعه اليمنى وبيده المبسوطة رسم فى الهواء خطأ أفقيا أسقط من وسطه عمودا راسما هكذا زاويتين قائمتين كما يحدث لو أنزل خيط مثقل بقطعة من الرصاص معلق على مسطرة ، وهى اشارة يرسم بها السوريون حرف T الذى نقل الى الفينيقيين بواسطة شعوب الهند · الذين أطلقوا عليه اسم تاء ثم تعلمه اليونانيون وأسموه تو ·

ولما كان الحرف T يدل في هذه اللغات القديمة بسبب تجانسها مع الهيروغليفية على بعض ادوات مهنة البناء ، فقد كان هذا الحرف اشارة الى التجمع ٠

ولذا فلم يكد أدونيرام يخط هذا الحرف فى الهواء حتى ظهرت حركة غريبة فى جموع الشعب ٠ واهتز ذلك الخضم البشرى واضطرب وعلت الأفواج فى اتجاهات مختلفة كما لو كانت زوبعة من الريح قد أشاعت فيه الاضطراب فجأة ٠ ولم يزد الأمر باديء ذى بدء عن ارتباك عام وجرى كل فرد فى اتجاه مضاد ٠ ثم لم تلبث الجماعات أن تكونت وكبرت وتفرقت وحدثت فراغات وانتظمت جوقات وتراجع جزء من الجموع واصطف آلاف من الناس تحت قيادة قادة مجهولين كما يصطف الجيش وتوزعوا فى ثلاث كتل رئيسية تنقسم كل منها الى كتائب متميزة كثيفة وعميقة ٠

وبينما كان سليمان يحاول أن يستشف ذلك السلطان السحرى للفنان أدونيرام اهتز كل شيء ٠ وتقدم مائة ألف رجل اصطفوا فى لحظات تقدموا فى صمت من ثلاث جهات فى وقت واحد ٠ وأحدث وقع خطواتهم الثقيلة المنتظمة أصداء قوية فى هذه الجهات ٠

وكان البناءون وكل من يعملون فى الحجارة يظهرون فى الوسط وكان رؤساء العمال فى الصف الأول يليهم العمال المتمرنون ثم العمال تحت التمرين ٠ والى اليمين وفى نفس التدرج المهنى سار قاطعوا الأخشاب ثم النجارون والنشارون فنحاتو الحجارة ٠ والى اليسار سار صاهرو المعادن والنقاشون والحدادون وعمال المناجم وكل من يعملون فى صناعة المعادن ٠

كان عددهم يزيد على مائة ألف صانع أخذوا يقتربون كما لو كانوا أمواجا عارمة تطغى على الشاطيء ٠

وارتاع سليمان وتراجع خطوتين أو ثلاث ثم استدار ولم ير خلفه الا الموكب الضعيف البراق الذى يتكون من ربانية ورجال بلاطه ٠

أما أدونيرام فقد وقف فى هدوء وصفاء بالقرب من الملكين ٠ ومد ذراعه فتوقف كل شيء وانحنى فى خضوع أمام الملكة وقال :

« لقد تم تنفيذ أوامرك »

وأوشكت الملكة على الانحناء أمام تلك القدرة الخفية الهائلة وذلك لفرط ما بدا لها أدونيرام ساميا فى قوته وبساطته ٠

ومع ذلك فقد تماسكت وباشـارة من يدها حيث كتائب العمـال المجتمعة • ثم نزعت من عنقها عقدا رائعا من اللؤلؤ تزينه مجموعة متألقة كالشمس من الأحجار الكريمة ويحف به مثلث من الذهب كزينة رمزية ، وبدت كما لو كانت تهديه لتلك الجماعات المهنية • وتقدمت نحو أدونيرام الذى شعر وهو ينحنى أمامها ، شـعر وهو يرتعد بهـذه الهبة الثمينة تسقط على كتفيه وصدره نصف العارى •

وفى تلك اللحظة نفسها دوى هتاف كبير من أعماق الجموع ليرد على هذه اللفته الكريمة من قبل ملكة سبأ • وحينما كانت رأس الفنان قريبة من وجه الأميرة المتألق وصدرها النابض قالت له بصوت خفيض : « أيها الأستاذ ، اسهر على سلامتك وكن حذرا » •

ورفع أدونيرام نحوها عينيه الكبيرتين المأخوذتين ودهشـت بلقيس للرقة النفاذة التى تتسم بها تلك النظرة الفخورة •

وتساءل سليمان وهو يحلم : « من يكون هذا الانسان الذى يسيطر على الناس كما تسيطر الملكة على الطير ؟ •• ان اشارة من يده تخلق الجيوش • ان شعبى ملك له أما سلطانى فيقتصر على قطيع تافه من رجال البلاط والربانيين • وتكفى حركة من حاجبه ليصبح ملكا على اسرائيل » •

وحالت هذه المشاغل دون سليمان وملاحظة هيئة بلقيس وهى تتبع بنظراتهـا الرئيس الحقيقى لهـذه الأمة ، ملك الذكاء والعبقرية والحكم المسالم الصبور لمصائر شعب الله المختار •

وساد السكون على طريق العودة فقد تبين سليمان الحكيم وجود الشعب •• وهو الذى كان يظن أنه يعلم كل شىء ومع ذلك فلم يشعر قط بوجوده • وهكذا ألفى نفسه قد ضرب فى ساحة نظرياته الفلسفية وهزمته ملكة سبأ التى تحكم مملكة الطير وهزمه فنان يسيطر على الناس • وتنبأ صاحب سفر الجامعة بالمستقبل وأخذ يتأمل مصـائر الملوك وهو يقول : « ان هؤلاء الصديقين الذين كانوا من قبل معلمين لى وناصحين وأصـبحوا اليوم مكلفين بمهمة احاطتى علما بكل شىء قد اخفوا عنى كل شىء بل وأخفوا عنى جهـلى • يا لثقة الملوك العميـاء ! يا لغرور الحكمة ! ••• يا للغرور ! يا للغرور ! » •

وبينما كانت الملكة هى الاخرى مستغرقة فى أحلامها عاد أدونيرام الى ورشته وقد استند دون كلفة على تلميذه بينونى وقد أسكره الحماس لجمال الملكة بلقيس وذكائها الذى لا مثيل له •

الا أن الفنان كان لائذا بالصمت أكثر من أى وقت مضى · لقد كان شاحبا مضطرب الانفاس وكان يضغط أحيانا بيده المنقبضة على صدره العريض · ولما عاد الى معبد أعماله حبس نفسه فيه وحيدا وألقى نظراته على هيكل تمثال ووجده رديئا فحطمه ·· وأخيرا سقط محطما على مقعد من خشب البلوط وأخفى وجهه بيديه وصاح بصوت مختنق : « أيتها الالهة الرائعة المروعة ! ··· يا للأسف ! لماذا شاءت المقادير أن ترى عينى لؤلؤة العرب هذه » ·

٤ ـ ميللو

رأى الملك سليمان أن يحتفى بملكة سبأ فى ميللو ، وهو بيت ريفى يقع على قمة أحد التلال حيث يبدو وادى يهوشافاط فى أوج اتساعه· ان كرم الحقول يعبر عن ود قلبى أكبر كما أن برودة المياه وروعة الحدائق والظلال الوارفة لأشجار الجميز والتمرهندى والغار والسرو والاكاسيا والتربنتينا تثير فى القلب المشاعر الرقيقة · وكذلك كان سليمان يحب أن يفخر ببيته الريفى · ثم ان الملوك عادة يفضلون الانتحاء جانبا بنظرائهم والاحتفاظ بهم لأنفسهم على أن يتعرضوا معهم لتعليقات شعوب عواصمهم ·

فى الوادى الأخضر كانت القبور البيضاء منشرة هنا وهناك تحميها أشجار الزان والنخيل · وثمة ترى السفوح الأولى لوادى يهوشافاط · وقال سليمان لبلقيس :

ـ « أى موضوع أجدر بالتأمل بالنسبة لملك مثلى من مشهد نهايتنا المشتركة ! فهنا بقربك أيتها الملكة أجد اللذة وربما السعادة وهناك العدم والنسيان » ·

ـ « ان الانسان ليجد الراحة من عناء الحياة فى تأمل الموت » ·

ـ « أما فى تلك الساعة ياسيدتى فانى أخشاه ، فهو يفرق ·· وأتمنى ألا أتعلم فى وقت مبكر جدا أنه يؤاسى ! » ·

وألقت بلقيس نظرة عابرة على مضيفها ورأته متأثرا تأثرا حقيقيا · وبدا لها جميلا وقد ارتسمت عليه أضواء المساء ·

وقبل الدخول الى قاعة الاحتفال شاهد الضيفان العظيمان البيت على انعكاسات الغروب واعجبا به واستنشقا عبير أشجار البرتقال التى كانت تعطر فراش الليل ·

وقد شيد هذا البيت الهوائى طبقا للذوق الشامى • فقد حملته غابة من الأعمدة الصغيرة الرفيعة وشمخ فى السماء بأبراجه المكشوفة وأروقته المصنوعة من خشب الأرز والتى تغطيها النقوش الخشبية البراقة • وكانت الأبواب المفتوحة تكشف عن ستائر من قطيفة صور وارائك ناعمة نسجت حرائرها فى الهند وورود منحوتة ومطعمة بالأحجار مختلفة الألوان وأثاثات من خشب الليمون والصندل وأوانى زهور من ذهبية وأحواض للنافورات من المرمر الأخضر أو الميناء الزرقاء مليئة بالزهور، وحوامل فضية ذات أرجل ثلاث يتصاعد من فوقها دخان عود الند والصبر والمبان الجاوى ولبلابات تعانق الأعمدة وتنتشر على الجدران • وكان هذا المكان الساحر يبدو كما لو كان قد خصص للحب • الا أن بلقيس كانت عاقلة وحذرة ، وكان عقلها يحميها من اغراءات الاقامة فى بيت ميللو الساحر •

وقال سليمان :

— « ان الحياء لا ينقصنى وأنا أجوب هذا القصر الصغير • فمنذ شرفته بمقدمك وهو يبدو فى عينى وضيعا • ولا شك أن البيوت الريفية لأهل حمير أكثر فخامة » •

— «لافى حقيقة الأمر • ولكن فى بلادنا تصنع أرفع الأعمدة والنقوش التى تصب فى القوالب والوجوه الصغيرة وبيوت المصابيح أو الاجراس الصغيرة المكشوفة تصنع من المرمر • اننا نستعمل الأحجار فيما لا تستعملون أنتم فيه الا الخشب • وفوق ذلك فان أجدادنا لم يطلبوا المجد عن طريق نزوات لاجدوى وراءها • فقد أتموا عملا سوف يكفل الخلود والبركات لذكراهم » •

— « وما هو هذا العمل ؟ فان قصة الأعمال الكبيرة تثير الفكر » •

— « ينبغى الاعتراف أولا بأن اليمن السعيد الخصيب كان فى أول الأمر قاحلا مجدبا • فان السماء لم تنعم على هذا البلد لا بالأنهار الكبيرة ولا الصغيرة • ولقد تغلب أجدادى على الطبيعة وانشئوا جنة عدن وسط الصحارى •

— « قصى على أيتها الملكة خبر هذه المعجزات » •

— « فى قلب سلاسل الجبال الشاهقة التى ترتفع فى الجهات الشرقية من بلادى والتى تقع على سفحها مدينة مأرب كانت جداول السيول تتلوى هنا

وهناك وتتبخر فى الجو وتفقد فى الأغوار وفى أعماق الوديان قبـــل أن تصل الى السهل الذى أجدب تماما ٠

وقد توصل ملوكنا القدماء بفضل عمل استمر قرنين من الزمان الى تجميع كل مجارى الميـاه هذه فوق هضبة تبلغ مســاحتها فراسخ عديدة حفروا فيها حوضا لبحيرة تسير السفن على صفحتها اليوم كما لو كانت فى أحد الخلجان ٠ وكان لابد من سند الجبـال المنحدرة بواسطة دعامات من الجرانيت أعلى من أهرام الجيزة تعلوها قباب عمـلاقة تتجول عليها جيوش من الفرسان والأفيال فى سهولة ويسر ٠ ويندفع هذا السد الهائل الذى لا ينضب فى شلالات فضية فى مجار وترع واسعة تنقسم الى قنوات عديدة تحمل المياه خلال السهول وتروى نصف بلادنا ٠ وانى لمدينة لهذا العمل السامى بالزراعات الفنية والصناعات الخصـيبة والمراعى العديدة والأشـجار المعتقة والغـابات العميقة التى تتكون منها ثروة بلاد اليمن وسحرها ٠ هذا هو يا مولاى سدنا الفولاذى دون اقلال لحوضكم الفولاذى الذى يعتبر اختراعا رائعا » ٠

وصاح سليمان قائلا :

ـ « يا للفكرة النبيلة ! وكم أكون فخورا بتقليدها لو أن الله فى سماحته الواسعة لم يمنحنا مياه الأردن الوفيرة المباركة » ٠

وأضافت الملكة قائلة :

ـ « لقد اجتزته بالأمس ٠ وكانت المياه تصـــل تقريبا حتى ركب ابلى » ٠

وقال الحكيم :

ـ « من الخطر قلب نظام الطبيعة وخلق حضـــارة مصطنعة وتجارة وصناعات وشعوب ترتبط مصائرها بمصير عمل من صنع البشر كل ذلك دون ارادة يهوا ٠ ان بلاد اليهود قاحلة ولا يسكنها أكثر ممن تســتطيع هى اطعامهم وفنونهم نتيجة طبيعية للأرض والمناخ ٠ فاذا هدم سدكم ، تلك الكأس المنحوتة فى الجبال ، واذا ما انهارت منشــئاتكم العملاقة ، وسوف يحدث هذا يوما ما ٠٠ فان شعوبكم ستحيق بها لعنة الحرمان من الماء وسوف تموت محترقة من الشمس أو تنهشها المجاعة وسط هـــذه الزراعات المصطنعة » ٠

وأخذت بلقيس للعمق الواضح لهذا التفكير فاستغرقت فى تفكير عميق ٠

واستطرد الملك قائلا :

ـ « انى منذ الآن على يقين من ذلك . فان الروافد النابعة من الجبال تحفر مجار لها وتحاول الخلاص من الحجارة التى تمسك بها كالسجين فلا تكف عن نحتها . والأرض عرضة للزلازل والزمن ينتزع الصخور من جذورها وتتسرب المياه وتهرب كالحيات . وفيما عدا ذلك فان بحيرتكم الرائعة التى أفلحتم في حفرها فى الصحراء سيكون من المستحيل اصلاحها وقد حملت بكل هذه الكمية من المياه . أيتها الملكة ! ان اجدادك قد خلفوا لشعوبهم مستقبلا محدودا ككومة من الحجارة . ان الجدب كان كفيلا بأن يثير اجتهادهم ويجعلهم يستفيدون من التربة التى سوف يموتون فيها بسبب الفراغ والبلادة مع ظهور الأوراق الأولى للأشجار التى سوف تكف القنوات يوما عن الوصول الى جذورها . لاينبغى أبدا تحدى الله أو اصلاح أعماله فان كل ما يعمله حسن » .

وأردفت الملكة قائلة :

ـ « ان تلك الحكمة مستقاة من دينك بعد أن خففت نظريات الصديقين الفلسفية المعتمة من تأثيره . انهم لا يهدفون الا الى تجميد كل شىء والى فرض الطفولة الدائمة على المجتمع وفرض الوصاية على استقلال البشرية هل قام الله بحرث الحقول وزراعتها ؟ هل أسس الله المدن وبنى القصور ؟ هل وضع الحديد فى متناول يدنا والذهب والنحاس وجميع هذه المعادن التى يتصاعد منها الشرر فى هيكل سليمان ؟ كلا ! لقد وهب مخلوقاته العبقرية والنشاط . انه يبتسم اذ يرى الجهود التى نبذلها ويتعرف من خلال منجزاتنا المحدودة على ذلك الشعاع من روحه الذى أضاء لنا به عقولنا . فحينما تظن أن ذلك الاله غيور فانك تحد من قدرته التى لا نهاية لها وتتحدى مواهبك وتصيب مواهبه بالمادية . أيها الملك ! ان أحكام دينك سوف تفسد يوما ما تقدم العلوم وانطلاق العبقرية . وحينما يصغر شأن الناس فسوف يصغرون من شأن الله بما يناسب أحجامهم وسوف ينتهى بهم الأمر الى نكرانه » .

وابتسم سليمان ابتسامة مرة وقال :

ـ « تلك أفكار دقيقة ، دقيقة ولكنها تمويهية .. » .

وأردفت الملكة قائلة :

ـ « وعلى ذلك فلا تتنهد حين أضع أصبعى على موضع جرحك الخفى . انك وحيد فى هذه المملكة وأنت تتعذب . ان آراءك نبيلة وجريئة ويرتكز التكوين الطبقى لهذه الامه على جناحيك . انك تقول لنفسك (وهذا قليل بالنسبة لك) : سوف أترك للأجيال القادمة تمثال ملك كبير جدا لشعب صغير جدا ! أما فيما يختص بمملكتى فالأمر جد مختلف .. فقد نسى أجدادى أنفسهم حتى يكبر رعاياهم . لقد توالى ثمانية وثلاثون ملكا كل منهم يضيف بعض الحجارة الى البحيرة والى قنوات مأرب . فاذا نسيت الأحقاب القادمة أسماءهم فيكفى أن هذا العمل سوف يستمر فى تمجيد قوم سبأ . ولو حدث يوما وانهار واستعادت الأرض الشحيحة انهارها ونهيراتها فان أرض بلادى وقد اخصبها ألف عام من الزراعة سوف تستمر فى انتاج الأشجار الكبيرة التى تستمد منها سهولنا الظليلة الرطب وتحتفظ بالفىء وتحمى العيون والينابيع وسوف يحتفظ اليمن الذى اقتطع من قديم الزمان من الصحراء ، وسوف يحتفظ الى أبد الدهر باسمه العذب : بلاد العرب السعيدة .. لو كنت أكثر حرية لصرت عظيما من أجل مجد شعوبك وسعادة رعاياك » .

ـ « انى لأدرك تلك الأمانى التى تدعين روحى اليها .. لقد فات الأوان . ان شعبى غنى ويوفر له الغزو أو الذهب مالا توفره له بلاد اليهود . أما فيما يختص بخشب البناء فقد شاء بعد نظرى أن يبرم الاتفاقيات مع ملك صور . ان أرز لبنان وزانها يملأ مصانعى وتنافس سفننا فى البحار سفن الفينيقيين » .

وقالت الأميرة فى حزن سليم الطوية :

ـ « انك تعزى نفسك بعظمتك لادارتك التى تتسم بالعناية الأبوية » .

وتلت هذه الفكرة فترة من الصمت . وأخفت الظلمات الكثيفة التأثر الذى انطبع على ملامح سليمان الذى تمتم بصوت رقيق :

« ان روحى قد تسربت الى روحك وتبعها قلبى » .

واضطربت بلقيس نصف اضطراب وألقت حولها نظرة خفية وكان رجال البلاط قد انتحوا جانبا . وكانت النجوم تتلألأ فوق رأسيهما من خلال أوراق الأشجار وتنثر عليها زهورا ذهبية . وكان نسيم الليل المحمل بعبير الزنبق والسوسن واللقاح يرسل ترانيمة وسط أغصان

الرند الكثيفة . لقد أصبح لعبير الأزهار صوت وأصبح للنسيم أنفاس عطرة . وكانت الحمائم ترسل أناتها من بعيد وخرير المياه يصحب هذه الجوقة الموسيقية الطبيعية . وكان الذباب البراق والفراشات الملتهبة ببريقها المخضر تجوب الجو الدافىء الملىء بالعواطف والنشوة . وشعرت الملكة بأن قد أخذتها نشوة طويلة مسكرة وكان صوت سليمان الحنون ينفذ الى قلبها ويأخذها تحت سلطان سحره .

هل كان سليمان يعجبها أم أنها كانت تتخيله وتحلم به فى الصورة التى كانت تحب أن يكون عليها ؟ .. فمنذ أن نجحت فى حمله على التواضع أصبحت تهتم به . الا أن هذا الود الذى ولد وسط سكون التعقل واختلط بالعطف الرقيق الذى يتلو انتصار المرأة لم يكن لا تلقائيا ولا حماسيا . كانت نتيجة نحو الحب ، وهى سيدة نفسها كما كانت سيدة أفكار مضيفها وانطباعاته ، كانت تتجه اليه ، لو كانت تفكر فيه ، بالصداقة وهو طريق جد طويل !

اما هو فقد كان خاضعا مبهورا يتنقل بين الشعور بالخيبة أو الاعجاب تارة واليأس أو الأمل أو الغضب أو الرغبة تارة أخرى وقد أصيب حتى الآن بأكثر من جرح فالحب السريع جدا بالنسبة للرجل يعنى المجازفة بأن يكون الحب من طرف واحد . وعلى كل فقد كانت ملكة سبأ متحفظة وكان تأثيرها مسيطرا على الجميع بما فيهم سليمان العظيم . وكان النحات أدونيرام هو وحده الذى لفت أنظارها اليه لحظة ولكنها لم تستطع قط النفاذ الى نفسه فقد صادف لحظة خيالها فيه غموضا . الا أن حب الاستطلاع الشديد هذا الذى صادفها لحظة ما لبث دون شك أن تبدد . ومع ذلك فقد قالت تلك المرأة القوية فى نفسها لمرآه لأول مرة : هذا رجل .

وقد تكون رؤيتها حديثة العهد لهذا الرجل ، رغم أنها قد انمحت ، قد تكون خفضت من تقديرها للملك سليمان . والدليل على ذلك أنها همت مرة أو مرتين بالحديث عن هذا الفنان ثم تماسكت وغيرت مجرى الحديث .

ومهما يكن من أمر فان ابن داود قد هام فورا بها حبا وقد اعتادت الملكة على حدوث ذلك من جانب عشاقها . وسارع سليمان بالاعتراف بحبه متبعا فى ذلك مثل الناس جميعا . ولكن عرف كيف يعبر عنه تعبيرا جميلا . كانت اللحظة ملائمة وبلقيس فى عمر الحب وقد غدت تحت تأثير الظلام المنتشر مستطلعة متأثرة .

وفجأة نشرت بعض الشعلات أشعة حمراء على الاحراش وأعلن عن تقديم العشاء • وقال الملك فى نفسه :

« تلك مضايقة غير مناسبة ! » •

أما الملكة فقالت فى نفسها : « هذا تغيير موات » •

وقدم العشاء في جناح أنشىء على الطراز سريع الحركة ذى النزوات الذى تتسم به شعوب ضفاف الكنج • وكانت القاعة مثمنة الشكل مضاءة بأنوار الشموع الملونة والمصابيح المشتعلة بزيت النفط المخلوط بالعطور• وكانت الأنوار الظليلة تتدفق وسط باقات الزهور • وعلى عتبة القاعة قدم سليمان يده لضيفته التى مدت قدمها الصغيرة ثم مالبثت أن أرجعتها فى دهشة • فقد كانت القاعة كأنها مغطاة بغطاء من الماء كانت المائدة والأرائك والشموع تنعكس فيه •

وسأل سليمان فى دهشة : « ماذا عساه يستوقفك ؟ »

وأرادت بلقيس أن تبدو أعلى من الخوف • فشمرت ثوبها فى حركة ساحرة وغمرت ساقيها فى ثبات •

الا أن القدم اصطدمت بسطح صلب • وقال الحكيم :

ـ « أترين أيتها الملكة ! ان أكثر الناس حذرا قد يغتر بالظواهر ؛ لقد أردت أن أدهشك وأخيرا أفلحت فى ذلك ـ انك تمشين على أرض ممردة من قوارير •

وابتسمت الملكة وهى تأتى بحركة من كتفها تنم عن الرشاقة أكثر مما تدل على الاعجاب • وربما تكون قد أسفت فى نفسها لأنه لم يتمكن من ادهاشها بطريقة أخرى •

وكان الملك خلال الوليمة رقيقا مجاملا وكان رجال بلاطه يحفون به وكان فى وسطهم يتربع على ملكه فى جلال لا مثيل له حتى أن الملكة شعرت باحترامه يتسرب الى نفسها • وكانت تقاليد الملك تراعى بكل دقة وجلال على مائدة سليمان •

وكانت ألوان الطعام شهية متنوعة ولكنها كانت مليئة بالملح والتوابل • ولم تكن بلقيس قد صادفت من قبل مثل هذه الألوان كثير الملح • وظنت أن تلك هى طريقة العبرانيين • ولذا فلم تكن دهشتها هينة اذ لاحظت أن تلك الشعوب التى لا تخشى الاطعمة الحريفة تمتنع كلية عن الشراب •

لم يكن ثمة أى ساق ولا قطرة واحدة من النبيذ أو شراب العسل ٠ ولم يكن هناك أى كأس على المائدة ٠

وكانت شفتا بلقيس تلسعانها وقد جف حلقها ٠

ولما كان الملك لا يشرب فلم تجرؤ على طلب الشراب ٠ كان تأثير جلال الأمير عليها يحول دون ذلك ٠

ولما انتهى تناول الطعام تفرق رجال البلاط شيئا فشيئا واختفوا فى أغوار رواق مضاء نصف اضاءة ٠

وما لبثت ملكة سبأ الجميلة ن ألفت نفسها وحيدة مع سليمان وقد غدا أكثر رقة من ذى قبل وكانت عيناه تفيضان حنانا وقد تحول من حالة العجلة الى حالة الاستعجال ٠

وتغلبت الملكة على حيرتها ونهضت مبتسمة وقد خفضت عينيها وأعلنت عزمها على الانسحاب ٠

وصاح سليمان قائلا :

ـ « ماذا ! أتتركين هكذا عبدك دون كلمة واحدة أو أى أمل أو أى ضمان لعطفك ؟ اتطئين بقدميك ذلك الرباط الذى أحلم به وتلك السعادة التى لم أعد استطيع العيش بدونها وهذا الحب المتأجج الخاضع الذى ينشد جزاءه ٠

وكان قد أمسك بيدها فتركتها له وكان هو يشدها دون جهد ولكنها كانت تقاومه ٠ ان بلقيس قد فكرت بلا شك أكثر من مرة فى هذا الرباط ولكنها كانت متمسكة بالاحتفاظ بحريتها وسلطانها ٠ ولذا فقد ألحت فى الانسحاب وألفى سليمان نفسه مضطرا للموافقة ٠ فقال لها :

ـ « ليكن ، اتركينى ولكننى أضع شرطين لانسحابك » ٠

ـ تكلم ٠

ـ ان الليل هادىء وحديثك أكثر رقة وهدوءا ٠ فهل تسمحين لى بساعة أخرى ؟

ـ أوافق

ـ ثانيا ، لن تحملى معك حين خروجك من هنا أى شيء مما أملك ٠

فقالت بلقيس وهى تقهقه ضاحكة :

ـ اتفقنا !

ـ اضحكى يا مليكتى ! فقد رأينا أناسا مفرطى الثراء يضعفون أمام أشد المغريات غرابة ٠

ـ بكل سرور ! انك ألمعى فى الاحتفـاظ بكرامتك ٠ لندع التصنع جانبا ولنوقع معاهدة سلام ٠

ـ انها هدنه ، وما زلت آمل فى ذلك ٠

واستؤنف الحديث وتفنن سليمان كملك واسع الاطلاع ٠ فى حمل الملكة على الحديث أطول وقت ممكن ٠ وكانت تصاحبها خـلال الحديث نافورة كانت ترسل خريرها فى أقصى القاعة ٠

واذا كان الافراط فى الكلام من المضايقات فذلك بلا شك يحدث حين يكون المرء قد أكل دون أن يشرب واذا كان قد تناول وجبة شديدة الملوحة ٠ لقد كادت ملكة سبأ الجميلة تموت عطشا وكان بودها أن تدفع احدى مقاطعاتها ثمنا لكأس من الماء البارد ٠

ومع ذلك فلم تكن تستطيع الافصاح عن تلك الرغبة الملحة ٠ وكانت النافورة الصافية الرطبة الفضية الماكرة ما زالت ترسل خريرها بالقرب منها وهى تلقى بحبات اللؤلؤ التى تتساقط فى الحوض محدثة صوتا شديد المرح ٠ وكان العطش يتزايد حتى أن الملـــكة الصادية لم تعد تستطيع المقاومة ٠

ولما رأت سليمان شاردا وكما لو كانت حركته قـــد ثقلت أخذت تتجول ، وهى تواصل حديثها ، فى اتجاهات مختلفة عبر القاعة ومرت مرتين بالقرب من النافورة دون أن تجرؤ ٠

وصارت الرغبة لا تقاوم فعادت الى النافورة وأبطأت الخطى وأرسلت نظرة قوت من عزيمتها وغمرت خفية يدها الجميلة فى المـــاء وقد طوتها لاحداث تجويف الحفنه ٠ ثم استدارت وازدردت بسرعة هذه الجرعة من الماء النقى ٠

ونهض سليمان واقترب واستولى على اليد اللاصقة المبتلة بالماء وقال بصوت فخور مصر :

ـ « ان كلام الملكات لا يرد وبنص كلامك أصبحت ملكى » ٠

ـ ما معنى ذلك ؟

ـ لقد سرقت منى بعض الماء ٠٠ وكما لاحظت أنت نفسك بحق فان الماء نادر شحيح فى ولاياتى ٠

ـ انه فخ يامولاى وانى لراغبة عن مثل هذا الزوج الماكر !

ـ لم يعد أمامه الا أن يثبت لك أنه أكثر كرما ٠ فلو أعاد اليك حريتك ، لو أنه رغم هذا التعهد الصريح ٠

وقاطعته بلقيس قائلة وهى تخفض رأسها :

ـ اننا يا مولاى ملزمون بأن نكون أمام رعايانا مثالا للوفاء ٠

وقال سليمان أكثر أمراء الازمنة الماضية والمقبلة رقة ، وهو يرتمى تحت قدميها :

ـ ان هذه الكلمة هى فديتك » ٠

وسارع بالنهوض وقرع أحد الاجراس ٠ وهرع اليه عشرون خادما يحملون المرطبات المتنوعة ويرافقهم رجال البلاط ٠ ونطق سليمان بالالفاظ التالية فى جلال :

ـ « قدموا الشراب لمليكتكم » !

وخر رجال البلاط سجدا ، لدى سماعهم لهذه الكلمات ، أمام ملكة سبأ وعبدوها ٠

أما هى فكانت مضطربة مرتبكة وكانت تخشى أن تكون قد تقدمت فى ارتباطها أكثر مما كانت تبغى ٠

وفى أثناء فترة الصمت التى تلت هذا الجزء من القصة وقع حدث غريب استحوذ على انتباه الجمع ٠ فقد اندفع شاب يعرف من لون بشرته الذى يشبه لون فلس حديث السك أنه حبشى ، اندفع وسط الحلقة وأخذ يؤدى رقصة تشبه «البامبولا» وهو يصاحبها بأغنية يؤديها بعربية ركيكة لم أع منها الا المقطع المتكرر ٠ وكان هذا الغناء ينطلق بهذه الكلمات : « يمن ! يمن ! » وهو يوضح اللفظ بذلك التكرار الطويل للمقاطع الذى يميز أهل الجنوب من العرب : « يمن ! يمن ! يمن ! ٠٠ سلام عليك ٠ بلقيس ملكة ! بلقيس ملكة ! يمن ! ٠٠ يمن ! ٠٠» وهذا يعنى : اليمن ! يا بلاد اليمن ! سلام عليك يا بلقيس العظيمة ! يا بلاد اليمن !

ولا يمكن تفسير هذه النوبة من الحنين للوطن الا بالعلاقة التى قامت فى الماضى بين شعوب سبأ والاحباش المقيمين على الضفة الغربية للبحر الاحمر والذين كانوا يشكلون جزءا من الامبراطورية الحميرية . ان اعجاب هذا المستمع ، الذى كان حتى الآن لائذا بالصمت ، يعود الى القصة السابقة التى تشكل جزءا من تقاليد بلاده . وربما كان كذلك سعيدا اذ يرى الملكة العظيمة تفلت من الفخ الذى نصبه لها الملك الحكيم سليمان .

ولما طال غناؤه الرتيب الى الحد الذى ضايق الرواد صاح بعضهم قائلا : « ان به جنة » ، وجروه بلطف نحو الباب . وخشى القهوجى من ضياع البارات الخمس أو الست التى يدين بها هذا الحبشى فأسرع الى الخارج فى أثره . وانتهى كل شىء فى سلام وما لبث الراوى أن استأنف حكايته وسط سكون دينى مخيم .

٥ - بحر الفولاذ

بانغماسه فى العمل والسهر استطاع الفنان أودنيرام أن يتم صنع تماثيله وأن يحفر فى الرمل القوالب التى سيصب فيها الوجوه العملاقة التى يريد صنعها . وهكذا اتخذت هضبة صهيـون التى حفرت بعمق وشقت بفن ، اتخذت طابع بحر الفولاذ الذى كان سيصب فى مكانه ويثبت تثبيتا متينا بواسطة متكآت مبنية استبدلت فيما بعد بالاسود والتماثيل العملاقة لأبى الهول خصصت لتكون سنادات . وكان غطاء قالب هذا الحوض الضخم محملا على قضبان من الذهب الخالص، وهو بخلاف البرونز عسير الصهر ، وكانت هذه القضبان متناثرة هنا وهناك . وكان المعدن المنصهر السائل الذى كان يأتى بواسطة قنوات عديدة ليملأ الفراغ القائم بين الخطتين هو الذى خصص لحبس هذه الاوتاد الذهبية وللالتحام مع هذه العلامات المتمردة الثمينة .

وكانت الشمس قد أتمت الدوران حول الارض سبع مرات منذ أن بدأت المعادن تغلى فى الافران المغطاه ببرج مرتفع أصم من الطوب كان ينتهى على بعد ستين ذراعا من الارض بطرف قمعى الشكل مفتوح الفوهة كانت تخرج منه دوامات من الدخان الاحمر واللهب الازرق الذى يتخلله الشرر .

وكان ثمة تجويف بين القوالب وقاعدة الفرن العالى خصص ليكون مجرى لنهر اللهب حين تأتى لحظة فتح أحشاء البركان بواسطة قضبان من الحديد .

ولكى يبدأ العمل العظيم ، عمل صب المعدن المنصهر اختيرت فترة الليل . فهى اللحظة التى يمكن فيها تتبع عملية سير البرونز المضىء الابيض الذى يتولى بنفسه اضاءة طريقه . ولو حدث وأراد المعدن البراق نصب فخ

من الفخاخ أو التسرب من أحد الشقوق أو شـــق تجويف هنا أو هناك كشفت الظلمات أمره ٠

وكان كل فرد في أورشليم في حالة قلق واضــــطراب في انتـظار التجربة الجليلة التي كان من شأنها اما أن تخلد اسم أدونيرام أو نفقده حظوته ٠ ولقد هرع العمال من جميع أرجاء المملكة تاركين أشغالهم ٠ وفي الامسية السابقة لليلة الموعودة ، وابتداء من غروب الشمس ، غصت الجبال والتلال المحيطة بالمستطلعين ٠

ولم يحدث من قبــل قــط أن قاد صاهر معادن تحت امرته ورغم المتناقضات مثل هذه الحملة الهائلة ٠ لقد كان جهاز الصهر يثير الاهتمام الشديد في كل مناسبة وكثيرا ما كان الملك سليمان ، حينما كانت تصب القطع الهامة ، يتنازل بالمرور ليلا على ورش المعــادن يرافقه رجال بلاطه الذين كانوا يتنافسون على شرف مرافقته ٠

الا أن صهر بحر الفولاذ كان عملا عملاقا وتحديا من جانب العبقرية للمعتقدات الانسانية الثابتة وتحـــديا للطبيعة ولرأى أكثر الخبراء خبرة الذين قرروا جميعا أن نجاح مثل هذا المشروع محال ٠

ولذا ففي ساعة مبكرة اقتحمت الجموع من جميع الاعمار ومن جميع البلدان ، وقد اجتذبها مشهد هذا الكفاح ، جبل صهيون الذي كانت مشارفه تحرسها فيالق من العمال ٠ وكانت دوريات صامتة تجوب الجموع للمحافظة على النظام ومنع الضوضاء ٠٠ وكانت تلك مهمة سهلة فقد دوت الابواق بأمر من الملك تأمر الناس بالصمت المطلق والا تعرض المخالفون للموت ٠ وكان ذلك احتياطا ضروريا حتى يمكن نقل الاوامر بثقة وسرعة ٠

وكان نجم المساء ينحدر نحو البحر ٠ وكان الليل البهيم الذي زادت السحب التي انعكست عليها ظلال الفرن الحمراء ظلمته عمقا ، كان يعلن أن اللحظة قد اقتربت ٠ وألقى أودنيرام يتبعه رؤساء العمال ، نظرة أخيرة ، في ضوء المشاعل ، على الاعدادات القائمة وأخذ يجرى هنا وهناك ٠ وكنت ترى من تحت الســطح العريض المســتند الى الفرن الحدادين وقـد غطوا رءوسهم بأغطية من الجلد ذات أجنحة عريضة متدلية وارتدوا ثيابا طويلة بيضاء ذات أكمام قصيرة وانهمكوا في نزع كتل متعجنة من الرغوة نصف الزجاجية من فوهة الفرن المفتوحة بواســطة خطافات من الحــديد وكانوا يجرونها بعيدا ٠ وآخرون كانوا منكفئين على سقالات تحملها عروق خشبية ضخمة وقد أخذوا يقذفون من فوق البناء بسلال من الفحم في بؤرة النار

التى كانت تزفر مع الهبوب الفائر لاجهزة التهوية • وكانت جحافل العمال المسلحين بالفئوس والخوازيق والملاقط يتجولون فى كل مكان ناشرين خلفهم ذيولا طويلة من الظلال • كانوا شبه عراة وكانوا يغطون جوانبهم بأحزمة من القماش المخطط ، وكانت رءوسهم مغطاة بأغطية من الصوف وسيقانهم تحميها دروع من الخشب المغطى بسيور من الجلد • كانت جلودهم قد اسودت بفعل غبار الفحم وبدوا حمر اللون تحت أشعة اللهب• كنت تراهم هنا وهناك كما لو كانوا عفاريت أو أشباحا •

وأعلن النفير عن مقدم الملك ورجال بلاطه : وبدا الملك بصحبة ملكة سبأ واستقبلهما أودنيرام الذى اقتادهما الى العرش الذى بناه ارتجالا لضيوفه العظام • وكان هذا الفنان يرتدى فوق ظهره جلد ثور وكانت ميدعة من الصوف الابيض تتدلى حتى ركبتيه • وكان يلبس غطاء من جلد النمر لحماية ساقيه بينما ظلت قدماه عاريتين لأنه كان يدوس على المعدن الملتهب دون أن يصاب بأذى •

وقالت بلقيس للملك التسخير :

« انك تبدو لى فى أوج قدرتك كما لو كنت اله النار • واذا نجح مشروعك فلن يستطيع أحد أن يقول الليلة انه أعظم من الفنان أودنيرام ! ••• »

وهم الفنان رغم مشاغله بالاجابة حين استوقفه سليمان الذى كان وما يزال حكيما وان كانت الغيرة تعتريه من حين لآخر وقال له بلهجة آمرة :

ـ « لا تفقد أيها الفنان وقتك الثمين • عد الى أعمالك حتى لا يجعلنا وجودك هنا مسئولين عما قد يقع من أحداث •

وحيته الملكة بحركة منها واختفى •

وقال سليمان فى نفسه مفكرا :

ـ « لو انه أتم مهمته فأى أثر رائع ذلك الذى سوف يشرف به بيت الله ، وأى بريق ذلك الذى سيضيفه الى قدرة كانت من قبله رهيبة ! »

وما هى الا لحظات حتى رأيا أودنيرام أمام الفرن • ورفع العامل الذى يشعله من أسفل قامته فأخذ ظله يتسلق الجدار حيث كانت ورقة كبيرة من البرونز معلقة فضرب عليها الفنان عشرين ضربة بمطرقة من الحديد • ورنت تلك الضربات المعدنية بعيدا فعم السكون أكثر عمقا مما كان •

وفجأة هرع عشرة أشباح مسلحين بالرافعات والخوازيق الى التجويف المعد تحت بؤرة الفرن فى مواجهة العرش · وأخذت المنافيخ تحشرج وانحبست أنفاسها ولم يعد أحد يسمع سوى الاطراف الحديدية وهى تنفذ الى طين الفخار المحترق الذى يسد الفتحة الذى سوف ينطلق منها المعدن المنصهر · وما لبث ذلك الموضع المطروق أن تحول الى اللون البنفسجى ثم القرمزى فالاحمر وأضاء واتخذ لون برتقاليا · وارتسمت فى وسطه نقطة بيضاء فابتعد جميع الانفار ماعدا اثنين · وعكف هؤلاء تحت ملاحظة أودونيرام على ترقيق القشرة حول تلك النقطة المضيئة متجنبين ثقبها ·· وكان الفنان يراقبهما فى قلق ·

وفى أثناء تلك الاعدادات كان رفيق أودونيرام الوفى، بينونى الشاب، الذى يخلص له اخلاصا شديدا يجوب جماعات العمال سابرا غور حمية كل منهم ملاحظا ما اذا كانت الاوامر تتبع ويحكم على كل شىء بنفسه ·

وحدث أن اندفع هذا الشاب فى ارتياع تحت قدمى سليمان وسجد وقال :

ـ « أوقف الصب يا مولاى فقد ضاع كل شىء · لقد تعرضنا للخيانة ! » ·

ولم يكن العرف يبيح مثل هذا الاقتراب من الملك دون تصريح · ولذا فقد اقترب الحراس من هذا المتهور · وأمرهم سليمان بالابتعاد وانحنى على بينونى وهو راكع أمامه وقال له بصوت خفيض :

ـ « فسر ما تقول فى ايجاز » ·

ـ « لقد كنت أدور حول الفرن ·وكان خلف الحائط رجل يقف ساكنا بلا حراك كما لو كان ينتظر · وأتى ثان وقال للاول بصوت منخفض :

«فهما ميب» فرد عليه الآخر قائلا : «اليايل»(١) وأتى ثالث وتفوه هو الآخر بكلمة : «فهماميب» ! فردا عليه كذلك بكلمة «اليايل» · ثم صاح أحدهما قائلا :

ـ لقد جعل قاطعو الاخشاب عبيدا لعمال المناجم ·

---

(١) تلك كلمة المرور والرد عليها لدى «فرسان النسر الاسود» ولابد أن جيرار قد حصل عليهما من أحد المؤلفات حول مذهب الماسونية . وصحة الكلمة الاولى هى نهماميب ·

وقال الثانى :

ـ « لقد جعل البنائين تابعين لعمال المعادن » .

وقال الثالث :

ـ « لقد أراد أن يحكم عمال المعادن » .

وأردف الاول قائلا :

ـ « انه يمنح قوته للأجانب » .

وقال الثانى :

ـ « انه لا وطن له » .

وأضاف الثالث قائلا :

ـ « هذا حسن » .

وعاد الاول يقول :

ـ « ان عمال المهنة الواحدة اخوة » ...

وأضاف الثانى قائلا :

ـ « ان طوائف العمال متساوية فى الحقوق » .

وأضاف الثالث :

ـ « هذا حسن » .

وتبينت أن الاول بناء لأنه قال بعد ذلك :

ـ « لقد خلطت الجص بالطوب وسوف يهوى الجير ترابا » .

وكان الثانى قاطع أخشاب لانه قال :

ـ لقد أطلت العروق الخشبية الأفقية وسوف تلتهمها النار .

أما الثالث فيعمل فى المعادن وتلك كانت كلماته :

ـ « لقد أخذت من بحيرة عامورية المسممة أحجارا بركانية من الحمر والكبريت وفرجتها بالمعدن المنصهر .

« وفى تلك اللحظة أضاء وابل من الشرر وجوههم . فتبينت أن البناء

شامى ويسمى فانور • وقاطع الاخشاب فينيقى ويسمى عمرو أما عامل المناجم فهو يهودى من قبيلة روبين واسمه ميتوزايل • ولقد طرت لأرتمى تحت قدميك أيها الملك العظيم فأمدد صولجانك ومر بايقاف العمل ! »

وقال سليمان مفكرا :

ـ لقد فات الأوان • هذه هى فوهة البركان تفتح فالزم الصمت ولا تجعل ادونيرام يضطرب وكرر لى ذكر هذه الأسماء الثلاثة •

ـ « فانور ، عمرو وميتوزايل » •

ـ « ليحدث ما يحدث طبقا لمشيئة الله » •

وتفرس بينونى فى الملك ثم ولى هاربا فى سرعة البرق • وفى تلك الأثناء سقط اللبن من حول المصب المسدود للفرن تحت ضربات عمال المعادن المتكررة وأصبحت طبقة اللبن حول الفتحة ، وقد رقت ، من اللمعان بحيث يخيل للمرء أنه على وشك الامساك بالشمس فى مخبئها الليلى السحيق •

وبناء على اشارة من أدونيرام ابتعد العمال وبينما كانت المطارق تدق الفولاذ دقا رفع الفنان كتلة من الحديد وأدخلها بعمق فى السدادة الشفافة وأدارها فى الفتحة ثم انتزعها بعنف • وللتو اندفع سيل من السائل الابيض السريع فى القناة وتقدم كثعبان من الذهب مخطط بالبللور والفضة حتى بلغ حوضا محفورا فى الرمال توزع السائل المنصهر منه فى فترات عديدة •

وفجأة لمع ضوء قرمزى دام من فوق التلال فأضاء وجوه المشاهدين الذين لا حصر لهم • ونفذ هذا الضوء الى السحب وجعل قمم الصخور البعيدة تبدو حمراء • وبرزت أورشليم من الظلمات وبدت كما لو كانت نهبة لحريق • وكان السكون العميق السائد يجعل هذا المشهد الجليل يبدو كما لو كان حلما مروعا •

ولما بدأ الصب لمح الناس ظلا يطير حول المجرى الذى سوف يجتاحه السائل المنصهر • فقد اندفع رجل ورغم تحذيرات أدونيرام كانت له جرأة عبور هذه القناة المعدة للنار • وما أن وضع قدمه فيها حتى لحق به السائل المنصهر وطرحه الى الارض فاختفى فيه فى لحظة واحدة •

ولم يكن أدونيرام يرى الا ما يقوم به من عمل • وقد ارتاع لفكرة

احتمال حدوث انفجار شامل فاندفع مجــازفا بحياته مزودا بخطاف من الحديد ، اغمده فى قلب الضحية ورفعه بقوة تفوق قوة البشر ثم قذف به ككتلة من القذائف البركانية فوق حافة القناة حيث سينطفىء جســمه الملتهب وهو يلفظ أنفاسه ٠

ولم يكن لديه من الوقت حتى ما يســمح له بالتعرف على رفيقـه المخلص بينونى ٠

وبينما كان السائل المنصهر يسير ويملأ بحر الفولاذ الذى ارتسم هيكله الواسع كتاج من الذهب فوق الأرض المظلمة تقدمت سحابات من العمال تحمل أوانى كبيرة عميقة لصب النار لها أيد طويلة من أعواد الحديد٠ فكانوا يغمرونها فى الحوض الملىء بالنار السائلة ثم يجرون هنا وهناك ويصبون ما فيها من معدن فى القوالب المخصصــة للأســود أو للثيران أو للنخيل أو للملائكة الأطفال ذات الوجوه العملاقة التى سوف تحمل بحر الفولاذ ٠

ودهش الناس لكمية النار السائلة التى أسقوها للأرض ٠ وارتسمت فى هذه القوالب الراقدة على الارض لهذه التماثيل التى سوف تزين الجوانب السفلى لبحر الفولاذ ، فى صورة مضيئة قرمزية أشكال الخيول والثيران المجنحة والقرود والاشباح المروعة التى ابتكرتها عبقرية أدونيرام ٠

وصاحت ملكة سبأ قائلة :

ــ « انه لمشهد سام ! يا للعظمة ! يا لقوة عبقرية هذا الانسان الذى استعبد العناصر وقهر الطبيعة ! »

فأجاب سليمان فى مرارة :

ــ « انه لم ينتصر بعد ٠ ان الله وحده هو القادر على كل شىء » ٠

٦ – التجلى

وفجأة لاحظ أدونيرام أن نهر السائل المنصهر يفور على الجانبين . كانت العين المفتوحة تلفظ سيولا من السائل المنصهر . وانهار الرمل وقد ثقل عليه حمله . واتجه أدونيرام بأنظاره الى بحر الفولاذ . كان القالب يفيض بما فيه وبدا فى أعلاه شرخ . وكانت الحمم تنساب من كل مكان فيه . وأصدر أدونيرام صرخة مروعة امتلأ بها الهواء ورددتها الأصداء فوق الجبال . وظن أدونيرام أن الطين شديد الحرارة فى سبيل التحول الى زجاج فأمسك بخرطوم قابل للثنى وينتهى بخزان للمياه . وبيد مندفعة وجه هذا العمود المائى الى الركائز المهتزة لقالب الحوض . الا أن السائل المنصهر كان قد بدأ فى الانطلاق وانســـاب من أعلى الى أسفل وتطاحن السائلان وأحاطت كتلة من المعدن بالماء وحبسته وضغطته . ولكى يفلت الماء الحار تبخر وحطم العوائق التى تقف أمامه . ودوى انفجار واندفق المعدن المنصهر فى الهواء فى باقات مضيئة الى ارتفاع عشرين ذراعا . وتبع هذا الانفجار بكاء وعويل مروعان لأن هذا الوابل من النجوم كان يزرع الموت فى كل مكان . كانت كل قطرة من المعدن المنصهر ابرة ملتهبة تنفذ الى الاجسام وتقتلها . وغص المكان بالمحتضرين وتبع السكون صيحة هائلة من الهلع . وبلغت الرهبة غايتها وولى كل فرد هاربا . كان الخوف من الخطر يدفع الى النار أولئك الذين تطاردهم النــار .. كان الريف متألقا يبهر الأنظار بأنواره القرمزية وكان يذكر بتلك الليلة المروعة التى اشتعلت فيها سدوم وعامورية نارا بفعل الصواعق التى صبها الاله عليها .

وطاش لب أدونيرام وأخذ يعدو هنا وهناك ليعيد تجمع عماله ويغلق فم الفرن ذى الهوة التى لا تنضب . الا أنه لم يعد يسمع سوى الشكوى واللعنات ولم يعد يصادف سوى جثث ، أما ما عدا ذلك فقد طار شعاعا .

وكان سليمان وحده هو الذى ظل جالسا على العرش دون تأثر ، وظلت الملكة الى جواره ساكنة وكان تاجها وصولجانه مازالا يتألقان وسط الظلمات .

وقال سليمان لضيفته :

ـ « لقد أرسل الله عليه عقابه ، وهو يعاقبنى بموت رعاياى على ضعفى واكرامى لهذا العملاق المغرور المتكبر » .

وقالت الملكة :

ـ « ان الغرور الذى يقتل كل هذه الضحايا غرور اجرامى . وكان من المحتمل أن تموت يا مولاى وسط هذه التجربة الجهنمية . لقد كان الفولاذ يتساقط وابلا حولنا » .

ـ « وأنت أيضا كنت هنا ! لقد عرض هذا الذنب الدنىء من أذناب « بعل » حياتك الثمينة للخطر ! لنرحل أيتها الملكة فلم يشغلنى سوى الخطر الذى تعرضت له » .

وسمعه أدونيرام الذى كان يمر بالقرب منهما فابتعد وهو يهدر من الألم . وصادف بعد ذلك جماعة من العمال يصبون عليه احتقارهم وشتائمهم ولعناتهم . ولحق به الشامى فانور الذى قال له :

ـ « انك عظيم وقد خانك الحظ الا أن عمال البناء لم يشاركوا فى الخيانة » .

ولحق به كذلك الفينيقى عمرو وقال له :

ـ « انك عظيم وكان من الممكن أن تنتصر لو أن كل فرد أدى واجبه كما فعل قاطعو الأخشاب » .

وقال له اليهودى ميتوزايل :

ـ « لقد أدى عمال المناجم واجبهم على الوجه الأكمل . ولكن هؤلاء العمال الاجانب هم الذين أضاعوا المشروع بجهلهم . تشجع ! وسوف يأتى عمل أعظم فينتقم لنا لهذا الفشل » .

وقال أدونيرام فى نفسه :

ـ « هؤلاء هم الأصدقاء الوحيدون الذين صادفتهم .. » .

وكان من اليسير عليه تجنب الالتفاء بالناس فقد كان الجميع يولون منه مدبرين وكان الظلام الدامس يستر هـذا الفرار • وما لبثت أضواء الافران والسائل المنصهر الذى احمر حينما بدأ سطحه يبرد ما لبثت أن خفتت ولم تعد تضىء الا الجماعات البعيدة التى كانت تختفى شيئا فشيئا وسط الظلام • كان أدونيرام وسط انهياره يبحث عن بينونى • وتمتم قائلا فى حزن :

« لقد تخلى عنى بدوره ••• » •

وجلس الفنان وحده بجوار حافة الفرن وصاح قائلا فى مرارة :

ـ « يا للعار ! تلك ثمرة حياة جادة عاملة كرست لخدمة أمير جاحد ! انه يتهمنى واخوتى ينكروننى ! وهذه الملكة ، هذه المرأة •• لقد كانت هنا وشاهدت عارى ولا بد أننى استحققت احتقارها ! ولكن أين عسى يكون بينونى فى تلك الساعة التى أتعذب فيها ؟ وحدى ! اننى وحدى وقد صبت على اللعنة • لقد غدا المستقبل مغلقا • ابتسم يا أدونيرام لتحررك وابحث عنه فى النار عنصرك وعبدك المتمرد ! » •

وتقدم هادئا ثابت العزم نحو النهر الذى كانت أمواجه مازالت تهدر بما فيها من حمم ومعدن منصهر والتى كانت تتدفق هنا وهناك وهى تحتدم لدى الارتطام بالرطوبة • ربما كانت الحمم تهدر فـوق جثث الموتى • وتصاعدت دوامات كثيفة من الدخان البنفسجى والاصفر فى أعمدة متلاصقة وأخفت المسرح المهجور لتلك الحادثة الكئيبة • وهنا خر العملاق المنهار جالسـا على الأرض وتاه فى تأمـلاته •• وعينه فى هـذه الدوامات من الدخان التى كان من الممكن أن تنحنى عليه وتخنقه لدى أية هبة من هبات الريح •

وكانت بعض الاشكال الغريبة الملتهبة سريعة الاختفاء ترتسم أحيانا وسـط الاشكال التى ترسمها الادخنة النـارية الكئيبة • ولمحت عينا أدونيرام المبهورتان ، استنادا الى أعضاء العمـالقة تلك ، كتلا من الذهب وأيدى أشباح كانت ما تلبث أن تتبدد وسط الدخان أو تتساقط شررا • ولم تفلح شطحات الخيال تلك فى التخفيف من يأسه وألمه • ومع ذلك فلم تلبث أن استولت على خياله المحموم وخيل اليه أن ثمة صوتا يرتفع من وسط اللهب مدويا وقورا وينادى باسمه • لقـد جأرت الدوامة ثلاث مرات باسم أدونيرام •

ولم يكن ثمة أحد حوله .. فتأمل الدوامة الملتهبة والتهمها بعينيه وتمتم قائلا :

- « ان صوت الشعب يدعونى ! » .

ودون أن يدير ناظريه نهض على احدى ركبتيه ومد يده وتبين وسط الادخنة الحمراء هيكلا انسانيا غير واضح المعالم عملاقا أخذ يزداد ضخامة وسط اللهب ويتجمع ثم تتفرق أجزاؤه وتختلط . كان كل شيء يضطرب ويشتعل نارا حوله .. الا هـــذا فقد كان يثبت ويبدو اما معتما وسط الدخان المضيء واما مضيئا واضحا وسط كومة من الادخنة السوداء . ان هذا الوجه يرتسم ويكتسب مزيدا من التجسيم ويزداد كبرا وهو يقترب. وتساءل أدونيرام فى ارتياع عما يكون هذا البرونز الذى دب فيه الحياة .

واقترب الشبح . وتأمله أدونيرام فى ذهول . لقد كان نصفه الأعلى العملاق يرتدى سترة بيضاء دون أكمام كتلك التى كان يرتديها أباطرة الرومان ، وكانت ذراعاه العاريتان مزينتين بحلقات من الحديد . وكانت رأسه البرونزية التى تحيط بهـا لحية مربعة مضفرة ومجعدة فى صفوف كثيرة مغطاة بغطـــاء قرمزى مرتفع مدبب . وكان يمسك بيده مطرقة . وانحنت عيناه الكبيرتان على أدونيرام فى رقة وقال بصوت بدا أنه اقتطع من أحشاء البرونز :

- « أيقظ روحك وانهض يا بنى . تعال ، اتبعنى . لقد شاهدت آلام جنسى وأخذتنى الشفقة بها .. » .

- « من عساك تكون أيها الشبح ؟ » .

- « اننى أبو آبائك ، وجد أولئك الذين يعملون ويتألمون . تعال . وحين تنزلق يدى على جبهتك فســوف تتنفس وســط اللهب . لا يأخذك الخوف كما لم يكن يأخذك الضعف .. » .

وفجأة شعر أدونيرام بحرارة نفاذة تشعله حمية دون أن تحرقه . وأصبح الهواء الذى يتنفسه أكثر خفة . وكانت ثمة قوة لا تقاوم تجره نحو الجمر الذى انغمر فيه من قبل صديقه المختفى .

وتمتم أدونيرام قائلا :

- أين أنا ؟ ما اسمك ؟ الى أين تجرنى ؟ » .

- « الى بطن الأرض .. الى قلب العالم المسكون . هناك يرتفع قصر

هينوش تحت الأرض . قصر أبينا الذى تسميه مصر هيرميس وتسميه بلاد العرب ادريس (١) .

وصاح أدونيرام قائلا :

ــ « يا للقدرة الخالدة ! يا مولاى ! هل صحيح ؟ هل تكون ... » .

ــ « اننى جدك أيها الانسان .. الفنان وأستاذك ورئيسك . لقد كنت فيما مضى طوبال ــ قابيل (٢)

وكلما أوغلا فى التقدم فى الجهات العميقة التى يسيطر عليها السكون والليل كلما شك أدونيرام فى نفسه وفى حقيقة انطباعاته . وشيئا فشيئا ذهل عن نفسه وانقاد لسحر المجهول ، وخضعت روحه كلية لذلك التأثير الذى سيطر عليه وانقاد تماما لمرشده المجهول .

وتلت تلك الجهات الرطبة الباردة جوا دافئا مخلخلا . وبدت الحياة الداخلية للأرض بهزات وطنين عجيبين . كانت ثمة ضربات مكتومة منتظمة على فترات متساوية تعلن عن قرب الوصول الى قلب العالم . وشعر به أدونيرام يخفق بقوة متزايدة ودهش لأنه يتجول وسط فضاء لا نهاية له . لقد كان يبحث عن شىء يرتكز عليه فلا يجده ، وكان يتبع شبح طوبال ــ قابيل الذى ظل ملازما للصمت دون أن يراه .

وبعد لحظات ، بدت له فى طول حياة النساك ، اكتشف على بعد نقطة مضيئة . وكبرت تلك البقعة واقتربت وانتشرت فى أفق طويل فتبين الفنان عالما آهلا بأشباح تتحرك وقد انهمكت فى مشاغل لم يدرك كنهها. وأخيرا فقد انطفأت هذه الأضواء الغامضة فوق غطاء رأس ابن قابيل وسترته .

وحاول أدونيرام الكلام عبثا فقد كان صوته يختنق فى صدره المضغوط . ولكنه تنفس الصعداء حين ألفى نفسه فى رواق فسيح ذى عمق شاسع ، رواق فسيح جدا لا يتبين أحد جوانبه محمل على مجموعة كبيرة من الأعمدة الشاهقة التى كانت من الارتفاع بحيث لا تستطيع عينه أن تصل الى قممها كما أن القبة التى تحملها كانت فوق متناول النظر .

وفجأة ارتعد أدونيرام فقد تكلم طوبال ــ قابيل قائلا :

---

(١) من المعروف ان هينوش هو ابن قابيل وقد كان الاله المصرى هيرمس عدوا لسلالة قابيل . ويخلط جيرار هنا عامدا بين التوراة والعقائد المصرية والعربية .

(٢) من أحفاد قابيل ومخترع صناعة الحديد والنحاس .

ـ انك تطأ بقدميك الآن حجر الزبرجد الذى يعتبر جذرا وركيزة جبل قاف . لقد أشرفت على أرض آبائك . ان هذه الجهات تحكمها سلالة قابيل دون تقسيم . فقد استطعنا أخيرا العثور على الحرية تحت هذه القلاع الجرانينية ووسط هذه الكهوف التى لا تصل اليها يد . هنا يلفظ طغيان الغيرة الذى يسيطر على الاله أدوناى أنفاسه ، وهنا يستطيع المرء دون أن يذوق الموت أن يتغذى على ثمار شجرة العلم » .

وأرسل أدونيرام تنهيدة طويلة هادئة . وبدا له كما لو كان ثمة ثقل مضن كان دائما فى الحياة يقصم ظهره ، كما لو كان ينزاح من عليه للمرة الاولى .

وفجاة برق وميض الحياة . وبدت الشعوب من خلال تلك الكهوف . كانوا منهمكين فى العمل الذى كان يملؤهم نشاطا . وكان رنين المعادن المطرب يدق وخرير المياه يسمع وتختلط به أصوات الرياح . لقد كانت العقبة وقد أصبحت الآن واضحة المعالم تمتد كسماء شاسعة على أغرب الورش وأكثرها اتساعا فتتدفق منها سيولا من الضوء الأبيض المائل للزرقة ، الذى كان يأخذ ألوان قوس قزح وهو يسقط على الأرض .

واخترق أدونيرام جماعة كانت منهمكة فى أعمال لم يتبين الغرض منها . كان ذلك الضوء وتلك القبة السماوية فى أحشاء الأرض تدهشه. فتوقف . وقال له طوبال ـ قابيل :

ـ « انه قدس أقداس النار ومنه تصدر الحرارة التى تدفىء الأرض التى لولانا لماتت من البرد . نحن نعد المعادن ونوزعها فى شرايين هذا الكوكب بعد أن نحول أبخرتها الى سوائل » .

ـ « وحين تحتك عروق هذه العناصر المختلفة بعضها بالبعض وتتداخل فوق رءوسنا تصدر عنها أرواح متناقضة تشتعل وترسل هذه الأنوار الشديدة .. التى تبهر عينيك المتعبتين . وتنجذب المعادن السبعة لهذه التيارات فتتبخر فى الجو المحيط مكونة تلك السحب الزبرجدية اللازورديه القرمزية الذهبية الفضية التى تتحرك فى الفضاء مكونة السبائك التى تتكون منها أكثر المعادن والأحجار الكريمة . وحين تبرد القبة فان تلك السحب المتجمعة تسقط بردا من الياقوت والزبرجد والزمرد والعقيق والفيروز والماس وتحملها تيارات الأرض مع طائفة من الحمم : أما أحجار الجرانيت والصوان والجص التى يرتفع عليها سطح الأرض فتزوده بنتوءات من الجبال . ان هذه المواد تتجمد باقترابها من مجال البشر ..

ومن طراوة شمس الاله ادوناى ، وهى فرن فاشل لم يكن ليمنح من الطاقة مايتيح له شوى بيضة · وكذلك ماذا كانت تكون حياة الانسان لو لم تزوده سرا بعنصر النار المحبوس فى الحجارة وكذلك بالحديد الكفيل باستخراج الشرر ؟

وأرضى هذا التفسير أدونيرام وأدهشه · فاقترب من العمال دون أن يفهم كيف يستطيعون العمل فوق أنهار من الذهب والفضة والنحاس والحديد وكيف يستطيعون فصلها وحبسها وغربلتها كالموج ·

وأجاب طوبال ـ قابيل على تلك الفكرة التى راودت خاطره قائلا :

ـ « ان تلك العناصر قد تحولت الى السيولة بفعل الحرارة المركزية· ان الحرارة التى نعيش فيها هنا هى تقريبا ضعف الحرارة التى كنت تصهر فيها المعدن فى أفرانك » ·

وارتاع أدونيرام ودهش كيف تتسنى له الحياة ·

وأردف طوبال ـ قابيل قائلا :

ـ « ان تلك الحرارة هى الحرارة الطبيعية للنفوس التى انسلخت من عنصر النار · لقد وضع أدوناى شرارة لا تكاد ترى وسط القالب الطينى الذى صنع منه الانسان وكانت تلك الشرارة كافية لتدفئة الكتلة وبث الحياة فيها وجعلها تفكر · ولكن فى عل فان تلك النفس تقاوم البرودة ومن هنا تأتى الطاقة المحدودة لمواهبكم · ثم يحدث أن تنجذب تلك الشرارة بفعل الجاذبية المركزية فتموتون » ·

ولما فسرت لأدونيرام الخليقة على هذه الصورة سرت فيه حركة من الازدراء ·

واردف المرشد قائلا :

ـ « نعم · ان الاله أدوناى يتسم بقوة أقل مما يتسم به من دقة كما أن غيرته أقل من كرهه · لقد خلق الانسان من طين رغم ارادة الجن المخلوقين من النار · ثم ارتاع للعمل الذى خلقه وللاستلطاف الذى أبداه الجن نحو هذا المخلوق فكتب عليه ، دون أن تأخذه شفقة بدموعهم ، الموت · ذلك هو مبدأ الخلاف الذى يفرق بيننا · ان الحياة الأرضية كلها النابعة من النار تجذبها النار القائمة فى المركز · ولقد أردنا بالتبادل أن تنجذب

النار المركزية نحو المحيط وأن تشع الى الخارج وقد كان فى تبادل هــذه المبادىء الحياة التى لا نهاية لها » ٠

ــ « الا أن أدوناى الذى يسيطر حول العوالم المختلفة أحاط الأرض بسياج ومنع حدوث تلك الجاذبية الخارجية ٠ وسيحدث نتيجة لذلك أن تموت الأرض كما يموت ساكنوها ٠ لقد أدركها الهرم منذ الآن والبرودة تزداد نفاذا اليها شيئا فشــــيئا واختفت أجناس كاملة من الحيوانات والنباتات ، والسلالات تضعف ومدة الحياة تقصر ٠ ولم تتلق الأرض ، التى تجمد نخاعها وجف ، من المعادن البدائيـــة السبعة الا خمسة حتى الآن (١) حتى الشمس تبهت ولابد أن تنطفىء فى بحر خمسة أو ســـتة آلاف من السنين ٠ ولكن لا يتعين على وحدى يا بنى أن أكشف لك عن هذه الغوامض فسوف تسمعها من أفواه الناس ٠٠ أجدادك » ٠

---

(١) تلك الاساطير التى يقصها نرفال ليست كلها مستقاة من مصادر شرقية فقد عرفت العصورالوسطى الاوربية اسطورة المعادن السبعة هذه ، كما أنها مذكورة فى التلمود وكل مافى هذا الفصل من معلومات علمية مختلط وغير موثوق بصحته .

ـ ٧ ـ العالم تحت الأرضى

ودخلا معا الى حديقة تضيئها أنوار رقيقة لنار هادئة مليئة بأشجار غير معروفة تتكون أوراقها من ألسنة صغيرة من اللهب وتضفى على الأرض الزبرجدية بدل الظلال مزيدا من الضوء وتزينها زهور ذات شكل غريب وألوان زاهية مذهلة ٠ كانت هذه الزهور التى تفتحت بفعل النار الكامنة فى أرض المعادن هى أكثر ما صدر عن هذه المعادن سيولة ونقاء ٠ كانت أشجار المعدن المزهر تشع كما لو كانت من الأحجار الكريمة ويصدر عنها عبير كعبير العنبر واللبان الجاوى والمر والبخور ٠ وفى مكان ليس بالبعيد كانت ثمة جداول من النفط تتلوى وتروى زهور الزنجفر (١) وهى ورود هذه البلاد تحت الأرضية ٠

كان ثمة بعض الشيوخ العمالقة يتنزهون ، وقد فصلت أجسامهم على مقاس هذه الطبيعة الفياضة القوية ٠ وتحت مظلة من الضوء الشديد اكتشف أدونيرام صفا من التماثيل العمـــلاقة وقد جلست فى طابور ٠ كانت هذه التماثيل تصور الملابس المقدسة والنسب السامية والمظهر الأخاذ لتلك الأشكال التى كان قد رآها من قبل فى كهف لبنان وقد رأى فى هذه التماثيل أسرة أمراء هينوشيا المندثرة ٠ ورأى بالقرب منهما جالســـة القرفصاء القردة الشبيهة بالكلاب والأسود المجنحة والأعقب (٢) وتماثيل أبى الهول المبتسمة الغامضة ، وهى أجناس حكم عليها بالموت وجرفهـا الطوفان وخلدتها ذاكرة البشر ٠ كان هؤلاء العبيـــد الذين يجمعون بين

---

(١) أكسيد الزابق وهو أحمر اللون ٠

(٢) جمع عقاب ٠

الجنسين الذكر والأنثى يحملون العروش الثقيلة المصمتة • انها تماثيل طيعة لا حراك لها ومع ذلك فقد كانت ممتلئة حياة •

كان هؤلاء الأمراء أبناء آدم ساكنين سكون الأبد وكان يبدو أنهم يحلمون وينتظرون •

ولما وصل أدونيرام الى نهاية الصف استمر فى سيره موجهـا خطاه نحو حجر ضخم مكعب أبيض كالثلج •• وهم بوضع قدمه على هـذا الحجر ، حجر الفتيلة ، غير القابل للاحتراق •

فصاح فيه طوبال ـ قابيل قائلا :

ـ قف ! اننا تحت جبل سرنديب وسوف تطأ قبر المجهول قبر أول من ولد على الأرض • ان آدم يرقد تحت هذا الكفن الذى يحفظه من النار ولن ينهض من رقدته الا فى آخر يوم من أيام الأرض • لقد ظل قبره رهينة فى يدنا وفيه فديتنا • ولكن استمع ، ان أبانا المشترك يدعوك •

كان قابيل جالسـا القرفصاء فى وضع أليم • ونهض وكان جماله يفوق جمال البشر وكانت نظرته حزينة وشفتاه شـاحبتين • كان عاريا وكان يلف رأسه المهمومة بشعبان من الذهب بدلا من التاج • كان الانسان التائه يبدو كما لو كان ما زال منهكا • وقال له :

ـ ليكن النوم والموت معك يابنى • أيها الجنس المسخر المضطهد اننى سبب عذابك • لقد كانت حواء أمى وقد دس ابليس ملك النور فى صدرها الشرارة التى تحيينى والتى جددت جنسى • أما آدم المصـنوع من الطين والذى يضم جسده روحا أسيرة فقد غذانى •

لقد كنت أنتمى الى جنس متوسـط بين الانس والجن (١) وكنت أحب الانس خليقه أدوناى فوضعت فى خدمة البشر الجهـلة الضـعفاء ذكاء الجن الكامن فى • وقد غذيت من غذائى فى شيخوخته ورعيت طفولة هابيل •• الذى كانوا يسمونه أخى • يا للأسف ! يا للأسف !

ـ وقبـل أن أعلم الأرض القتـل كنت قد عرفت الجحـود والظلم والمرارات التى تفسد القلب • ولقد جعلت من حياتى تضحية حين أخذت أعمل دون هوادة منتزعا غذاءنا من قلب الارض الشحيحة مخترعا من أجل سعادة الناس المحـاريث التى تجبر الأرض على الانتـاج خالقـا من

(١) اشارة الى الفكرة القائلة بأن ابليس قد اتصل بحواء .

أجلهم وسط الرخاء العميم جنات عدن التى كانوا قد فقدوها . يا للظلم الأقصى ! لم يكن آدم يحبنى ! وكانت حواء ما تزال تذكر أنها طردت من الجنة لأنها ولدتنى فمنحت قلبها الذى أغلقته المنفعة الذاتية لهابيل . وكان هو ، الطفل المدلل المتعالى ، يعتبرنى خادما لكل منهم . وكان أدوناى معه فماذا كان ينقص اذن ؟ ولذلك فبينما كنت أروى بعرقى الأرض التى كان يشعر أنه ملك عليها ، هو العــاطل المدلل ، كان هو يرعى قطعانه وهو ينعس تحت أشجار الجميز . فلما شكوت ابتهل والدانا الى عدالة الله . وقدمنا اليه قرابيننا . أما قربانى وهو باقات من القمح المبكر غرستهـــا بنفسى فقد ألقيت فى ازدراء . وهكذا كان هذا الاله الغيور يرفض دائما الذكاء المخترع الخصب ويمنح القوة مع حق الطغيان الى العقول المبتذلة . وأنت تعلم بقية القصة . ولكن ما تجهله هو أن حقد أدوناى الذى فرض على العقم قد زوج هابيل من أختنا أكلينيا التى كانت تحبنى .

ومن هنا بدأ الكفاح الأول للجن المخلوقين من النار ، الالوهيــم ضد أبناء أدوناى المخلوقين من طين .

ـ وأطفأت قنديل هابيل ... وعاد آدم الى الوجـود فيما بعد فى ذرية « شيث » . ولكى أمحو جريمتى جعلت من نفسى فاعل خير بالنسبة لأبناء آدم . وانهم لمدينون لجنسنا ، وهو أرقى من جنسهم ، بكل الفنون والصناعة وعناصر العلوم . يا للجهود الضائعة ! فحين علمناهم جعلناهم أحرارا .. ولم يغفر لى أدوناى أبدا ، كان يعتبر أن تحطيمى لآنيـــة من الفخار جريمة لا تغتفر وهو الذى أغرق فى مياه الطوفان بضعة آلاف من البشر ! هو الذى صب عليهم كل هؤلاء الطغاة ليقتل منهم العشر .

وحينئذ تكلم قبر آدم وقال الصوت العميق :

ـ « انك أنت الذى خلقت القتل . ان الله ينتقم من أبنائى من دم حواء الذى خرجت منه والذى أرقته ! وبسببك أثار الله رجال الدين الذين قتلوا الناس والملوك الذين قتلوا رجال الدين والجنود . وسوف يخلق يوما ما أباطرة يطحنون الشعوب ورجال الدين والملوك أنفسهم وسوف تقول الأجيال القادمة للأمم : « هؤلاء هم أبناء قابيل ! » .

وانتفض ابن حواء فى يأس وصاح قائلا :

ـ « هو أيضا لم يغفر لى أبدا » .

فأجاب الصوت قائلا .

ــ « أبدا ! » وسمع من أغوار الهوة السحيقة يئن قائلا :

« هابيل ، ابنى ، هابيل ، هـــابيل ! ... ماذا فعلت بأخيــك هابيل ؟ .. » .

وتدحرج قابيل على الأرض التى رنت لاصطدامه بها ومزقت تشنجات اليأس صدره .

هذا هو العذاب الذى يتعرض له قابيل لأنه أراق الدم .

واستدار أودنيرام وقد امتلأ بمزيج من الاحترام والحب والشفقة والارتياع .

وقال هينوش الجليل وهو يهز رأسه المغطى بتاج مرتفع :

« وأنا ، ماذا جنيت ؟ كان البشر يجوبون الارض كالقطعان فعلمتهم نحت الأحجار وبناء المبانى والتجمع فى المدن . وكنت أول من أوحى لهم بروح المجتمعات . لقد جمعت قطعانا من البهائم .. وخلفت ورائى فى مدينتى هينوشيا أمة مازالت أطلالهـــا تثير دهشة الاجناس المنحلة . وبفضلى يشيد سليمان معبدا لأدوناى وسوف يتسبب هذا المعبد فى موته لأن اله العبرانيين ، يابنى ، قد تعرف على ذكائى وفنى فى الاعمال التى صنعتها يداك » .

وتأمل أدونيرام هـــذا الطيف الكبير . كان لهينوش لحيـــة طويلة مضفرة . وكان تاجه المزين بشرائط حمراء وبصفين من النجوم تعلوه نقطة تنتهى بمنقار صقر . وكان ثمة شريطان « بفرنشات » ويتدليان فوق شعره ومعطفه . وكان يمســـك باحدى يديه صولجانا طويلا ويمسك بالأخرى مثلثا . وكانت قامته العملاقة تفوق فى الطول قامة أبيه قابيل . وبالقرب منه وقف « ايراد » و « مافيائيل » وقد غطيا رأسيهما بشرائط بسيطة . وكانت الأساور تلتف حول أذرعتهما . وكان الأول قد تمكن فعلا من سجن النافورات . أما الثانى فقد انتزع قشور أشجار الأرز . وكان ماتوزاييل قد اخترع حروف الكتابة وترك كتبا استولى عليها بعد ذلك ادريس الذى دفنها فى باطن الأرض . انها كتب التو .. وكان ماتوزاييل يحمل على كتفه معطف رجل الدين ويحمل على جانبه سيفا قصيرا وفى منطقته الزاهية كان رســـم T. الرمزى الذى يجمع لعمـــال المنحدرين من الجن المخلوقة من النار يلمع ببريق نارى .

وبينما كان أدونيرام يتأمل ملامح لاميش الباسمة ، وقد تغطت ذراعا هذا الأخير بجناحين مطويين تخرج منهما يدان طويلتان تستندان الى رأس شابين جالسين القرفصاء غادر طوبال ــ قابيل الفنان الذى يتولى حمايته واتخذ مكانه على عرش الحديد ٠ وقال لأدونيرام :

ــ « ها أنت ترى وجه أبى المبجل ٠ أما هؤلاء الذين يداعب شعرهم فهم أبناء آدا : يابيل الذى أقام الخيام وتعلم حياكة جلود الجمال ويوبال أخى وهو أول من شد أوتار القيثارة المثلثة والقيثارة (هارب) واستطاع استخراج الأنغام منها ٠

وأجاب يوبال بصوت منسجم النبرات كرياح المساء :

ــ يابن لاميش وسيلا ، انك أكبر من اخوتك وأنت تحكم أجدادك ٠ ومنك نبعت فنون الحرب والسلام ٠ لقد قهرت المعادن وأشعلت أول فرن للحدادة ٠ وحينما منحت البشر الذهب والفضة والنحاس والصلب استبدلتهم بشجرة المعرفة ٠ ان الذهب والحديد سوف يرفعهم الى قمة القوة والنفوذ ، وسوف يكون هذان المعدنان وبالا عليهم بحيث ينتقمان لنا من أدوناى ٠ المجد لطوبال ــ قابيل ! » ٠

ودوت من كل جانب ضوضاء مروعة ترد على صيحة التعجب تلك التى رددتها من بعيد جوقات الأقزام الذين استأنفوا أعمالهم بحمية جديدة ٠ وأخذت المطارق تدق تحت قباب المصانع الأبدية وشعر أدونيرام ٠٠ العامل ، فى هذا العالم الذى كان فيه العمال ملوكا ، بسعادة وفخر عميقين ٠

وقال له طوبال ــ قابيل : يابن الشعب الالهى : الوهيم استعد شجاعتك ان مجدك فى العبودية ٠ ان أجدادك قد جعلوا الصناعة البشرية موضع خوف وهذا هو السبب الذى صب اللعنة على جنسنا ٠ لقد قاوم جنسنا ألفى عام ولم يستطيعوا تحطيمنا لأننا من خلاصة خالدة ٠ ولكنهم نجحوا فى قهرنا لأن دم حواء يختلط بدمائنا ٠ أما أجدادك ، أى أبناء نسلى ، فقد نجوا من مياه الطوفان ٠ اذ بينما كان جنوفا وهو يعد لتحطيمنا ، يكدسهم فى خزانات السماء دعوت النار لنجدتى ودفعت التيارات السريعة نحو سطح الارض ٠ بأمرى أذابت النار الحجارة وحفرت أروقة طويلة تصلح لأن تكون لنا مأوى ٠ وكانت تلك الطرق تحت الأرضية تؤدى الى سهل الجيزة ليس ببعيد عن هذه الضفاف التى أقيمت عليها فيما بعد مدينة منفيس ٠ ولكى أحمى هذه الأروقة من غزو المياه جمعت جنس العمالقة وأقامت أيدينا هرما هائلا سوف يعيش طالما عاش

العالم • وقد تم لصق الحجارة فى هذا الهرم بقار لا ينفذ منـــه أى شىء • ولم يفتح فيه سوى دهليز ضيق يغلق بباب صغير بنيت عليه أنا نفسى جدارا فى آخر يوم من أيام العالم القديم •

« ولقد تم حفر المساكن تحت الارضية فى الصخور • وكان الدخول اليها يتم عن طريق النزول الى الهوة السحيقة • وكانت تلك المساكن تتدرج بطول رواق منخفض يؤدى الى مناطق المياه التى حبستها فى نهر كبير كفيل بارواء الناس والقطعان المختبئة فى هذا المأوى • وفيما وراء هذا النهر جمعت الفواكه التى تتغذى من الأرض فى مكان فسيح يضاء باحتكاك المعادن •

« هناك عاشت فى مأمن من المياه البقية الباقية من سلالة قابيل • وكان علينا أن نتحمل من جديد جميع التجارب التى تحملناها ومررنا بها من قبل حتى نعـود فنرى الضوء حينما تعود الميـاه الى مجاريها • وكانت تلك الطرق محفوفة بالأخطار كما كان المناخ الداخلى قاتلا • وفى أثناء حركات الذهاب والاياب تركنا فى كل منطقة بعض الزملاء • ولم يبق منا فى نهاية الأمر الا أنا وابنى الذى رزقت به من اختى نويما •

« وفتحت الهرم من جديد ولمحت الأرض • ياللتغيير الذى اعتراها! يا للصحراء •• والحيوانات الكسيحة والنباتات الذابلة والشمس الشاحبة عديمة الحـــرارة ، وهنا وهنــاك أكوام الطمى العقيم الذى تسعى فيــه الزواحف •

وفجأة هبت رياح ثلجية محملة بعفن ملوث ونفذت الى صـــدرى فجففته • ولما شعرت بالاختنــاق لفظت هذا الريح ثم عدت فاستنشقته ثانية حتى لا أموت • ولا أدرى أى سم بارد هذا الذى سرى فى عروقى فخارت قواى وانثنت ساقاى واحاط بى الليل من جميع الجهات وتملكتنى قشعريرة سوداء • لقد تغير مناخ الأرض ولم تعـــد التربة التى بردت تمتص من الحرارة ما يكفى لاحياء ما كانت تحييه فى الماضى • وكما يحدث لحوت انتزع من جوف البحار وقذف به الى الرمال شعرت بالاحتضار وفهمت أن ساعتى قد دنت ••

« ودفعتنى غريزة حب البقاء الى الهرب فلما عدت تحت الهرم فقدت وعيى • وكان الهرم هو قبرى • ولما تحررت روحى اجتذبتها النـــار الداخلية فعادت تبحث عن أرواح آبائى • أما ابنى الذى أدرك بالكادســن النضج فقد كان مازال ينمو واستطاع الحياة • الا أن نموه قد توقف •

« وأصبح ضالا كما هو مقدر على جنسنا ورأت امرأة حام (١) ، ثانى أبناء نوح ، أنه أجمل من أبناء البشر • وعرفها وأثمرت علاقتهما مولد « قوس » أبى النمرود الذى علم اخوته فن القنص وأسس مدينة بابل • وقد شرعا فى اقامة برج بابل •

تعرف أدوناى على دم قابيل وبدأ من جديد فى اضطهاده وتفرقت من جديد سلالة النمرود • وسوف يكمل صوت ابنى لك هذه القصة الأليمة » •

وتلفت أدونيرام حوله فى قلق بحثا عن ابن طوبال ـ قابيل • وتكلم من جديد أمير جن النار قائلا : « انك لن تراه أبدا فان روح ابنى لا يمكن رؤيتها لأنه مات بعـــد الطوفان ولأن هيكله الجسدى يمت الى الارض • وكذلك الأمر بالنسبة لسلالته • وان أباك يا أدونيرام ضال فى الهــواء الملتهب الذى تستنشقه • نعم أباك • ـ « أباك ، نعم أباك » هذا ما كرره كما يتردد الصدى ولكن بلهجة رفيعة صوت مر كما تمر القبلة على جبين أدونيرام •

ولما التفت الفنان أجهش بالبكاء •

وقال طوبال ـ قابيل :

ـ « طب نفسا فهو أسعد منى حالا • فقد تركك فى المهد ولما كان جسدك لا يمت بعد الى الأرض فقد سعد برؤية صورته • ولكن اصـــغ بانتباه الى كلام ابنى » •

وحينئذ تحدث صوت قائلا :

« اننى أنا وحدى من بين الجن الفانية من جنسنا الذى رأيت العالم قبل وبعد الطوفان وتأملت وجه أدوناى • وكنت أتوقع مولد أحد أبنائى حين جثمت ريح الارض العتيقة الباردة على صدرى • وذات ليلة تجلى لى الله • ان وجهه لا يمكن وصفه • وقال لى :

« تذرع بالأمل ••• »

وأجبت فى استحياء وقد خلا وفاضى من التجارب وكنت وحيدا فى عالم مجهول :

ـ أخشى يامولاى •••

---

(١) يقول التلمود انها زوجة نوح نفسه التى خلطت جنس الجن بجنس البشر حينما استجابت لاغراء جنى ••

فأردف قائلا :

ـ سوف يكون فى هذا الخوف سلامك · سوف تموت وسوف يكون اسمك مجهولا من اخوتك ولن يكون له صدى على مر العصور · ومنك سوف يولد ابن لن تراه · ومنه سوف يخرج مخلوقات تضيع وسط الجموع كما تضيع النجوم السيارة وسط السماء · يا ابن العمالقة لقد أذللت جسدك · وسوف تولد سلالتك ضعيفة وستكون حياتهم قصيرة · وسوف يتقاسمون العزلة · وسوف تحتفظ روح الجن فى صدرها بشرارتها الثمينة وسوف تكون عظمتهم سببا فى عذابهم · سوف يحسنون الى البشر لأنهم أرقى منهم كما سيكونون موضع ازدرائهم · ان قبورهم وحدها هى التى ستمجد · وسوف يجهل الناس قدرهم طيلة اقامتهم فى الارض وسيكون لديهم الشعور بقوتهم وسوف يستعملون هذه القوة لمجد الآخرين · وسوف يتأثرون لآلام البشرية ويريدون انذار الناس الا أن أحدا لن يستمع اليهم · وسوف يخضعون لألوان من النفوذ قليلة الشأن دنيئة وسوف يفشلون فى اخضاع هؤلاء الطغاة الحقراء · ورغم أن نفوسهم أعلى شأنا الا أنهم سيكونون العوبة الترف والغباء السعيد ·

وسوف يؤسسون شهرة الشعوب دون أن يشاركوا فيها فى حياتهم · وسيظلون هم وحدهم ، وهم عمالقة الذكاء وشعلات المعرفة وأجهزة التقدم وأنوار الفنون وأدوات الحرية ، سيظلون هم وحدهم عبيدا محتقرين منعزلين · ان قلوبهم الرقيقة ستكون نهبا للغيرة ونفوسهم القوية ستكون مشلولة بالنسبة للخير ·· وسوف ينكرون بعضهم البعض ·

وصحت قائلا :

ـ أيها الاله القاسى ، لا أقل من أن تكون حياتهم قصيرة وتحطم الروح الجسد ·

« كلا لأنهم سوف يغذون الأمل الذى لا ينى يخيب ثم يحيا من جديد · وكلما عملوا بعرق جبينهم بدا الناس جاحدين بالنسبة لهم · سوف يمنحون الناس جميع المتع ويحصلون على جميع الآلام · ان عبء الأعمال الذى أثقلت به كاهل بنى آدم سوف يزداد ثقلا على أكتافهم وسوف يتبعهم الفقر وستكون الأسرة بالنسبة لهم رفيقة جوع · وسواء أكانوا موالين أو ثوارا فسيكونون على الدوام موضع تحقير وسيعملون للجميع وينفقون العبقرية والصناعة وقوة أذرعهم بلا جدوى ·

وقال يهـــــوا : وتحطم قلبى ولعنت الليلة التى جعلت منىَ أبا ولفظت أنفاس ·

وراح الصوت تاركا وراءه ذيلا طويلا من التنهدات ·

واستأنف طوبال ــ قابيل حديثه قائلا :

انك تراه وتسمعه وقد قدمنالك مثالنا · لقد كنا نحن الجن الخيرون صناع معظم الانتصارات العبقرية التى يفخر بها الانسان ، كنا فى عينيه الجن الملعونة أشباح الشر · يابن قابيل تحمل مصـــيرك واحمله بجبين لا يضطرب حتى ينهار الاله المنتقم أمام ثباتك · لتكن عظيما أمام الناس وقويا أمامنا · لقد رأيتك على وشك الانهيار يابنى وأردت أن أســـاند فضيلتك · وسوف تأتى جن النار لمساعدتك · لتكن · جريئا على كل شىء فقد كرستك المقادير لفناء سليمان هذا الخادم المخلص لأدوناى · ولسوف يولد منك نسل من الملوك يعيدون اقامة الدين الذى أهمل ، دين النار العنصر المقدس ، فى مواجهة يهووا ·

وحينما تختفى من الأرض سوف يختلط اسمك بخبث العامل الذى لا يكل ، وسوف يقوم جيش العمال والمفكرين يوما بالاقلال من شأن قوة الملوك الغاشمة ، وزراء أدوناى الطغاة · اذهب يا بنى واكمل أقدارك ···

ولدى هذه الكلمات شعر أدونيرام بالحماس يملأ نفسه · واختلطت تحت أقدامه فى خط عريض من النور وفى نهر من النار حديقة المعادن وزهورها التى يخرج منها الشرر وأشجارها المخلوقة من النور والورش الهائلة المزدهرة التى يعمل فيها الاقزام والجداول المضيئة التى ينساب فيها الذهب والفضة والكاديوم (١) والزئبق والنفط · وفهم أنه يمر فى الفضاء بسرعة النجم · وأخذ كل شىء يظلم تدريجيا : وبدت له دنيا أجداده لحظة كما لو كانت كوكبا لا يتحرك وسط سماء مظلمة · وضربت ريح رطبة وجهه وشعر برعدة وتلفت بعينيه فيما حوله واستعاد رؤية نفســه وقد رقد على الرمل تحت قالب بحر الفولاذ وقد أحاطت به الحمم السائلة وقد بردت بعض الشىء وما زالت ترسل وسط ضباب الليل ضوءا صدئا ·

وقال لنفسه انه حلم ! أكان اذن حلما ؟ يا للتعس !

---

(١) معدن شبيه بالزنك ويوجد دائما معه فى طبقات الارض ·

وسمع أدونيرام صوت قطعة من الحديد تسقط • فانحنى والتقط مطرقة ثقيلة ولكنها حسنة الاتزان بالنسبة لليد • وأراد التعبير عن امتنانه الا أن الطيف كان قد اختفى وكان الفجر الوليد قد بدأ يذيب نار النجوم •

وبعد لحظة ولت الطيور التى كانت قد بدأت تغاريدها الأدبار لدى صوت مطرقة أدونيرام التى أخذت تضرب فى طرقات مزدوجة على حواف الحوض فاضطرب لها السكون العميق الذى يسبق مولد النهار •

ولقد أثر هذا المشهد فى الحاضرين تأثيرا قويا فازداد عددهم فى اليوم التالى • وتحدث الناس عن عجائب جبل قاف التى ما زال الشرقيون يهتمون بها اهتماما شديدا • أما بالنسبة لى فقد بدا لى كل هذا كلاسيكيا مثله مثل مهبط اينيوس فى الجحيم •

٨ ـ مغسل سيلو

واستأنف الراوى حديثه قائلا :

كانت تلك هى الساعة التى تلقى فيهـــا قمة الجبال المسماة بـ « تابور » ظلها الصباحى على طريق بيثانيا الصاعد • وكانت ثمة بعض السحب البيضاء الشفافة تجوب بساط السماء ملطفة من وضح الضوء الصباحى • وكان الندى ما زال يضـفى على المراعى لونا مائلا للزرقة ، وكان النسيم يصاحب بحفيفه وسط أوراق الاشجار تغاريد الطيور التى تطير على جانبى طريق موريا • ومن بعيد كانت تبدو المعاطف والثيـــاب الحريرية الخفيفة لموكب من النساء يعبر قنطرة فوق جدول أبو سيدر لكى يبلغ ضفاف جدول يمده مغسل سيلو بالمياه • وكان يسير خلف هؤلاء النسوة ثمانية من النوبيين يحملون سريرا بادى الثراء ، وجملان يسيران محملين وهما يطوحان رأسيهما يمينا ويسارا •

وكان السرير خاليا لأن ملكة سبأ كانت قد نزلت منه فقد غادرت منذ الفجر مع حاشيتها من النساء الخيام التى أصرت على الاقامة فيها مع تابعيها خارج أسوار أورشليم لكى تستمتع بسحر ذلك الريف الجميل وطراوته •

وتوجهت تابعات بلقيس وجلهن شابات جميلات ، منذ البكور الى النافورة ليغسلن ثياب سيدتهن • وقد سبقتهن هى فى ملابس فى مثل بساطة ملابسهن ، تصاحبها مربيتها حينما سارت فى اثرها تلك الشابات وهن يثرثرن فى مرح •

وقالت المربية :

ـ « ان الأسباب التى تبدينها يا ابنتى لا تأثير لها فى • ويبدو لى

هذا الزواج كما لو كان ضربا خطيرا من الجنون . واذا كان من الممكن تلمس الأعذار للخطأ فما ذلك الا للمتعة التى يقدمها » .

ـ تلك حكمة بناءة ! آه لو سمعك سليمان الحكيم ...

ـ أهى اذن من الحكمة ، بعد أن تخطى سن الشباب أن يصبو الى زهرة السبئيين ؟

ـ هذا نوع من التملق ! وانك لتبالغين فيه يا ساراحيل بطبيعتك .

ـ لا توقظى فى نفسى القسوة التى ما زالت نائمة . أود أن أقول ..

ـ قولى اذن

ـ انك تحبين سليمان وربما كنت جديرة به .

فأجابت الملكة الشابة ضاحكة :

ـ لا أدرى ولقد ساءلت نفسى جديا فى هذا الصدد وربما كان الملك يثير فى شيئا من الاهتمام .

ـ لو كان الأمر كذلك لما درست تلك النقطة الدقيقة بكل هذه العناية والتدقيق . كلا انك تهدفين الى رباط سياسى وتلقين بالزهور فوق طريق المجاملات المجدب . لقد فرض سليمان بسلطانه الجزية على بلادك وأنت تسعين الى تخليصها بأن تحصلى لنفسك على سيد فى نيتك أن تجعلى منه عبدا . ولكن خذى حذرك ...

ـ وماذا أخشى ؟ أنه يعبدنى .

ـ انه يكن لشخصه العظيم عاطفة من القوة بحيث لا تتيح لمشاعره بالنسبة لك أن تتعدى الرغبة الحسية ، وليس ثمة ماهو أو هى منها . ان سليمان عميق الفكر طموح بارد .

ـ أليس هو أعظم أمراء الارض وأنبل أبناء جنس سام الذى انحدر منه ؟ ابحثى لى ضمن أمراء الأرض عمن هو أجدر منه ينجب خلفاء لأسرة الحميريين !

ـ ان سلالة الحميرين ، أجدادنا ، تنحدر من أعلى مما تتصورين . أتتصورين أبناء سام يحكمون سكان الجو ؟ .. انى أستند الى تنبؤات العرافين .. ان أقداركما لم تتم بعد ، والعلاقة التى تتعرفين بهـــا على

زوجك لم تظهر بعد ، ولم يترجم الهدهد بعد ارادة القوى الخالدة التى تتولى حمايتك ٠

ـ أمصيرى مرتبط اذن بارادة طائر ؟

ـ انه طائر فريد فى العالم لا يمت ذكاؤه للأنواع المعروفة ٠ ولقد قال لى كبير رجال الدين ان روحه مأخوذة من عنصر النار ٠ انه ليس حيوانا أرضيا فقط وهو ينتمى الى الجن ٠

وأردفت بلقيس قائلة :

ـ حقا ان سليمان يحاول عبثا استئناسه ويقدم له دون جدوى أما كتفه أو قبضة يده ٠

ـ أخشى أنه لن يستكين عليها أبدا ٠ ففى الوقت الذى كانت فيه الحيوانات خاضعة ، وقد انقرض جنسها ، لم تكن تطيع أبدا الرجال المخلوقين من طين ٠ كانوا ينحدرون من السلالات المختلطة بين الانس والجن أو من الجن أبناء الجو والنار ٠٠ أما سليمان فهو من سلالة خلقها أدوناى من طين ٠

ـ ومع ذلك فان الهدهد يطيعنى ٠

وابتسمت ساراحيل وهزت رأسها ٠ فقد كانت مربية الملكة ، وهى أميرة من دم الحميرين وتربطهما صلة قرابة بآخر ملك من ملوكهم متعمقة فى العلوم الطبيعية : كان ما تتسم به من حذر يعادل تميزها وطيبتها ٠

وأضافت قائلة :

ـ أيتها الملكة ، ثمة أسرار تعلو على سنك ، ويجب أن تظل بنات بيتنا جاهلة بها قبل أن يتزوجن ٠ فلو أضلتهن العاطفة أو اسقطتهن فان هذه الاسرار تظل مغلقة بالنسبة لهن حتى يظل عامة الناس فى معزل عنها الى الأبد ٠ ويكفيك أن تعلمى أن الهدهد ، تلك القبرة الشهيرة ، لن يعترف بسيد سوى الزوج المكرس لأميرة سبأ ٠

ـ انك تجعليننى ألعن هذا الطغيان المغطى بالريش ٠

ـ ومع ذلك فقد يكون هو الذى سينقذك من طاغية يحمل السيف ٠

ـ لقد حصل سليمان على كلمة منى ٠ ولقد تقرر المصير ياساراحيل الا لو أردنا اثارة أحقاده الصائبة ٠ ولقد انتهت المهلة والليلة بالذات ٠

وهمهمت المربية قائلة :

-- ان قوة الآلهة كبيرة ·

ولكى تنهى بلقيس الحديث استدارت وأخذت تجمعزهور السوسن واللقاح وبخور مريم التى كانت تنثر ألوانا عديـدة على خضرة المراعى حينما أخذالهدهد الذى كان قد تبعها وهو يطير على انخفاض يحوم حولها فى خيلاء كما لو كان يطلب منها العفو ·

وأتاح توقف الملكة هذا الفرصة للنســـاء المتأخرات فى اللحاق بمولاتهن · كن يتحدثن فيمـا بينهن عن معبد أدوناى الذى اكتشـفت جدرانه وعن بحر الفولاذ موضوع جميع الاحاديث منذ أربعة أيام ·

واستولت الملكة على هذا الموضوع الجديد وأحاطت بها تابعاتها فى حب استطلاع · وكانت أشجار الجميز الكبيرة التى كانت تنشر فوق رءوسهن منظرا عربيا أخضر ذا خلفية زرقاء تحيط هذه المجموعة الساحرة من النساء بظلالها الشفافة ·

وقالت لهن بلقيس :

ليس ثمة ما يعادل الدهشة التى أخذتنا أمس مساء ·

لقد ذهل سليمان نفسه ففقد القدرة على الكلام · ومنذ ثلاثة أيام فقط اعتقد الجميع أن كل شىء قد ضاع ، وسـقط الفنان أدونيرام مصـعوقا فوق أطلال ما بناه · ولقد ذاب مجده أمام أعيننا وسط سيول الحمم الثـائرة وغاص الفنان فى العدم ·· أما الآن فان اسمه المنتصر يدوى فوق التلال وقد أقام عماله على عتبة داره كومة من السعف · انه أكبر مايكون الآن فى اسرائيل · وقال صبية (سبئية :)

ـ ان الضجة التى أحدثها انتصاره قد وصلت الى خيامنا · ولقـد جعلنا الاضطراب الذى اعترانا لذكرى الكارثة السابقة ، أيتها الملكة ، نرتعد خوفا على حياتك · ان فتياتك يجهلن ما حدث ·

ـ أدونيرام كما قيل لى لم ينتظر أن يبرد المعدن المصهور · واستدعى اليه منذ الصباح العمال الذين أثبطت شجاعتهم · وتجمع حوله رؤساؤهم الثائرون فهدأ من روعهم ببعض الكلمات ·

وانهمكوا فى العمل طيلة ثلاثة أيام · وخلصوا القوالب حتى يسرعوا بتبريد الحوض الذى كانوا يظنونه قد تهشم · لقد كان ثمة لغز عميق

يحيط بخطتهم · وفى اليوم الثالث سبق هؤلاء الصناع العديدون الفجر ورفعوا النيران والأسود الفولاذية بروافع كانت ما تزال مسودة من حرارة المعدن · وجرت تلك الكتل الصماء تحت الحوض وثبتت فى أماكنها بسرعة تمت الى المعجزات · وهكذا بدا بحر الفولاذ وقد تجوف وعزل عن حمالاته وارتكز على تماثيله الأربعة والعشرين · وبينما كانت أورشليم تشكو من تلك النفقات الباهظة عديمة الجدوى كان العمل الفنى الرائع يتألق أمام أنظار صانعيه ودهشتهم · وفجأة رفعت الحواجز التى كان العمال قد أقاموها واندفعت الجموع · وانتشرت الضجة حتى وصلت الى القصر · وخشى سليمان أن يكون فى الأمر ثورة فهرع وسرت برفقته· كان هناك جمهور غفير يندفع متبعا خطواتنا · واستقبلنا مائة ألف عامل اعتراهم جنون الفرح وتوجوا رءوسهم بسعف النخل الأخضر ·

ولم يستطع سليمان تصديق عينيه · لقد كانت المدينة بأسرها ترفع اسم أدونيرام الى عنان السماء ·

– يا للانتصار الرائع ! كم لابد أن يكون سعيدا !

– هو ! انه عبقرية فذة ·· وروح عميقة غامضة ! لقد دعوه بناء على طلبى وبحثوا عنه وهرول العمال من كل جانب ·· ولكنها كانت جهودا دون جدوى ! لقد اختفى أدونيرام ازدراء منه لانتصاره وتجنبا للمديح · كان النجم فى حالة كسوف · وقال سليمان : هيا بنا ان ملك الشعب قد صب غضبه علينا · أما أنا فقد كانت نفسى حزينة وأنا أغادر ساحة معركة العبقرية ، كما كان فكرى مضطربا لذكرى هذا الكائن البشرى الزائل العظيم بأعماله والأعظم باختفائه فى مثل هذه اللحظة ·

وقالت عذراء من سبأ :

– لقد رأيته ذات يوم يمر · ومر لهب عينيه بخدى فسبب لهما الاحمرار · ان له جلال الملوك ·

وأضافت احدى رفيقاتها قائلة :

– ان جماله يفوق جمال أبناء البشر وقامته مهيبة ومنظره ساحر · ان فكرى ليتمثل الآلهة والجن فى صورته ·

– أظن ان أكثر من واحدة منكم على استعداد لربط مصيرها بمصير أدونيرام الكريم ؟

ـ أيتها الملكة ! من نكون نحن أمام هذه الشخصية العظيمة ؟ ان روحه قد ارتفعت الى عنان السماء ولن يهبط هذا القلب الفخور الى حيث نكون ٠

وكانت أغصان الياسمين المزهرة التى تشرف عليها أشجار التربنتينا والاكاسيا وقد تخللتهـــا نخلات قلائل كانت تميل برءوسها الساهمة ، كانت تحيط بمغسل سيلو ٠ هنا كانت تنمو أشـجار الحبق والسوسن والزعتر ورعى الحمام وورد « سارون » القــانى ٠ وتحت هذه الاحراش المتشابكة من أشجار الزهور كانت تنتشر هنا وهناك مقاعد ترجع الى قرون طويلة كانت تنساب تحتها جداول الماء الرطب المنحدرة من النافورة ٠ كان هذا المتنزه محاطا بأشجار اللبـــلاب التى كانت تلتف حول الاغصان ٠ وكانت أشجار «الابيوس»(١) ذات العناقيد المحمرة المعطرة و «الجليسين» ـ السوريا ـ الزرقاء تنطلق فى تعـاريج عبقة رشيقة حتى قمم أشـجار الابنوس الشاحبة المرتعدة ٠

وفى اللحظة التى غزا فيها موكب ملكة سبأ ضفاف النافورة كان ثمة رجل يجلس على حافة الحوض وقد ترك احدى يديه لمداعبة الموج ٠ وحين فاجأه الموكب نهض بغية الابتعاد ٠ وكانت بلقيس أمامه فرفع عينيه الى السماء واستدار بمزيد من السرعة ٠

الا أنها كانت أسرع منه فوقفت أمامه معترضة طريقه وقالت :

ـ أيها الفنان أدونيرام لماذا تتحاشانى ؟

وأجاب الفنان قائلا :

ـ انى لم أحاول أبدا الاختلاط بالناس وأخشى وجه الملوك ٠

وأجابت الملكة برقة نفاذة انتزعت نظرة من الفنان الشاب :

ـ أهذا الوجه يرى فى تلك اللحظة المروعة ؟

ان ما اكتشفه كان أبعد من أن يهدىء روعه ٠ فقد خلعت الملكة مظاهر العظمة ، ولم تكن المرأة فى بساطة زينتها الصباحية الا داعية لمزيد من الخوف ٠ كانت قد حبست شعرها تحت ثنيات غلالة طويلة هفهافة ، وكان ثوبها الأبيض الشفاف وقد رفعته النسمة المستطلعة يتيح للعين أن تلمح صدرا كأنه صب داخل كأس ٠ كان شباب بلقيس فى تلك الزينة

(١) نبات ذو عناقيد عطرة الرائحة ٠ وهو من أصل كندى ولم تعرفه أوربا الا فى القرن السابع عشر ٠

البسيطة يبدو أكثر نضارة ومرحا والاحترام لم يعد يحتوى لا على الاعجاب ولا على الرغبة • لقد أحدثت تلك المفاتن التى تجهل قدرها وهذا الوجه الذى يشبه وجه الأطفال وتلك الروح العذرية فى قلب أدونيرام انطباعة جديدة عميقة •

وقال فى مرارة :

ـ ما جدوى احتجازى ؟ يكفينى ما بى من آلام • وليس لديك ماتمنحينه لى سوى مزيد من الألم • ان عقلك سطحى وودك عابر وانك لا تنصبى الفخ الا لتمعنى فى تعذيب اسراك •• الوداع أيتها الملكة • لتنسى سريعا ولا تبوحى لأحد بسرك •

وأثر هذه الكلمات الأخيرة التى نطقها أدونيرام بحزن ألقى نظرة على بلقيس • وفجأة اعترته رعدة • كانت بلقيس بحيويتها الطبيعية وعادة املاء ارادتها والقاء الأوامر لا ترغب فى أن يتركها • فتسلحت بكل مالديها من فتنة وأجابت : « انك جاحد يا أدونيرام » •

وكان هو رجلا حازما فلم يسلم : « هذا صحيح ، وربما كنت على خطأ اذ لم أذكر ذلك • فقد زارنى اليأس لساعة واحدة فى حياتى وقد استفدت أنت بتلك الساعة فأحرجتنى أمام مولاى وعدوى •

وتمتمت الملكة قائلة فى خجل وتأنيب :

ـ لقد كان هناك !

ـ كانت حياتك فى خطر فهرعت لأقف أمامك •

وقالت الأميرة ملاحظة :

ـ كل هذا الاهتمام وسط مثل هذا الخطر الجسيم ! وما هو الجزاء المنتظر !

كانت براءة الملكة وطيبتها تفرض عليها التأثر بينما كان الازدراء الذى تستحقه من هذا الرجل العظيم الذى أهانته يحفر فى قلبها جرحا داميا •

وأردف المثال قائلا :

« أما سليمان بن داود فقد كان رأيه لا يقلقنى • انه ينتمى الى جنس طفيلى حسود مستعبد متنكر تحت الأرجوان •• ان سلطانى فى مأمن

من نزواته • أما الآخرون الذين يصفقون السباب من حولى ، المائة ألف مخبـــول بلا قوة ولا فضيلة فانى آبه لهم أقل مما أهتم بخلية ذباب ذى طنين •• أما أنت أيتها الملكة ، أنت التى تبينتك وحدك وسط هذه الجموع انت التى وضعك تقديرى فى مكان حر غاية فى الارتفاع ! ان قلبى ، هذا القلب الذى لم يؤثر فيه شىء حتى الآن قد تمزق وانى لقليل الأسف لذلك •• الا أن مجتمع الناس قد أصبح لا يطاق بالنسبة لى • اذ ماجدوى المدائح أو الاهانات التى تتوالى من قريب وتختلط على نفس الشفاه كما يختلط العلقم بالشهد !

ــ انك قاس بالنســـبة للندم • هل يجب أن أناشدك الرحمة ؟ ألا يكفى ••

ــ كلا ، انه النجاح الذى تراودينه • ولو أننى كنت ملقى على الأرض لداس قدمك على جبينى •

ــ الآن ؟ •• أقول لك بدورى كلا وألف مرة كلا •

ــ حسن ! اتركينى اذن أحطم عملى وأشوهه وأعود فأضع الخزى والعار على رأسى • وسوف أعود تتبعنى صيحات ازدراء الجموع • ولو ظل فكرك وفيا لى فسيكون عارى هو أجمل يوم فى حياتى •

وصاحت بلقيس قائلة فى حماس لم تجد الوقت لكتمانه :

ــ اذهب وافعل ذلك !

ولم يستطع أدونيرام السيطرة على صيحة الفرح التى صدرت منه وبدأت الملكة تتبين نتائج مثل هذا الارتباط المخيف • كان أدونيرام يقف فى جلال أمامها لافى ثياب العمال العــادية ولكن فى الثياب التى تحتمها رتبته على رأس جمهور العمال • كان يلبس معطفــا قصيرا أبيض وحينما كانت منطقة عريضة محلاة بالذهب ترفع من قامته • وكان يلف ذراعه الأيمن بثعبان من الصلب تحلى قمة رأسه ياقوته متألقة• وكان يغطى رأسه بغطاء قمعى الشكل يتدلى الى منتصف وجهه ويتدلى منه شريطان يهبطان على صدره • كان جبينه يبدو كما لو كان يحتقر التاج •

وفى لحظة ما انساقت الملكة وراء الأوهام فيما يختص بمكانة هذا الرجل الجرىء • وما لبث أن عاد اليها صوابها وتمكنت من كبح جماح نفســها ولكنها لم تستطع التغلب على الاحترام الغريب الذى شعرت به يتملكها •

وقالت له :

ـ اجلس ، ولنعد الى مشاعر أكثر هدوءا حتى ولو ثار لذلك عقلك المتحدى . ان مجـــدك غال على ، فلا تحطم شيئا . ان تلك التضحية قد قدمتها وقـد قمت أنا باستهلاكها . ان سعادتى ســـوف تتعرض للخطر لذلك ، وأنت تعلم أيهـا الفنان ان سمعتى قـد أصبحت مرتبطة بكرامة الملك سليمان .

ـ وتمتم الفنان فى لامبالاة :

ـ كنت قد نسيت ذلك . ويبدو لى أنى سمعت من يقول ان ملكة سبأ سوف تتزوج من ابن مغامرة من بنات مؤاب ، ابن الراعى داود بشمشبع أرملة أوربا الحثى الزانية . ياللرباط العظيم .. الذى لابد أن يجدد دم الحميريين المقدس !

واحمر خدا الملـــكة الشابة حمرة شديدة لا ســـيما وأن مربيتها ساراحيل ، بعد أن وزعت الأعمال على تابعات الملكة اللاتى اصطنعن وانحنين على المغسل ، قد سمعت هذه الاجابة وهى التى تعارض مشروع سليمان معارضة شديدة . وردت الملكة فى ازدراء مصطنع :

ـ ألا يحظى هذا الرباط بتأييد أدونيرام ؟

ـ بل ان الأمر على العكس من ذلك ، وأنت ترين ذلك جيدا .

ـ كيف ؟

ـ لو أنه كان لا يروق لى لكنت قد أنزلت سليمان من فوق عرشه ولعاملته كما سبق أن عاملتنى . وأظن أنك فى تلك الحالة لن تفكرى فى ذلك لأنك لا تحبينه .

ـ وما الذى يحملك على الاعتقاد فى ذلك ؟

ـ انك تشعرين بتفوقك عليه . ولقد أذللته وهو لن يغفر لك ذلك ، والكراهية لا تولد الحب .

ـ ان كل هذه الجرأة ..

ـ ان المرء لا يخشى الا من يحبه

وشعرت الملكة برغبة مروعة فى أن تكون موضع خشية .

ان فكرة أحقاد ملك العبرانيين ، الذى انساقت معه حتى الآن فى

حرية تامة ، لم تعطها حتى الآن أذنا صاغية واستنفذت فيها مربيتها كل ما تملك من بلاغة · أما الآن فان هذا الاعتراض يبدو لها أميل الى الحق فعادت اليه بهذه العبارة :

ــ ليس من الجدير بى الاستماع الى غمزاتك ضد مضيفى و ··

وقاطعها أدونيرام قائلا :

ــ أيتها الملكة ، اننى لا أحب الناس وانى أعرفهم · أما هـذا فقد خبرته لسنوات طويلة · انه يبدو فى فراء حمل وديع ولكنه نمر قد لجمه رجال الدين وهو يقرض لجامه فى هدوء وبطء · وقد اكتفى حتى الآن بقتل أخيه أودنياس : هذا قليل ولكن ليس له أقارب آخرين ·

وصبت ساراحيل الزيت على النار قائلة :

ــ قد يعتقد المرء حقا أن الفنان أدونيرام يغار من الملك · وكانت تلك المرأة تتأمله منذ لحظة فى اعجاب ·

وأجاب الفنان قائلا :

ــ سـيدتى ، لو لم يكن سليمان من جنس أقـل من الجنس الذى أنتمى اليه لخفضت نظراتى نحوه · الا أن اختيار الملكة يبين لى أنها لم تخلق لشخص آخر ··

وفتحت ساراحيل عينيها فى دهشة ، وذهبت فوقفت خلف الملكة وحينئذ لاحت لها فى عينى الفنـان علامة غريبة لم تفهم كنههـا ولكنها جعلتها ترتعد ·

وصاح أدونيرام من جديد قائلا وهو يضغط على كل كلمة :

ــ أيتها الملكة ان اتهاماتى التى لم تحدث فيك أى تأثير قد وضحت ظنونى · وسوف أمتنع من الآن فصاعدا عن الاضرار فى ذهنك بهذا الملك الذى لا يحتل فيه أى مكان ·

ــ وبعد أيها الفنان ، ماجدوى الضغط على هكذا ؟ هب أننى لا أحب الملك سليمان ·

وقاطعها الفنان قائلا بصوت منخفض وفى تأثر :

ــ قبل حديثنا كنت تعتقدين أنك تحبينه ·

وابتعدت ساراحيل واستدارت الملكة وقد اعتراها الاضطراب ٠

ــ آه ! بربك ياسيدتي لنكف عن هذه الأحاديث :

انها الصاعقة تلك التي أصبها فوق رأس ! ان كلمة تائهة فوق شفتيك تخفى عنى اما الحياة واما الموت ٠ آه ! لا تتكلمى ! لقد جاهدت للوصول الى تلك اللحظة الجليلة وها أنا نفسى أبعدها ٠ دعى لى الشك فقد هزمت شجاعتى وان أوصالى لترتعد ٠ هذه التضحية ينبغى أن أعد نفسى لها ٠ ياللأسف ، ان كل هذا الرونق وهذا الشباب وهذا الجمال يتألق فيك ! ٠٠ ومن أكون بالنسبة لك ؟ لا لا ، حتى لو كلفنى الأمر فقدان سعادة لا أمل فيها فاحبسى أنفاسك التى ربما تقذف الى أذنى بكلمة قاتلة ٠ ان هذا القلب الضعيف لم يخفق أبدا ولذا فان أول قلق يعتريه يحطمه ويبدو لى اننى على وشك الموت ٠

ولم تكن بلقيس بأكثر ثقة منه ٠ وألقت نظرة خاطفة على أدونيرام فرأت هذا الرجل بالغ القوة والنفوذ والاعتزاز قد أصبح شاحبا وقد وقف فى احترام وبلا قوة ورفرف شبح الموت على شفتيه ٠ واختفى العالم أمام ناظرى الملكة وسط شعورها بالنصر وتأثرها وسعادتها وارتعاد أوصالها ٠ ونمتمت تلك الفتاة الملكية قائلة : ــ ياللأسف ! أنا أيضا لم أحب من قبل ٠

وضاع صوت الملكة دون أن يجرؤ أدونيرام ، وسط خوفه من أن يستيقظ من حلمه ، على اقلاق هذا السكون ٠

ولم تلبث ساراحيل أن اقتربت ، وأدرك كلاهما أن لا بد من الكلام والا خانت كل منهما مشاعره ٠ وكان الهدهد يطير هنا وهناك حول المثال الذى سارع بالتقاط هذا الموضوع ٠ وقال بلهجة شاردة :

ــ كم هو متألق ريش هذا الطائر ! اتملكينه من مدة طويلة ؟

وتولت ساراحيل الاجابة دون أن تشيح بعينيها عن النحات أدونيرام : « ان هذا الطائر آخر سلالة جنس يسيطر عليه كما يسيطر على جميع سكان الجو جنس الجن ٠ ولا يدرى أحد أية معجزة تلك التى حافظت على حياة الهدهد وهو منذ وقت لا يعلمه أحد لا يطيع الا أمراء الحميريين ٠٠ وبواسطته تجمع الملكة كلما أرادت جميع طيور السماء » ٠

وأحدث هذا الخبر الذى أسرت به المربية أثرا غريبا فى ملامح أدونيرام الذى أخذ يتأمل بلقيس بمزيج من الفرح والتأثر ٠

وقالت الملكة :

ــ انه حيوان غريب الأطوار • وعبثا غمره سليمان بمداعباته وبقطع الحلوى فقد كان الهدهد يتجنبه في اصرار ولم يتوصل لحمله على الوقوف على قبضة يده •

وفكر أدونيرام لحظة ، وبدا متأثرا لفكــــرة طرأت عليه وابتســـم • وأولته ساراحيل مزيدا من الاصغاء •

ونهض أدونيرام ونطق اسم الهدهد الذى كان قد حط على أحـــد الأحراش • وظل الطائر ساكنا ينظر اليه من جانب عينه • وسار الفنان خطوة ورسم فى الهواء علامة تو T الغامضة ففرد الطائر جناحيه وطار فوق رأسه ثم هبط فى استكانة فى قبضة يده •

وقالت ساراحيل :

ــ لقد كانت شكوكى فى محلها : لقد تحققت النبوءة •

ــ يا أطيــاف أجدادى المقـــدسة ! يا أبى طوبال ــ قابيل ! انكم لم تخدعونى أبدا ! بلقيس أيها الروح المخلوق من نور ، يا أختى وقرينتى! أخيرا عثرت عليك • اننا وحدنا أنت وأنا اللذان نسيطر على هذا الرسول الطائر لجن النار الذين ننحدر منهم •

ــ ماذا ! يا الهى ، أيكون أدونيرام ••

ــ اننى آخر سلالة كوس حفيد طوبال ــ قابيل الذى تنحدرين منه عن طريق سبأ شقيق النمرود صياد الحميريين وثالث أجدادهم •• ان سر أصلنا ينبغى أن يظل مغلقا على أبناء سام الذين عجنوا بطين الأرض •

وقالت بلقيس وهي تمد اليه يدها :

ــ ينبغى لى أن أنحني أمام مولاى مادامت الأقدار لا تبيح لى تقبيل أى حب غير حب ادونيرام •

وأجاب وهو يسقط تحت قدميها :

ــ اننى لا أود تقبل مثل هذه النعمة الغالية الا من بلقيس وحدها ! لقد طار قلبى للقـــاء قلبك ومنذ الساعة التى ظهرت لى فيها أصـــبحت عبدا لك •

ولعل هذا الحديث كان يدوم وقتا طويلا لو أن ساراحيل بما منحه

لها سنها من حــذر لم توقفه بهذه العبارة : « فلتؤجلا تلك الاعترافات العاطفية اذ ثمة صعاب جمة سوف تنهال عليكما وأكثر من خطر يتهددكما ٠ ان أبناء نوح هم سادة العالم بأمر أودناى ٠ وسلطانهم يمتد الى حياتيكما الفانيتين ٠ ان سليمان ملك مطلق فى بلاده التى تتبعها بلادنا وتدين لها بالجزية ٠ وجيوشه مهابة وغروره شديد ٠ ويتـــولى أودناى حمــايته وله جواسيس عديدون ٠ لنبحث عن وسيلة لوضع حد لاقامتهـــا المحفوفة بالمخاطر لديه ، وحتى ذلك الحين لنلزم جانب الحذر ٠ ولا تنس يا ابنتى أن سليمان ينتظرك هذا المساء فى هيكل صهيون ٠٠ ان تحللك من وعدك وقطعك لعلاقتك به سوف يثيره ويؤلب شكوكه ٠ لتطلبى مهلة اليوم فقط بحجة ظهور فأل مضاد ٠ وغدا سوف يعطيك الكاهن الكبير حجة جديدة ٠ ان بحثك يجب أن ينصب على تهــدئة صبر ســليمان العظيم ٠ أما أنت يا أدونيرام فلتغادر الآن خادماتك فان الصباح يتقدم وقد غطى الجدار الجديد الذى يشرف على نبع سيلو بالجنود ، وسوف تحول الشمس التى تسعى الينا أنظارهم جهتنا ٠ وحينما ينفذ القمر الى الســـماء فوق تلال افرايم اعبر نهر ابوسيدر واقترب من مخيمنا حتى تبلغ خميلة أشجار الزيتون التى تحجب الخيام عن سكان التلين ٠ وهناك سوف نستوحى النصائح من الحكمة والتفكير » ٠

وافترقوا آسفين ٠ أما بلقيس فلحقت بتابعاتها وأما أدونيرام فقد تبعتها أنظاره الى اللحظة التى اختفت فيها تحت أوراق أشجار غار الورد ٠

٩ ـ الرفاق الثلاثة

واستأنف الراوى حديثه فى الجلسة التالية قائلا :

أخذ سليمان والكاهن الكبير للعبرانيين يتحدثان منـذ بعض الوقت تحت ساحة المعبد ٠

وقال الكاهن صادوق لمليكه :

ـ يجب ذلك ، ولن تستفيد من موافقتى على هذا التأجيل الجديد ٠ اذ كيف تحتفل بالزواج والخطيبة غائبة ؟

وأردف الأمير قائلا وهو يرسل تنهيدة :

ـ أيها الكاهن المبجل صـادوق ، ان تلك التأجيلات المخيبة للرجاء تؤثر فى أكثر مما تؤثر فيك ومع ذلك فانى أتحملها فى صبر ٠

وقال الكاهن اللاوى وهو يمر بيده الجافة الشـاحبة التى تشوبها عروق زرقاء على لحيته الطويلة البيضاء المنقسمة الى قسمين :

ـ لحسن الحظ ، أما أنا فلست عاشقا ٠

ـ ولذا فينبغى أن تكون أكثر هدوءا ٠

وأردف صادوق قائلا :

ـ ماذا ؟ منذ أربعـة أيام ورجـال الجيش واللاويون رجال الدين اليهودى على قدم وساق ، والقرابين المتطوعة على تمام الاستعداد ، والنار تشتعل بلا جدوى فى الهيكل ، وفى اللحظة المنتظرة لاقامة الحفل نضطر

لتأجيل كل شيء • ان الكهنة والملك تحت رحمة نزوات امرأة أجنبية تسرح بنا من حجة لحجة وتلعب بما لدينا من سرعة تصديق •

ان ما كان يجرح كبرياء الكاهن الكبير هو أنه كان يرتدى كل يوم دون جدوى الزينات الكهنوتية ثم يضطر بعد ذلك لخلعها دون أن يظهر أمام أعين رجال بلاط السبئيين الفخامة الكهنونية لاحتفالات اسرائيل. كان يروح ويجيء فى اضطراب بطول الساحة الداخلية للمعبد بثيابه الرائعة أمام سليمان الحزين •

وكان صادوق قد ارتدى لهذه المناسبة الجليلة ثوبه المصنوع من الكتان ومنطقته المطرزة والثوب الكهنوتي ـ ايهود ـ مفتوح فوق كل من كتفيه : وله مطعف من الذهب والياقوت والقرمز تتألق فوقهعقيقتان نحت فوقهما النحات أسماء القبائل الاثنتى عشرة . وكان «الراسيونال»(١) المعلق فى شرائط من الياقوت وحلقاتمن الذهب المنقوش يلمع فوق صدره • كان مربعا وطوله شبرا ومطرزا بصف من اليشب(٢) الأحمر والزمرد الأصفر والزبرجد ، وبصف ثان من البهرمان (٣) واللازورد وأنواع اليشب ، ثم بصف ثالث من اليواقيت وحجر الجمشت والعقيق ، وأخيرا بصف رابع من أنواع الزبرجد والعقيق • وكان معطف « الأيهود » ذا لون بنفسجى فاتح ، مفتوحا من الوسط ومطرزا برمانات صغيرة من الياقوت والقرمز بينها صفوف من الجلاجل الصغيرة من الذهب دقيق الصنع • وكانت جبهة الكاهن محاطة بتاج كهنوتى ينتهى بهلال ، وبنسيج من الكتان مطرز باللؤلؤ ويتألق فى الجزء الأمامى منه خنجر من الذهب المطلى باللون البنى وقد ربط بشريط فى لون العقيق ، وكان الخنجر يحمل الكلمات الآتية وقد حفرت حفرا عميقا : أدوناى مقدس (٤) •

وكان الأمر يحتاج لساعتين من الزمن وستة من الخدم لاعادة تلبيس صادوق هذه الملابس القدسية المتصلة بسلاسل صغيرة وعقد خفية ومشابك من الذهب • كان هذا الثوب مقدسا ، ولم يكن من المسموح لمسه الا لليهود اللاويين • وأدوناى نفسه هو الذى أملى رسمه على موسى بن عمران خادمه•

---

(١) يصب أو يصف أو يشب أو يشف حجر كريم بعضه بنى أو فى لون الدم •

(٢) نوع من الياقوت •

(٣) قطعة مربعة من القماش تحمل اثنى عشر حجرا تمثل القبائل البدائية ويرتديها كبير الكهنة فى المناسبات الكبرى •

(٤) هذا التفصيل مشتق من التوراة (خروج اليهود ٢٨) •

وهكذا فمنذ أربعة أيام والزينات الكهنوتية تتلقى اهانة يومية على كتفى صادوق الكاهن المبجل الذى تثيره تلك الاهانات لاسيما أن العار أصبح أكثر حدة لأنه وافق على زواج سليمان من ملكة سبأ على الرغم منه ·

كان ذلك الرباط يبدو له خطيرا على دين العبرانيين وقوة رجال الدين· لقد كانت الملكة بلقيس مثقفة ·· وكان يرى أن الكهنة السبئيين قد أتاحوا لها معرفة كثير من الأشياء التى ينبغى أن يجهلها أى ملك تربى تربية حذرة · وكان يتوجس شرا من نفوذ ملكة ضليعة فى فن حكم الطيور · لقد كان الكهنة دائما غير راضين عن هذه الزيجات التى تعرض الدين للأذى الدائم الصادر من الزوج الشاك · وكان صادوق الذى بذل جهدا كبيرا للتهدئة من غرور العلم لدى سليمان باقناعه بأن لم يعد ثمة ما يتعلمه ، كان يرتعد فرقا من أن يعلم الملك كثيرا من الأشياء مازال يجهلها ·

ولقد كان على حق فى تلك الفكرة لا سيما أن سليمان قد بدأ بالفعل يفكر فى ذلك ووجد أن وزراءه أقل لباقة وأكثر طغيانا من وزراء الملكة · لقد تزعزعت ثقة ابن داود ، وأصبح له فى كل يوم أسرار يخفيها عن صادوق ولم يعد يستشيره فى شيء · ومن المؤسف فى البلاد التى يرتبط فيها الدين بالكهنة ويتجسد فيهم أنه فى اليوم الذى يسقط فيه الكاهن الأكبر ، وكل انسان فان ، فان الدين ينهار معه وحتى الله نفسه فانه يختفى مع مساعده المتكبر الجبار ·

ولقد ظل صادوق متماسكا دون عناء رغم يقظته وكآبته وذلك لانه لم يكن متعمقا اذ أنه كان ينعم بأن ليس فى جعبته سوى القليل من الأفكار · كان يوسع تفسير القانون فى صالح عواطف الملك ، وكان يبرر تلك العواطف بالمجاملات الخاطئة الدنيئة الا أنها متمشية مع الشكليات · وهكذا كان سليمان يخضع للغير فى استسلام ·· أما أن تأتى فتاه من اليمن وطائر ملعون فيهددان بهدم بناء ثقافة على هذا القدر من الحذر فتلك هى الفكرة التى لم يكن ليقبلها !

أيتهمهما بالسحر ؟ ألا يكون فى ذلك اعتراف بقدرة العلوم الخفية التى ينكرها فى ازدراء ؟ لقد كان صادوق فى حيرة حقيقية · وكانت له ديما عدا ذلك هموم أخرى فقد كان النفوذ الذى يمارسه أدونيرام على العمال يقلق الكاهن الأكبر الذى كان على حق فى خشيته من حدوث سيطرة خفية متآمرة · ومع ذلك فقد كان صادوق يمنع على الدوام تلميذه الملكى من فصل الفنان الوحيد القادر على اقامة أجمل معبد فى العالم للاله أدوناى

الى جذب اعجـــاب جميع شـــعوب الشرق وقرابينهم تحت أقدام هيكل أورشليم • وكان صادوق ينتظر نهاية الاعمال لكى يتخلص من أدونيرام واكتفى حتى ذلك الحين باثارة الريبة الكئيبة لدى سليمان • ولقد ساءت الأوضاع منذ بضعة أيام فلقد اختفى أدونيرام كما نذكر وهو فى أوج انتصاره غير المتوقع والمستحيل والمعجز •

وكانت تلك الغيبة تدهش رجال البلاط جميعا فيما عدا الملك على مايبدو لأنه لم يثر هذا الموضوع قط مع كاهنه الأكبر وهو تحفظ غير معتاد منه •

وهكذا رأى المبجل صادوق أنه أصبح عديم الجـدوى فصمم على أن يظل ضروريا ، فاضطر الى أن يمزج نبوءاته الغامضة ذات اللهجة الطنانة الرنانة بنبوءات أخرى يخفيها بحيث يثير خيال الأمير • وكان سليمان يحب الخطب ، لاسيما وأنها كانت تتيح له فرصة تلخيصها فى ثلاثة أو أربعة أمثـــال • أما فى تلك الحالة فان الخطب ذات اللهجة الانشائية التى كان يلقيها الحبر الكبير بدلا من أن تقاس على المعلومات الدينية التى يقدمها صادوق كانت تدور حول أهمية رأى الاســتاذ وحـول عدم الثقة وتعاسة الملوك اذا أسلموا أنفسهم للحيل الماكرة والكذب والمصلحة الذاتية • ثم كان صادوق وسط اضطرابه ينطوى فى أعماق غير المفهوم •

وقال سليمان : ــ رغم أنك تتحدث حديثا رائعا فانى لم آت للقائك فى المعبد للاستماع لهذه البلاغة : يالتعاسة الملك الذى يتغذى بالكلام ! وسوف يأتى الى هنا الآن ثلاثة رجال مجهـــولين يطلبون الاستماع الى وسوف أستمع اليهم لأنى أعلم خطتهم • وقد اخترت هذا المكان لهذه الجلسة فقد كان من المهم أن يظل مسعاهم سرا •

ــ ومن هم هؤلاء الرجال يامولاى ؟

ــ انهم أناس يعلمون ما يجهله الملوك • ويستطيع المرء معهم أن يتعلم الكثير •

وما لبث ثلاثة صناع أن أدخلوا الى الفناء الداخلى للمعبد وانحنوا تحت أقدام سليمان • كانت هيئتهم تنم عن الاكراه وأعينهم قلقة •

وقال لهم سليمان :

ــ أرجو أن أسمع الصدق من شفاهكم ولا تأملوا فى فرض أى شيء

على الملك فان أشد أسراركم خفية معروفة لديه · أنت يافانور ، انك عامل بسيط في هيئة البنائين ، وأنت عدو لأدونيرام لأنك تكره تفوق عمال المعادن · ولكي تهدم عمل رئيسك خلطت الأحجار القابلة للاحتراق بطوب أفرانه · وأنت يا عمرو ، انك عامل من عمال النجارة وقد غمرت عروق الخشب في اللهب لاضعاف قاعدة بحر الفولاذ · أما أنت ياميتوازييل فأنت عامل معادن من قبيلة روبين وقد أثرت المعادن المنصهرة بأن أضفت اليها حمما كبريتية احضرتها من ضفاف بحيرة عمورية · أنتم الثلاثة كنتم تهدفون دون جدوى الى لقب الرؤساء ورواتبهم · ها أنتم ترون أن نظرتي الثاقبة تستشف أسرار أكثر أعمالكم سرية ·

وأجاب فانور في هلع :

ــ أيها الملك العظيم انها وشاية من أدونيرام تلك التي ضيعتنا ·

ــ ان أدونيرام يجهل المؤامرة التي لا يعلمها سواي · واعلموا أن شيئا لا يخفى على فطنة من يحميهم أدوناي ·

واستدل سليمان من الدهشة التي اعترت صادوق على أن كاهنه الأكبر لا يعول كثيرا على رعاية أدوناي ·

وأردف الملك قائلا :

ــ ان اخفاءكم للحقيقة ليس اذن الا ضياعا لكم ، وما سوف تذكرون معروف لدى · ان وفاءكم هو الذى أصفه موضع الاختبار · وليكن عمرو أول المتكلمين ·

وقال عمرو وقد اعتراه خوف لا يقل عن خوف شريكيه في الجريمة :

ــ مولاى لقد راقبت الورش والساحات والمصانع مراقبة تامة · ولم يظهر أدونيرام فيها مرة واحدة ·

وأكمل فانور الحديث قائلا :

ــ أما أنا فقد خطرت لى فكرة الاختفاء ، حين هبط الظلام ، في قبر الأمين أبسالون بن داود على الطريق المؤدى من موريا الى مخيم السبئيين · وفى نحو الساعة الثالثة من الليل مر أمامى رجل يرتدى ثوبا طويلا ويضع على رأسه عمامة كتلك التي يرتديها اليمنيون · وتقدمت وتعرفت فيه على أدونيرام · كان متجها الى خيام الملكة · ولما كان قد لمحنى فلم أجرؤ على اقتفاء أثره ·

واصل ميتوازاييل بدوره الحديث قائلا :

ـ مولاى انك تعلم كل شيء والحكمة كامنة فى عقلك • وسوف أتكلم بكل اخلاص • فاذا كان ما سأسر به من شأنه أن يكلف من ينفذون الى تلك الأسرار المروعة حياتهم فتكرم بابعاد رفيقى حتى لا يسقط قولى الا على وحدى •

وما أن رأى عامل المناجم نفسه وحده فى حضرة الملك والكاهن الأكبر حتى سجد أمامه قائلا :

ـ مولاى مد صولجانك حتى لا أموت •

ومد سليمان يده وأجاب قائلا : ـ ان نيتك الحسنة تنقذك فلا تخش شيئا ياميتوزاييل يا بن قبيلة روبين !

ـ لقد أخفيت جبينى فى قفطان وصبغت وجهى بلون قاتم وساعدنى الليل على الاختلاط بالخصيان السود الذين يحيطون بالأميرة • وقد تسلل أدونيرام فى الظلام حتى وصل تحت قدميها وقد حدثها طويلا • وقد نقلت رياح الليل الى أذنى نبرات حديثهما • وقد قفلت راجعا قبل الفجر بساعة وكان أدونيرام مازال مع الأميرة •

وكظم سليمان غيظه ورأى ميتوزاييل دلائل الغيظ فى حبات عينيه • فصاح به قائلا :

ـ أيها الملك لقد كانت الطاعة من واجبى ولكن اسمح لى ألا أضيف شـيئا •

ـ استمر ! انى آمرك •

ـ مولاى ان مصلحة مجدك عزيزة على رعاياك • ولأمت اذا لزم الأمر الا أن مولاى لن يكون ألعوبة فى يد هؤلاء الأجانب الخونة • ان كبير كهنة السبئيين والمربية واثنين من نساء الملكة يعلمون أسرار هذا الحب • واذا كنت قد فهمت مايدور فان أدونيرام ليس هو مايبدو • انه يملك كما تملك الأميرة قدرة سحرية • وهذه القدرة هى التى تمكنها من السيطرة على الطير وتمكن الفنان من السيطرة على أشباح النار • ومع ذلك فان هذين المحظوظين يخشيان سلطانك على الجن وهو سلطان منح لك دون علمك • وتحدثت ساراحيل عن خاتم مرصـع شرحت خصائصه للملـكة المندهشة

وأسفوا فى هذا الصدد على هدهد بلقيس · ولم أستطع تبين قلب الحديث لأنهم خفضوا أصواتهم وخشيت الضياع اذا تقدمت قريبا جدا منهم · وما لبثت ساراحيل والكاهن الأكبر والتابعتان أن انسحبوا جميعا وهم يثنون ركبهم أمام أدونيرام الذى ظل ، كما سبق أن قلت ، وحده مع ملكة سبأ · أيها الملك ! انى أطمع فى عفوك لأن الخديعة لم تقترب من شفتى !

ـ بأى حق تريد سبر غور نوايا مولاك ؟ ومهما يكن حكمنا فسيكون عادلا ·· ليسجن هذا الرجل فى المعبد مع رفيقيه على ألا يتصل أحد بهما حتى اللحظة التى نتصرف فيها فى مصائرهم ·

من ذا الذى يستطيع وصف ذهول الكاهن الأعظم صادوق حين قام البكم الذين ينفذون ارادة سليمان فى سرعة وسرية بجر ميتوزاييل وقد اعتراه الهلع ·

وأردف الملك قائلا فى مرارة :

ـ ها أنت ترى أيها المبجل صادوق أن حرصك لم ينفذ الى أى شىء · لقد أصم أدوناى أذنيه عن صلواتك ولم تؤثر فيه قرابيننا فلم يتنازل بانارة بصيرة خدامه · وقد تمكنت أنا وحدى بفضل قواى الخاصة بكشف خطة أعدائى · ومع ذلك فهم يسيطرون على قوى خفية ولهم آلهة مخلصون· أما أنا فالهى قد تخلى عنى !

ـ لأنك تحتقره وتسعى الى الارتباط بامرأة غريبة · أيها الملك انزع من نفسك شعورا غير طاهر وسوف يسلم اليك أعداؤك · ولكن كيف السبيل الى الامساك بأدونيرام الذى يملك القدرة على الاختفاء وعلى الملكة التى يحميها حق الضيافة ؟

ـ ان الانتقام من امرأة لأمر تحت مستوى كرامة سليمان · أما عن شريكها فسوف تراه يظهر بعد لحظة · فقد طلب منى هذا الصباح موعدا للمقابلة وانى أنتظره فى هذا المكان ·

ـ ان أدوناى راض عنا · أيها الملك ! انه لا ينبغى أن يخرج من هذا السور !

ـ اذا حضر الينا دون خوف فتأكد أن المدافعين عنه ليسوا ببعيد · ولكن لنتجنب الاندفاع الأعمى ، ان هؤلاء الرجال الثلاثة ألد أعدائه وقد أفسد الحسد والحقد قلوبهم · وربما يكونون قد وشوا بالملكة ·· اننى أحبها يا صادوق ولن أوجه الى تلك الاميرة اهانة الاعتقاد فى تدنسها بتلك

العاطفة المهينة بناء على كلام هؤلاء التعســاء الثلاثة • ولكنى كنت أخشى مؤامرات أدونيرام الخفية وهو الذى يتمتع بنفوذ كبير على الشعب ولذا فقد أمرت بمراقبة هذه الشخصية الغامضة •

ـ أتفترض اذن أنه لم ير الملكة ؟

ـ انى مقتنع بأنه تحدث اليها سرا ، فانها محبة للاستطلاع متحمسة للفنون طموحة للشهرة وهى مدينة بالولاء لتاجى • هل تكون خطتها هى الاستيلاء على الفنان واستخدامه فى بلادها فى مشروع رائع أو الاستعانة به فى تجنيد جيش يقاوم جيشى وتتحرر بذلك من الجزية ؟ لست أدرى •• أما فيما يختص بحبهما المدعى ألم أحصل على وعد الملكة ؟

ومع ذلك فانى أوافق بأن واحدا فقط من هــذه الافتراضات كفيل باثبات أن هذا الرجل خطير •• وسوف أحذر •

وبينما هو يتحدث بتلك اللهجة الحازمة أمام صادوق الذى أحزنه أن يرى هيــكله موضع ازدراء وتأثيره يتبدد عاد البكم فظهروا بغطاءات رءوسهم البيضاء ذات الشكل البيضاوى وستراتهم المصنوعة من قشور الاسماك وأحزمتهم العريضة التى يتدلى منها سيف صغير وخنجر مقوس• وتبادلوا الاشارة مع سليمان وظهر أدونيرام على عتبة المعبد • وقد تولى ستة رجال من أتباعه حراسته حتى هذا المكان ، وأسر اليهم ببعض الكلمات فى صوت منخفض فانسحبوا •

١٠ ـ اللقـــاء

وتقدم أدونيرام فى خطى بطيئـة وبوجه مطمئن حتى بلغ الكرسى الضخم الذى يجلس عليه ملك أورشليم • وبعد أن حيا فى احترام انتظر الفنان كما جرى عليه العرف أن يشجعه سليمان على الكلام •

وأخيرا قال له الأمير : « أخيرا تكرمت أيها الفنان ردا على تمنياتنا ، ومنحتنا فرصة تهنئتك بانتصار ••• لم يكن أحد يأمل فيه وأن نعبر لك عن امتناننا • ان العمل الذى قمت به جدير بى وجدير بك بل هو يفوق ذلك . أما عن مكافأتك فلا يمكن أن تكون فى مثـــل هذا العمـــل . ولتحددها أنت نفسك • ما الذى تتمنى على سليمان ؟

ـ انى أطلب اعفائى يا مولاى • ان الأعمال توشك على النهاية ، ومن المستطاع انهاؤها بدونى • ان مصيرى فى أن أجوب العالم ، وهذا المصير يدعونى تحت سماء أخرى • ولذا فانى أضع بين يديك السلطة التى قلدتنى اياها • ان مكافأتى هى الأثر الذى أتركه والشرف الذى حصلت عليه فى التعبير عن مشاريع ملك عظيم مثلك •

ـ ان طلبك هذا يؤسفنا • وقد كنت آمل فى الاحتفاظ بك بيننا فى مركز كبير بالبلاط •

ـ ان طباعى لا تتناســـب مع كرمك • فان اســـتقلالى بطبيعتى انعزالى بطبيعة فنى ، لا آبه لمظاهر العظمة التى لم أخلق لها ولذا فانى لو بقيت فما أكثر ما أضع تسامحك موضع الاختبار • ان الملوك ذوو أمزجة غير متعادلة ؛ ان الحسد يحيط بهم ويخاصرهم ، والحظ غير ثابت على حال واحدة ولطالما عرفت ذلك من تجاربى • ان ماتسميه انتصارى ومجدى ألم يكن على وشك افقادى شرفى بل وربما حياتى ؟

ـ انى لم أعتبر مشروعك قد فشل الا فى اللحظة التى أعلن فيها صوتك النتيجة المحتومة ، ولست أدعى أبدا أى نفوذ أقوى من نفوذك على أشباح النار ٠

ـ ان أحدا لا يحكم هؤلاء الأشباح لو كان لهم وجود ٠ وفوق ذلك فان هذه الغوامض فى متناول يد صادوق المبجل أكثر منها فى يد صانع بسيط مثلى ٠ ان ماحدث خلال تلك الليلة المروعة لا أدرى عنه شيئا : وقد أشاع سير العملية الاضطراب فى خططى ٠ ومع ذلك يا مولاى ففى ساعة القلق تلك انتظرت عبثا مواساتك وتأييدك ٠ وهذا هو السبب الذى جعلنى فى يوم النجاح لا أفكر فى انتظار تقريظك ٠

ـ ان هذا أيها الفنان حقد وغرور

ـ لا يامولاى بل هى عدالة متواضعة مخلصة ٠ فمنذ الليلة التى صببت فيها بحر الفولاذ والى اليوم الذى اكتشفته فيه فان جدارتى لم تكسب شيئا كما أنها لم تخسر شيئا ٠ والنجاح وحده هو الذى خلق الاختلاف ٠٠ وكما رأيت فان النجاح بيد الله ٠ وادوناى يحبك وقد تأثر لصلواتك ، وأنا الذى ينبغى أن أهنئك يا مولاى وأن أهتف قائلا لك : شكرا ! وقال سليمان فى نفسه :

ـ من ذا الذى يخلصنى من سخرية هذا الرجل ؟

ثم سأله قائلا :

ـ انك تغادرنى دون شك لكى تتم معجزات أخرى فى أماكن أخرى ؟

ـ ربما كنت استطيع القسم على ذلك فى الماضى أيضا يا مولاى ٠ لقد كانت هناك عوالم تضطرم فى رأسى الملتهب ٠

وكنت أرى فى أحلامى كتلا من الجرانيت وقصورا مطمورة بها غابات من الأعمدة وكانت المدة التى تستغرقها أعمالنا تثقل على ٠ أما اليوم فان حميتى قد هدأت والتعب يؤرجحنى والفراغ يبتسم لى ٠ ويبدو لى أن رسالتى قد انتهت ٠

وخيل الى سليمان رؤية بعض أضواء الحنان تنعكس حول مقلتى أدونيرام ٠ كان وجهه جادا وملامحه مكتئبة وصوته أكثر نفاذا من المعتاد حتى أن سليمان اضطرب لذلك وقال : « ان هذا الرجل جميل جدا ٠٠

وسأله سليمان وهو يتصنع عدم الاهتمام :

ـ أين تنوى الذهاب بعد مغادرتك بلادى ؟

وأجاب الفنان دون تردد :

ـ الى صور ، فقد وعدت الملك حيرم الكريم ، الذى يتولى رعايتى ، بذلك ، وهو يحبك حب الأخ لأخيه وقد أبدى نحوى عطفا أبويا . ولو تكرمت وأذنت لى فانى أرغب فى أن احمل اليه خطه تحوى منظرا علويا للقصر والمعبد وبحر الفولاذ وكذلك للعمودين الكبيرين المضفرين المصنوعين من البرونز ، جاكين وبوعز اللذين يزينان باب المعبد الكبير .

ـ ان رغبتك مجابة. وسوف يتولى خمسمائة من الفرسان حراستك ويحمل اثنا عشر جملا الهدايا والكنوز التى ستخصص لك .

ـ تلك مجاملة تفوق الحد : ولن يحمل أدونيرام معه سوى معطفه . وليس معنى ذلك يا مولاى أننى أرفض هباتك . فأنت كريم والهبات كبيرة وقد يؤدى رحيلى المفاجىء الى نضوب خزانتك دون أن يكون بالنسبة لى ذا فائدة . واسمح لى أن أكون صريحا صراحة تامة . ان هذه المنح التى أقبلها أتركها أمانة بين يديك . واذا احتجت اليها يا مولاى فسوف أخبرك بذلك .

وقال سليمان :

ـ أى بعبارة أخرى فان الفنان أدونيرام يريد أن يجعلنا تابعين له .

وابتسم الفنان وأجاب فى رقة :

ـ لقد حدست فكرتى يا مولاى .

ـ وربما يحتفظ لنفسه بيوم يفاوضنا فيه ويملى علينا شروطه .

وتبادل أدونيرام مع الملك نظرة دقيقة متحدية وأجاب :

ـ مهما يكن من أمر فانى لا أطلب الا مايتفق وعظمة سليمان .

وقال سليمان وهو يزن تأثير كلامه :

ـ أظن أن ملكة سبأ تحمل فى رأسها بعض المشاريع وتفكر فى استخدام عبقريتك ...

ـ مولاى ، انها لم تحدثنى فى ذلك قط .

وفتحت تلك الاجابة المجال لشكوك أخرى ٠

وقال صادوق معترضا :

ـ « ومع ذلك فان عبقريتك لم تكن عديمة التأثير فيها ، أترحل دون أن تودعها ؟ » ٠

وكرر أدونيرام تلك الكلمة قائلا : أودعها ٠٠

ورأى سليمان لهبا غريبا يشع من عينه ، وأضاف :

ـ لو سمح لى الملك فسوف يكون لى شرف استئذانها فى الرحيل ٠

وأردف الملك قائلا :

ـ « كنا نأمل فى الاحتفاظ بك لاحتفالات زواجنا القادمة ٠ فأنت تعلم ٠٠ » ٠

وعلت الحمرة القانية جبين أدونيرام وأضاف دون مرارة :

ـ انى أعتزم التوجه الى فينيقيا دون تلكؤ ٠

ـ مادمت تلح فى ذلك أيها الفنان فأنت حر: انى أقبل استئذانك ٠٠

وقال الفنان معترضا :

ـ ابتداء من مغيب الشمس ٠ فمازال أمامى رفع أجور العمال وأرجو يا مولاى أن تأمر قهرمانك عزرياهو باحضار المال اللازم الى العداد المقام فى أسفل عمود جاكين وسوف أقوم بالتخليص كالمعتاد ودون اعلان رحيلى حتى أتجنب تزاحم الوداع ٠

ـ انقل هذا الأمر ياصـــادوق الى ابنك عزرياهو ٠ انتظر كلمة أخرى : من هم العمال الثلاثة المدعوون فانور وعمرو وميقوزاييل ؟

ـ انهم ثلاثة طموحون شرفاء ولكن بلا مواهب ٠ انهم يرنون الى لقب رؤساء عمل وقد ألحوا على لمنحهم كلمة السر على هذا الأساس حتى يحصلوا على رواتب أكبر ٠ وأخيرا استمعوا لصوت العقل ، ومنذ وقت قريب سنحت لى فرصة تهنئة نفسى بطيبة قلوبهم ٠

ـ أيها الفنان لقد قال الله فى كتابه : « اخش الثعبان الجريح الذى

يطوى نفسه » يجدر بك أن تحسن معرفة الناس : ان هؤلاء هم أعداؤك وهم الذى تسببوا بكيدهم فى الحوادث التى كادت تتسبب فى فشل صب بحر الفولاذ ·

— وكيف عرفت ذلك يا مولاى ؟ ··

لقد ظننت أن كل شىء قد ضاع ولما كنت أثق فى حذرك فقد بحثت عن الأسباب الخفية للكارثة · ولما كنت أتجول بين الجماعات فقد سمعت هؤلاء الرجال الثلاثة يتكلمون وهم يظنون أنهم على انفراد ·

— لقد تسببت جريمتهم فى موت عدد كبير من الناس · ان مثلا كهذا سيكون شديد الخطورة ، وأنت الذى تملك حق التصرف فى مصيرهم · لقد كلفنى هذا الحادث حياة ابن لى كنت أحبه ، وهو فنان ماهر يدعى بينونى لم يظهر منذ ذلك الحين · وأخيرا يا مولاى فان العدالة من خصائص الملوك ·

— سوف تطبق العدالة على كل منهم · لتعش سعيدا أيها الفنان أدونيرام ولن ينساك سليمان أبدا ·

وبدأ أدونيرام مفكرا وسط حيرته واضطرابه · وفجأة قال وقد استسلم للحظة من التأثر :

« مهما يحدث يامولاى تأكد الى الأبد من احترامى وذكرياتى الخالصة ونقاء قلبى · واذا راودت الشكوك فكرك فلتقل لنفسك : ان أدونيرام كأكثر البشر لا يملك من أمر نفسه شيئا ؛ وكان لابد من أن يكمل أقداره ! » ·

— « وداعا أيها الفنان ولتكمل أقدارك ! » ·

قال الملك ذلك وهو يمد اليه يدا انحنى عليها الفنان فى خضوع ولكنه لم يضع عليها شفتيه قط وارتعد سليمان ·

وتمتم صادوق قائلا وهو يشاهد أدونيرام يبتعد :

— « حسن يامولاى حسن ! بماذا تأمر ؟ » ·

— « بأعمق ألوان الصمت يا أبت · اننى لن أثق منذ الآن الا فى نفسى وحدها · ولتعلم جيدا أننى الملك · ومهمتك هى الطاعة والا حق عليك غضبى ، والصمت والا دفعت حياتك ثمنا ·· هيا أيها الشيخ ،

لا ترتعد فان الملك الذى فاض لك بأسراره ليعلمك صديق لك • ادع هؤلاء العمال الثلاثة المحبوسين فى المعبد فانى أرغب فى توجيه مزيد من الأسئلة اليهم » •

وبدأ عمرو وفانور مع ميتوزاييل : واصطف خلفهم البكم فى منظرهم المروع وقد شهروا نصالهم •

وقال لهم سليمان فى لهجة شديدة : لقد وزنت كلامكم والتقيت بخادمى أدونيرام • أهى العدالة أم الحسد اللذان يدفعانكم ضده ؟ وكيف يجرؤ عمال بسطاء على الحكم على رئيسهم ؟ ولو أنكم كنتم من الرجال المرموقين أو من الرؤســـاء بين اخوانكم لكانت شــــهادتكم أقل احاطة بالشكوك • ولكن كلا : لقد دفعكم الجشع والطموح الى لقب رؤساء عمال ولما لم تستطيعوا الحصول عليه أعمى الحقد قلوبكم •

وقال ميتوزابيل وهو يسجد :

ـ « مولاى انك تريد اختبارنا • ولكن حتى ولو كلفنى الأمر حياتى فانى أتمسك بأن أدونيرام خائن • وحين تآمرت على ضياعه كنت أرغب فى انقاذ أورشـــليم من طغيان غادر يصبو الى اخضـــاع بلادى لجحافل أجنبية • ان صراحتى الرعناء هى أوثق ضمان لاخلاصى • لا يليق بى مطلقا أن أثق فى رجال هم موضع ازدراء ، فى عبيد لخدامى • لقد خلق الموت ثغرات فى هيئات العمال ، وقد طلب أدونيرام اعفاءه من العمل • ويهمنى كما يهمه العثور من بين رؤساء العمال ، على أناس جديرين بثقتى فلتتوجهوا اليه هذا المساء بعد دفع الرواتب راجين اختبار رؤساء العمال وسوف يكون وحده •• حاولوا اقناعه بحججكم • من هنا أعرف ما اذا كنتم من الجادين فى أعمالكم البـــارعين فى فنونكم الحاصلين على تقدير اخوانكم • ان أدونيرام فنان متبصر وقراراته موضع ثقة • هل تخلى الله عنه حتى هذه اللحظة ؟ هل كشف عن عاره بواسطة أحد تلك الانذارات المروعة أو بضربة من ضرباته الهائلة التى تعرف ذراعه الخفية توجيهها الى المذنبين ؟ حسن ! ليكن يهوا قاضيا بيننا • فلو حصلتم على عطف أدونيرام واختاركم فسيكون ذلك بالنسبة لى علامة سرية تدل على أن السماء فى صفكم وسوف أتولى أمر أدونيرام • أما اذا لم يحدث ذلك ولو أنكر عليكم لقب رئيس عمال فسوف تمثلون غدا أمامى برفقته وسوف أستمع الى الاتهامات والدفاع التى يوجهها كل منـــكم للآخر • وسوف يتولى الشيوخ من الشعب الحكم • هيا فكروا فيما قلت لكم وليرشدكم أدوناى» •

ونهض سليمان من مقعده وابتعد فى بطء وهو يتكىء على كتف كبير الكهنة الذى بدا عليه عدم المبالاه ·

واقترب الرجال الثلاثة بشدة وقد جمعتهم فكرة واحدة وقال فانور : « يجب أن ننتزع منه كلمة السر » ·

وأضاف الفينيقى عمرو قائلا : « أو يموت » ·

وصاح متيوزابيل قائلا :

ـ « بل يجب أن يمنحنا كلمة السر بصفتنا رؤساء ثم يموت ! » ·

واتحدت أيديهم فى قسم ثالث · وحينما كانوا على وشك اجتياز العتبة استدار سليمان ولمحهم من بعد وتنفس بقوة وقال لصادوق : « أما الآن فالى المتعة ! هيا بنا للقاء الملكة · »

١١ - عشاء الملك

واستأنف الراوى حديثه فى الجلسة التالية قائلا :

بدأت الشـمس تنحدر ؛ وأخذت أنفـاس الصحراء الملتهبة تلفح المزارع التى أضاءتها انعكاسات مجموعة من السحب النحاسية .

وكانت ظلال تل موريا هى الوحيدة التى تضفى شيئا من الفىء على مجرى أبو سيدر الجاف . كانت الأوراق الذابلة مائله الى أسفل وزهور غار الورد المحترقة معلقة فى أغصانها وقد انطفأ رونقهـا وانكمشت . كانت الحرابى والأبراص والسحالى تلهث بين الصخور وكفت الخمائل عن ارسال غنائها كما انقطع خرير الجداول .

أما أدونيرام فقد كان مشغولا وباردا كالثلج خلال ذلك اليوم الملتهب الكئيب . وكان كما أعلن لسليمان قد أتى ليستأذن من حبيبته الملكة التى استعدت للفراق . كانت هى نفسها هى التى طلبته . فقد قالت له : « ان رحيلك معى سوف يعتبر تحديا لسليمان واذلالا له أمام شـعبه واضافة اهانة الى الألم التى اضطرتنى القدرات الأبدية الى أن أسببه له . وبقاؤك هنا بعد رحيلى أيها الزوج العزيز سوف يكون سعيا منك وراء موتك . ان الملك يغار منك ولن يخلف هروبى من ضحية تشفى غليل أحقاده الا أنت » .

- حسن ! فلنقتسم اذن مصير أبنـاء جنسـنا ولنكن على الأرض ضالين مشتتين لقد وعدت هذا الملك بالذهاب الى صور . ولنكن صادقين بمجرد أن تصبح حياتك بعيدا عن رحمة الأكاذيب . وسوف أتوجه فى هذه الليلة نفسها نحو فينيقيا التى لن أقيم فيها قبل أن الحق بك فى

اليمن عن طريق الحدود السورية ثم بلاد العرب الصخرية عن طريق دروب والتواءات جبال غسان · يالالأسف ! أهكذا أغادرك بسرعة أيتها الملكة العزيزة وأتركك فى أرض غريبة تحت رحمة طاغية عاشق ؟ ·
طب نفسا يامولاى فان روحى لك وحدك وأتباعى مخلصون · وسوف تتبدد تلك الأخطار أمام حذرى وحرصى · وسوف تكون الليلة القادمة التى ستخفى هروبى عاصفة مظلمة · أما سليمان فانى أكرهه ، وهو لا يطمع الا فى بلادى وقد أحاطنى بالجواسيس وحاول اغراء أتباعى وشراء ذمم ضباطى والتفاوض معهم على تسليم قلاعى · ولو كان قد حصل على بعض الحقوق على شخصى لما رأيت أبدا اليمن السعيد . لقد انتزع منى وعدا ، هذا صحيح ولكن ماقيمة حنثى بهذا القسم أمام عدم اخلاصه ؟ وهل كنت حرة فى عدم خداعه وهو الذى أشار الى منذ لحظة ، وهو يستعمل تهديدات أساء اخفاءها ، بأن حبه لا حدود له وأن صبره قد أوشك على نهايته ؟

ــ يجب اثارة جماعات العمال !

ــ انهم فى انتظار رواتبهم ولن يحركوا ساكنا · وما جدوى القاء نفسك فى مجازفات فى مثل تلك الخطورة ؟ ان هذا التصريح يرضينى بدلا من أن يقلقنى فقد توقعته وانتظرته بفارغ الصبر · لترحل فى سلام يا حبيبى ولن تكون بلقيس أبدا الا لك !

ــ وداعا اذن أيتها الملكة : لابد من مغادرة تلك الخيمة التى وجدت فيها سعادة لم أحلم بها قط · ويجب الكف عن تأمل تلك التى تعتبر بالنسبة لى الحياة نفسها · هل أراك ثانية ؟ يالالأسف · ! لقد مرت تلك اللحظات السريعة كالحلم !

ــ كلا يا أدونيرام ، سوف يجتمع شملنا قريبا والى الأبد ··· أن أحلامى وتنبؤاتى قد اتفقت مع نبوءات الجن، وهى تؤكد لى دوام جنسنا· وانى لأحمل معى ضمانا ثمينا لزواجنا · وسوف تضع فى حجرك هذا الابن الذى قدر له أن يتسبب فى نهضتنا وفى تحرير اليمن وبلاد العرب كلها من النير الضعيف لورثة سليمان · ان اغراء مزدوجا يدعوك وعاطفة مزدوجة تربطك بتلك التى تحبك وسوف تعود » ·

وتأثر أدونيرام لكلام الملكة · وألصق شفتيه بيد أسقطت عليها الملكة بعض الدموع · واستعاد شجاعته وألقى عليها نظرة أخيرة طويلة ، ثم استدار فى جهد وأسدل وراءه ستار الخيمة وعاد الى ضفة نهر أبو سيدر ·

كان سـليمان ينتظر الملكة الباسـمة الحزينة فى ميللو (١) وقد أصبح نهبا للغضب والشك والندم السابق لأوانه وأسلم نفسه لقلق شديد • أما أدونيرام فقد جاهد لاخفاء غيرته فى أعماق حزنه واتجه الى المعبد لدفع أجور العمال قبل أن يمسك بعصا المنفى • كان كل من هذين الغريمين يفكر فى الانتصار على غريمه ويعتمد على معجزة تبينها كل منهما • كانت الملكة تخفى هدفها ، أما سليمان فقد أحيط علما بكل شىء الا أنه كان يخفى بدوره مشاعره وهو يطلب من كرامته الفطنه شـيئا من الشك •

كان يفحص حاشية ملكة سبأ من أعلى شرفات قصر ميللو • وكانت تلك الحاشية تزحف متقدمة بطول طريق اماثيا • وقد أطلت على بلقيس الجدران القرمزية للمعبد الذى كان أدونيرام مازال يسيطر عليه ، تلك الجدران التى كانت ترسل على السحب القاتمة بريق حافتها ذات الاسنان الحادة وكان العرق الخفيف يندى صدغى سليمان وخديه كما كانت عينه تكاد تلتهم الفضاء وقد اتسعت حدقتها • ودخل موكب الملكة يصحبها كبار ضباطها ورجال ماشيتها الذين اختلطوا بحاشية الملك •

وبدا الأمير قلقا اثناء السهرة • فقد بدت بلقيس باردة بل وتكاد تكون ساخرة : كانت تعلم أن سليمان يتدله عشقا • وكان العشـاء صامتا • وكانت نظرات الملك الخفية أو التى يديرها فى تصنع تبدو كما لو كانت تهرب من انطباعة نظرات الملكة التى كانت تغضها تارة وتثيرها تارة أخرى تحت تأثير عاطفة طال صبرها والتحكم فيها ، فكانت تلك النظرات تحيى فى سليمان أوهاما كان يريد أن يظل سيدها • كان مظهره المستغرق يدل على أن لديه خطة ما • لقد كان ابنا لنوح ولاحظت الأميرة أنه بدافع الوفاء لتقاليد ابى الكرم كان يطلب من النبيذ أن يقدم له الحل الذى يبحث عنه • ولما كان رجال البلاط قد انسحبوا فقد حل البكم محل ضباط الأمير • ولما كان أتباع الملكة هم الذين يقومون على خدمتها فقد استبدلت السبئيين بالنوبيين الذين كانوا يجهلون اللغة العبرية •

وقال سليمان بن داود بلهجة حادة :

« سيدتى لابد من تفسير للموقف فيما بيننا » •

---

(١) قصر بناه سليمان بعد أن شيد المعبد وقد ذكر في التوراة (الجزء الاول ، الملوك ٩ ، ٢٤) — النص الفرنسى للعهد القديم •

ـ أيها الملك العزيز انك تسبق رغباتي ·

ـ لقد ظننت أن أميرة سبأ الوفية لوعدها ملكة أكثر منها امرأة ··

وقاطعته بلقيس بحماس قائلة :

ـ « الأمر عكس ذلك تماما ، فاني امرأة يامولاى قبل أن أكون ملكة · ومن ذا الذى ليس عرضة للخطأ ؟ لقد ظننتك حكيما ثم ظننتك عاشقا ··· وأنا الذى أصبت بأقسى ألوان سوء التقدير » · وتنهدت ·

وأردف سليمان قائلا :

ـ « انك تعلمين جيدا أننى أحبـك والا لما عرضت مملكتك للخطر ولما دست بقدميك قلبا يثور في نهاية الأمر » ·

ـ كنت على وشك توجيه مثل هذا اللوم لك · انك لا تحبنى أنا يامولاى ولكنك تحب الملكة · ولنتكلم بصراحة ، فهل أنا فى سن تبيح لى السعى وراء زيجة من زيجات التقاليد ؟ حسن ! نعم ، لقد أردت سبر غور نفسك : ان المـرأة في وهى أكثر رقة من الملكة ، قد استبعدت العقل السياسى وأرادت التمتع بسلطانها · لقد كان حلمها هو أن تكون محبوبة · وحين أخرت ساعة تنفيذ وعدها الذى انتزع منها على حين غرة فانها قد وضعتك موضع الاختبار · كانت تأمل فى ألا تنتزع انتصارك الا من قلبها وقد أخطأت فى ذلك ؛ فقد استعملت التهديد والوعيد واستعملت مع حاشيتى حيلا سياسية وأصبحت فعلا مولاهم أكثر منى · لقد كنت أتمنى زوجا ، عاشقا ، وها أنذا أخشى أن يصبح لى سـيدا · كما ترى انى أتحدث بصراحة واخلاص ·

ـ اذا كان سليمان عزيزا لديك لكنت قد غفرت له أخطاء سببها تأجج صبره ليصبح عبدا لك ؟ ولكن كلا ، ان فكرك لم ير فيه الا موضعا للكراهية ، وليس من أجله ··

ـ « صه يامولاى ولا تضف الاهانة الى الشكوك التى جرحتنى · ان عدم المبالاه يثير عدم المبالاه والغيرة تصد القلب · وأخشى أن أدفع ثمن الشرف الذى كنت تريد أن تولينى اياه من راحتى وحريتى » ·

ولاذ الملك بالصمت ولم يجرؤ على التمادى فى الوثوق فى شهادة جاسوس نذل دنىء والا فقد كل شىء ·

وأردفت الملكة قائلة فى رقة طبيعية ساحرة :

ـ اسمع يا سليمان ، كن صادقا وكن أنت نفسك وكن رقيقا · ان أوهامى عزيزة على أنا أيضا··وفكرى متحير · ولكننى أشعر بأنه يسعدنى التأكد والاطمئنان ·

ـ أه ! لو قرأت هذا القلب الذى تسيطرين عليه دون أن يقتسمه أحد معك لطردت جميع أسباب القلق · لننس شكوكى وشكوكك ووافقى أخيرا على سعادتى · يا لسلطان الملوك القاتل ! اننى تحت قدمى بلقيس ابنة الرعاة لست الا عربيا تعسا من الصحراء !

ـ « ان أمانيك تتفق مع أمانى ، وقد فهمتنى » · وأضافت قائلة وهى تقرب وجهها البرىء المتأجج بالعاطفة من شعر الملك :

ـ « نعم ، انها صرامة الزواج العبرى هى التى تثلجنى وتخيفنى · ولقد كان الحب وحده كفيلا باغرائى لولا ·· » ·

ـ لولا ؟ اتمى كلامك يا بلقيس : فان نبرة صوتك تنفذ الى نفسى وتلهبنى ·

ـ « كلا ، كلا ··· ماذا كنت بصدد قوله وما هو هذا العشاء ؟ المفاجىء ؟ ··· ان هذا النبيذ اللذيذ أحيانا يخون وأشعر أننى مضطربة تماما » ·

وباشارة من سليمان ملأ البكم والنوبيون الكئــوس وأفرغ الملك كأسه فى جوفه فى جرعة واحدة وهو يلاحظ فى سرور أن بلقيس تفعل مثل ما يفعل ·

وأضافت الأميرة فى مرح :

ـ « يجب الاعتراف بأن الزواج طبقا للشعائر اليهودية لم يوضع للملكات وأن له شروطا سيئة » ·

وسأل سليمان وهو يوجه اليها نظرات أخفاها طول الانتظار :

ـ أهذا هو الذى يجعلك تترددين ؟

ـ لاشك فى ذلك · ففيما عدا مضايقات الاستعداد بالصــيام مما يصيب المرأة بالدمامة أليس من المؤلم اسلام الشعر للمقص وأن تضطر المرأة الى وضع غطاء على رأسها الى نهــاية العمر ؟ وأضافت قائلة وهى تلف غدائرها الأبنوسية الرائعة :

ـ الحقيقة أننا لا نملك سحرا كبيرا حتى نفقده ·

وقال سليمان معترضا :

ـ ان نساءنا لديهن حرية استبدال شعورهن بكمية كثيفة من ريش الديكة حسنة التصفيف (١) ·

وابتسمت الملكة فى شىء من الازدراء · ثم قالت :

ـ ثم ان الرجل عندكم يشترى المرأة كما تشترى الجوارى أو الخادمات · بل ويجب أن تأتى فى ذلة الى باب خطيبها وتقدم نفسها · وأخيرا فان الدين لا يحتل أى مكان فى هذا العقد الذى يشبه الصفقة · وحين يتلقى الرجلَ شريكة حياته فانه يفرد ذراعه عليها وهو يقول لها بالعبرية الفصيحة : لقد خصصت لى · وفيما عدا ذلك فلديكم سهولة طلاقها وخيانتها بل حتى رجمها بالحجارة لأوهى الأسباب ··· ان فخرى بحب سليمان لايعدله الا خوفى من الزواج منه ·

وصاح الأمير وهو ينهض من الأريكة التى يستريح فوقها :

ـ « حب سليمان ! هل أنت محبوبة أنت ! هل مارست امرأة من قبلك مثل هذا السلطان المطلق ؟ لقد كنت ثائرا فهدأت روعى حسب رغبتك ، وكانت الانشغالات الكئيبة تشيع الاضطراب فى نفسى وانى لأبذل قصارى جهدى لطردها · انك تخدعيننى وأشعر بذلك ولكنى أتآمر معك على التغرير بسليمان » ·

ورفعت بلقيس كأسها الى ما فوق رأسها وهى تستدير فى حركة عاطفية · وملأ عبدان الكئوس وانسحبا ·

وظلت قاعة الوليمة خاوية · وأضفى ضوء المصابيح وهو يخفت أشعة غريبة على سليمان الذى كان شاحبا ملتهب العينين وقد ارتعدت شفتاه وزال لونهما · واستولى عليه شعور غريب بنفاذ الصبر وأخذت بلقيس تتأمله بابتسامة غامضة ·

وفجأة تذكر ··· وقفز فوق أريكته وصاح قائلا :

ـ « أيتها المرأة لا تبنى الآمال على العبث بحب الملوك ··· ان الليل

---

(١) يقول جيرار فى هذا الصدد : حتى اليوم تضطر النساء المتزوجات من اليهود فى الشرق الى استبدال شعورهن التى يجب أن تقص الى ما فوق الأذنين وأن تختفى تحت غطاء للرأس بالريش ·

يحمينا بسدوله والغموض يحيط بنا وثمة عاطفة ملتهبة تسرى فى كيانى بأسره • ان الغضب والحب يسكرننى وهذه الساعة ملك لى • واذا كنت صادقة فلن تحرمينى من سعادة دفعت ثمنها غاليا • احكمى وكونى حرة ولكن لا تصدى أميرا يهب نفسه لك وتحرقه الرغبة وهو على استعداد فى هذه اللحظة أن ينتزعك من سلطان الجحيم » •

واضطربت بلقيس وخفق قلبها وأجابت وهى تخفض عينيها :

ـ « امنحنى الوقت الكافى لاختبار مشاعرى فان تلك اللغة جديدة بالنسبة لى ••• » •

وقاطعها الملك وهو يهذى بعد أن أفرغ كأسه الذى كان يستمد منه كل هذه الجرأة :

ـ « كلا ! كلا فان ثباتى قد بلغ ذروته والمسألة بالنسبة لى مسألة حياة أو موت • أيتها المرأة ، سوف تكونين لى وأقسم على ذلك • واذا كنت تخدعيننى فسأنتقم لنفسى ، أما اذا كنت تحبيننى فان حبا أبديا سوف يدفع ثمن صفحى » •

ومد يداه ليضم اليه الفتاة • ولكنه لم يضم الا ظلا فان الملكة كانت قد تراجعت فى هدوء • وسقطت ذراعا ابن داود وقد ازدادتا ثقلا • ومالت رأسه ولاذ بالصمت وفجأة ارتعد واعتدل فى جلسته ••• واتسعت حدقتا عينيه المندهشتين فى صعوبة • كان يشعر بالرغبة تموت فى صدره حينما أخذت الأشياء تتأرجح فوق رأسه • كان وجهه المكتئب الحزين الذى تحيط به لحية سوداء يعبر عن رعب غامض • وانفرجت شفتاه دون أن تنطقا أى صوت ثم عادت رأسه تحت ثقل العمامة فسقطت على وسائد الفراش • لقد شعر بأنه يقيد بأغلال غير مرئية وثقيلة فأخذ يبعدها بفكره أما أعضاؤه فلم تعد تستجيب لجهوده الخيالى •

واقتربت منه الملكة فى بطء وجدية ورآها فى ارتياع واقفة أمامه وقد أسندت خدها الى أصابعها المطوية بينما أسندت كوعها على اليد الأخرى • كانت تتأمله • وسمعها تقول :

ـ « ان المخدر أحدث مفعوله •• » •

ودار انسان عين سليمان الأسود فى حدقته البيضاء الكبيرة التى تشبه عين أبى الهول وظل ساكنا بلا حراك •

وأضافت هى قائلة :

ـ « حسن ! اننى أطيع وأستسلم ، اننى لك ! ٠٠ » ٠

وركعت على ركبتيها ولمست يد سليمان التى كانت باردة كالثلج ٠ وأرسل تنهيدة عميقة ٠

وتمتمت قائلة :

ـ « انه مازال يسمع ٠٠٠ اسمع ياملك اسرائيل ، أنت الذى تفرض الحب ، كما يتراءى لسلطانك ، مع العبودية والخيانة ، اسمع : اننى أفلت من سلطانك ٠ ولكن اذا كانت المرأة قد خدعتك فلن تخدعك الملكة أبدا ٠ اننى أحب ، ومن أحب ليس أنت ؛ فان الأقدار لم تسمح بذلك ٠ اننى أنحدر من سلالة أرقى من سلالتك ، وقد اضطررت اطاعة لأوامر الجن الذين يتولون حمايتى اختيار زوج من نفس دمى ٠ ان نفوذك ليذوب أمام نفوذهم ٠ لتنسانى وليختر لك أدوناى شريكة لحياتك ٠ انه كبير كريم ٠ ألم يعطك الحكمة وأجزل لك ثمن خدماتك فى هذه المناسبة ؟ انى أتركك فى رعايته وأسحب منك مساندة الجن الذين تحتقرهم والذين لم تعرف كيف تحكمهم فانها مساندة لا جدوى منها ٠٠ » ٠

واستولت بلقيس على الأصبع الذى كانت ترى طلسم الخاتم الذى أهدته لسليمان يلمع فيه وهمت باستعادته الا أن يد الملك الذى كان يتنفس بصعوبة انقبضت بمجهود كبير وأغلقت بعنف وحاولت بلقيس دون جدوى اعادة فتحها ٠

وهمت بالكلام من جديد حين طوحت رأس سليمان بن داود الى الخلف وارتخت عضـــلات رقبته وانفرج فمه وانطفأ بريق عينيه نصف المفتوحتين ٠ كانت روحه قد طارت الى بلاد الأحلام ٠

كان كل شىء نائما فى قصر ميللو فيما عدا أتباع ملكة سبأ الذين أناموا مضيفيهم ٠ كانت الصاعقة تهدر من بعيد وكانت السماء السوداء تلمع فيها خطوط البرق ٠ وكانت الرياح التى خرجت من عقالها توزع الأمطار فوق الجبال ٠

كان ثمة جواد عربى أسود سواد القبر فى انتظار الأميرة التى أعطت اشارة التراجع ٠ وما لبث الموكب الذى كان يلف بطول الأحراش حول تلال صهيون أن هبط وادى يهوشافاط ٠ واجتاز فوق صهوة الخيل نهر ابوسيدر الذى بدأ يمتلىء بمياه الأمطار ليحمى هذا الهروب ٠

وترك الموكب خلف قمة « النـــابور » التى توجها البرق ووصل الى زاوية حديقة أشجار الزيتون والى طريق بيثانيا الصاعد ٠

وقالت الملكة لحراسها :

ـ « لنتبع هذا الطريق ، ان جيادنا خفيفة الحركة ٠ لقد طويت الخيام فى هذه الساعة وسار رجالنا فعلا فى طريق الأردن ٠ وسوف نلتقى بهم فى الساعة الثانية من النهار فيما وراء بحيرة سالى (البحر الميت) ، التى نبلغ منها دروب جبال بلاد العرب » ٠

وابتسمت الملكة للعاصفة وهى تسلم لجوادها العنان وراودتها فكرة أنها تقتسم الخزى مع حبيبها أدونيرام الذى لابد أنه يجوب طريق صور ٠

وفى اللحظة التى ولجوا فيها الى طريق بيثانيا الضيق كشفت خطوط البرق جمـــاعة من الرجال كانوا يعبرونه فى صمت وتوقفوا مذهولين لصوت هذا الموكب من الأشباح المتداخلة وسط ظلمات الليل البهيم ٠

ومرت بلقيس وحاشيتها أمامهم ٠ ولما كان أحد الحراس قد تقدم للتعرف عليهم فقد قال للملكة فى صوت خفيض :

ـ « انهم ثلاثة رجال يحملون ميتا مسربلا فى كفنه » ٠

١٢ ــ ماكبيتناخ (١)

فى خلال فترة الراحة التى تلت هذه الرواية انفعل المستمعون فى مناقشة الأفكار المتناقضة ٠ كان بعضهم يرفض قبول التقليد الذى اتبعه الراوى فقد كانوا يدعون أن ملكة سبأ قد رزقت فعلا من سليمان ، لا من غيره ، بولد ٠ واعتقد الحبشى بوجه خاص أنه قد أهين فى معتقداته الدينية وذلك بافتراض أن ملوكه لم يكونوا الا من سلالة عامل من العمال ٠

وصاح بالراوى قائلا : « لقد كذبت ٠ لقد كان أول ملوكنا فى الحبشة يدعى مينيليك وكان حقا ابنا لسليمان من بلقيس ــ ماكيدا ٠ ومازال أحد المنحدرين من نسله يحكمنا فى قصر جندار (٢) ٠

وقال له أحد الايرانيين :

ــ « أيها الأخ ، دعنا نستمع حتى النهاية والا قذف بك الى الخارج كما حدث من قبل فى تلك الليلة ٠ ان تلك القصة من وجهة نظرنا أرثوذكسية واذا كان قسيسكم الصغير يوحنا الحبشى يتمسك بكونه من نسل سليمان فسنمنحه ذلك على أن تكون أمه حبشية سوداء لا الملكة بلقيس التى لها نفس لوننا » ٠

وقاطع صاحب المقهى الاجابة الثائرة التى هم الحبشى بتوجيهها وأعاد الهدوء بصعوبة ٠

---

(١) معناها اللحم يترك العظم ٠

(٢) قصر النجاشى ٠

واستأنف الراوى روايته قائلا :

حينما كان سليمان يستقبل فى بيته الريفى أميرة السبئيين نظر رجل كان يمر على مرتفعات سوريا الى الشفق وهو على وشك الانطفاء فى السحب ثم الى المشاعل التى اشعلت فى ميللو وكأنها الكواكب المنثورة ، نظر الى ذلك مفكرا • ثم أرسل فكرة أخيرة الى غرامياته وألقى نظرة وداع على صخور سوليم والى ضفاف أبو سيدر الذى قدر عليه ألا يراه ثانية •

كان الوقت متأخرا وشاهدت الشمس وهى تشحب هبوط الليل على الأرض • وحين سمع أدونيرام صوت المطارق تدق على الفولاذ داعية العمال انتزع نفسه من أفكاره واجتاز جموع العمال • ولكى يرأس عملية دفع الرواتب دلف الى المعبد ففتح بابه الشرقى نصف فتحة وجلس فى أسفل عمود جاكين •

كانت المشاعل المضاءة تحت الرواق تتأرجح نيرانها وهى تتلقى بعض قطرات المطر الدافىء التى فتح لها العمال اللاهثين من القيظ صدورهم فى مرح •

كان الجمع غفيرا • وكان يعمل تحت امرة أدونيرام بخلاف المحاسبين موزعون أعدوا لتلقى مختلف الأوامر • كان الفصل بين طبقات العمال الثلاث يتم بناء على كلمة كانت تحل فى هذه المناسبة محل الرموز المكتوبة التى كان تبادلها لابد أن يستغرق الكثير من الوقت • ثم كان الراتب يدفع بعد نطق كلمة السر •

كانت كلمة السر بالنسبة للعمال تحت التمرين فيما مضى هى كلمة « جاكين » ، وهو اسم أحد الأعمدة البرونزية • وكانت كلمة السر لغيرهم من العمال هى كلمة بوعز وهو اسم عمود آخر • أما كلمة الرؤساء فكانت يهوا •

وقد اصطف العمال حسب طبقاتهم وكانوا يتقدمون الى العدادات أمام القهارم تحت رئاسة أدونيرام الذى كان يلمس أيديهم ثم يهمس فى آذانهم بكلمة يقولها بصوت منخفض • وكانت كلمة السر فى هذا اليوم الأخير قد تغيرت • كان العامل تحت التمرين يقول طوبال ـ قابيل وكان العامل يقول « شيبوليت » وكان الرئيس يقول « جيبليم » •

وخف التجمع شيئا فشيئا وأصبح الفناء خاويا وانسحب آخر العمال من

طالبى الرواتب وتبين أن الجميع لم يتقدموا بدليل أن بعض المال تبقى فى الصندوق ·

وقال أودنيرام : « غدا لابد من نداء الأسماء لمعرفة ما اذا كان بعض العمال قد عاقهم المرض أو ما اذا كان الموت قد زار بعضا منهم » ·

وما أن ابتعد الجميع حتى أمسك أدونيرام كما هى عادته وبما يتسم به من همة وعين ساهرة ، أمســـك بمصباح ليقوم بجـولة فى الورش الخالية وفى مختلف أجزاء المعبد حتى يتـأكد من تنفيذ أوامره ومن اطفاء النيران · كانت خطاه ترن رنينا حزينا على البلاط · وتأمل للمرة الاخيرة أعماله وتوقف طويلا أمام مجموعة من تماثيل الملائكة الاطفال المجنحة ، وهى آخر ما قام به بينونى الشاب ·

وتمتم وهو يرسل أنة : « ياولدى العزيز »

ولما تم له هذا الطواف ألفى أدونيرام نفســه فى القـــاعة الكبرى للمعبد · وكانت الظلمات التى تزداد كثافة حول مصباحه تدور فى أشكال حلزونية مائلة للحمرة مبينة الخطوط العليا للقباب وجوانب القاعة ذات الابواب الثلاثة التى تواجه الشمال والغرب والشرق ·

وكان الباب الاول ، الباب الشمالى ، مخصصــا للشــعب والثانى يفتح لمرور الملك وجنوده · أما باب الشرق فقد كان باب اليهود اللاويين· كان العمودان الفولاذيان جاكين وبوعز يريان من الخارج عن طريق الباب الثالث ·

وقبل أن يخرج أدونيرام من الباب الغربى ، أقرب الأبواب اليه ، ألقى نظرة على داخل القاعة المظلم وتصورت مخيلته المتأثرة بالتماثيل العديدة التى كان يتأملها للتو ، تصورت رؤية شبح طوبال ــ قابيل وسط الظلام · وحاولت عينه الثابتة النفاذ الى الظلمات الا أن الوهم تضخم وهو ينمحى وبلغ أعالى المعبد ثم ذاب فى أغوار الجدران كما لو كان ظل رجل سلط عليه مصباح متحرك مبتعدا · وخيل اليه سماع صرخة شاكية ترن تحت القباب ·

وحينئذ استدار أدونيرام وهو يهــم بالخروج · وفجأة انفصــلت صورة آدمية عن عمود ملتصق بالحائط وقالت له بصوت مستوحش :

« لو كنت تريد الخروج فاعطنى كلمة سر الرؤساء » ·

وكان أدونيرام دون سلاح • ولما كان موضع احترام الجميع ومعتادا على اصدار الأوامر بالاشارة فلم يفـــكر حتى في الدفاع المقـــدس عن شخصه •

وأجاب وقد تعرف على العامل ميتوازيبيل : « أيها التعس ابتعد ! سوف ترقى الى طبقة الرؤساء حينما تصبح الخيانة والجريمة موضـــع تكريم ! لذ بالفرار مع شركائك قبل أن تصل عدالة سليمان الى رءوسكم» •

وسمعه ميتوزاييل ورفع مطرقته بذراع قوى فسقطت على جمجمة أدونيرام محـــدثة صوتا شديدا • واهتز الفنان وقـــد أذهلته الضربة • وبحركة غريزية سعى الى ايجاد مخرج من الباب الثانى باب الشمال • وهنا وقف السورى فانور وقال له :

– « اذا كنت تريد الخروج فاعطنى كلمة سر الرؤساء ! » •

وأجاب أدونيرام في صوت واهن : « انك لم تقض سبع سنوات فى العمل » •

– كلمة السر !

– أبدا !

وطعنه فانور البناء بمقصه الذى غاص فى جنبه •

الا أنه لم يستطع تكرار الضربة لأن معمارى المعبد استيقظ من الألم وطار كالسهم الى الباب الشرقى لكى يهرب من قاتليه •

وهنا كان ينتظره عمرو الفينيقى العامل فى هيئة النجارين •

وصاح به بدوره قائلا :

– اذا كنت تريد المرور فاعطنى كلمة سر الرؤساء •

ونطق أدونيرام فى صعوبة وايماء قائلا :

– « انى لم أحصل عليها بهذه الطريقة ، ولتسل فى هذا الشأن من أرسلك » •

ولما كان يحاول فتح مكان يمر منه ضربه عمرو بسن فرجاره فى قلبه •

وفى هذه اللحظة دوت العاصفة التى أعلن عنها هدير رعد شديد ٠ كان أدونيرام ملقى على الأرض وقد غطى جسمه ثـلاث بلاطات كبيرة ٠ واجتمع القتلة لدى قدميه وقد أمسك كل منهم بيد الآخر ٠

وتمتم فانور قائلا :

ـ « كان هذا الرجل عظيما » ٠

وقال عمرو : « انه لن يشغل فى القبر مكانا أكبر مما ستشغله» ٠

ـ ليسقط دمه على سليمان بن داود !

وأجاب ميتوزاييل قائلا :

ـ « لنتأوه على أنفسنا ؛ انا نملك سر الملك ٠ فلنعدم الدليل على جريمة القتل ٠ ان المطر يسقط والليل بهيم لاضوء فيه وابليس يحمينا ٠ لنجر هذه الجثة بعيدا عن المدينة ونسلمها للقبر » ٠

وعلى هذا لفوا الجثة فى ميدعة طويلة من الجـلد الابيض ورفعوها بأذرعهم وهبطوا بها بلا ضوضاء الى ضفة أبو سيدر متوجهين الى أكمة منعزلة تقع فيما وراء طريق بيثانيا ٠ ولما وصلوا الى هناك وقد اعتراهم الاضطراب وارتعدت أوصالهم ، ألفوا أنفسهم فجأة أمام موكب من الفرسان ولما كانت الجريمة تتسم بالجبن فقد توقفوا فالهاربون دائما جبناء ٠٠ وحينئذ مرت ملكة سـبأ فى صمت أمـام قتلة مرتاعين يجرون جثة زوجها أدونيرام ٠

وتوجه هؤلاء الى مكان أبعد من ذلك وحفروا حفرة فى الأرض غطت جثة الفنان ٠ وبعد ذلك انتزع ميتوزاييل ساقا صغيرة لشجرة من أشجار الأكاسيا وزرعها فى أرض حديثة الحرث حيث رقدت ضحيتهم ٠

وفى أثناء ذلك كانت بلقيس تواصل الهرب خلال الوديان وكانت الصاعقة تمزق السماء وكان سليمان نائما ٠ وكان جرحه أشد قسوة لأنه كان لابد أن يستيقظ ٠

وأتمت الشمس دورتها حول الارض حين زال تأثير المخدر الذى شربه ٠ وأخذ يتخبط ، وهو يتألم من أحلام أليمة ، ضد الأشباح والرؤيا ولم يعد الى مجال الحياة الا تحت تأثير هزة عنيفة ٠

ونهض سليمان مندهشا ٠ وكانت عينـاه التائهتان تبدوان كما لو كانت تبحثان عن عقل سيدهما ٠ وأخيرا تذكر ٠٠

كانت الكأس الفارغة أمامه · وعــادت كلمــات الملكة الأخيرة فارتسمت فى ذهنه · ولكنه لا يراها أمامه فاعتراه الاضطراب · وأخذ شعاع من أشعة الشمس يطير فى سخرية فوق جبينه فجعله يرتعد · وتبين كل شىء وأرسل صرخة غضب مدوية ·

وعبثا حاول جمع المعلومات عنها فان أحدا لم يرها وهى تخرج كما اختفت حاشيتها فى الوادى ولم يعثر الا على آثار مخيمها ·

وصاح سليمان قائلا وهو يوجه الى الكاهن الكبير صادوق نظرة ثائرة : « تلك اذن هى النجدة التى يقدمها ربك الى خدامه ! أهذا هو الوعد الذى أعطانى اياه ؟ لقد أسلمنى كالعـوبة الى أشــباح الهـوة السحيقة · أما أنت أيها الوزير الأحمق الذى تحكم باسمه بفضل عجزى، لقد تخليت عنى دون أن تتوقع أى شىء ودون أن تمنع أى شىء ! من لى بفرق مجنحة لالحق بهذه الملكة الخائنة ! ياجن الأرض والنار ، أيتها المخلوقات المتمردة ، ويا أشباح الجو أتطيعوننى ؟ » ·

وصاح صادوق قائلا :

– « لا تلعن · ان يهوا وحده هو الكبير وهو اله غيور » ·

ووسط هذا الهرج ظهر النبى أهياس بن سيلو كئيبا مروعا تلهبه النار المقدسة · كان أهياس حقــيرا ومخيفا يستمد مكانته من عقله · ووجه كلامه لسليمان قائلا : « لقد وضع الله علامة على جبين قابيل القاتل وقال : « ان من يحاول قتل قابيل سوف يعاقب سبع مرات ! ولما أراق لاميه ، وهو من سلالة قابيل ، الدم قال الله : سوف ينتقم لموت لاميه سبعين مرة سبع مرات · فاسمع اذن أيها الملك ما أمرنى الله أن أقوله لك : ان من أراق دم قابيل ولاميه سوف يعاقب سبعمائة مرة سبع مرات » ·

وخفض سليمان رأسه وتذكر أدونيرام وعلم من ذلك أن أوامره قد نفذت فانتزع منه القوم تلك الصيحة : يالمتعساء ! ماذا فعلوا ؟ انى لم أقل لهم أن يقتلوا » ·

لقد تخلى ربه عنه وأسلمه الى رحمة الجن واحتقرته أميرة السبئيين وخانته · ولذا فقد اعترى اليأس سليمان فخفض جفنه فوق يد لا تحمل سلاحا ويلمع فيها الخاتم الذى تلقــاه من بلقيس وأعطاه هذا الطلسم بصيصا من الأمل · ولما كان يجلس وحده فقد أدار الفص تجاه الشمس وحينئذ رأى جميــع طيور السماء تهرع نحــوه ما عدا الهدهد القبرة

السحرية · ودعاه ثلاث مرات فاضطره الى طاعته وأمره أن يقوده بالقرب من الملكة · وللتو استأنف الهدهد طيرانه ، ولما كان سليمان يرفع ذراعيه نحوه فقد ألفى نفسه يرفع من فوق الأرض ويحمل الى الجو · وتملكه الارتياع فأدار يده وعاد فهبط الى الأرض · أما الهدهد فقد اجتاز الوادى الصغير وحط على قمة أكمة فوق غصن ضعيف من أغصان الأكاسيا لم يستطع سليمان اكراهه على مغادرته ·

وتملك الدوار تفكير الملك سليمان ففكر فى تسيير جيوش لا حصر لها لتدمير مملكة سبأ بالنار وبالدم · وكان كثيرا مايحبس نفسه ليلعن حظه ويدعو الأشباح · واضطر عفريت من جن الهوات السحيقة الى خدمته وأكره على اتباعه فى معازله · ولكى ينسى سليمان الملكة ويغير عاطفته القاتلة أمر باحضار النساء الأجنبيات من كل مكان وكان يتزوجهن طبقا لشعائر محرمة علمته دين الصور الوثنى · ومالبث لكى يخضع الجن أن عمر الأماكن المرتفعة وبنى فى مكان لا يبعد كثيرا عن قمة تابور معبدا لمولوخ ·

وهكذا تحققت النبوءة التى نطق بها طيف هينوش فى مملكة النار الى ابنه أدونيرام بهذه العبارة : « لقد قدر لك أن تنتقم لنا وهذا المعبد الذى تقيمه لأدوناى سوف يكون السبب فى ضياع سليمان » .

الا أن ملك العبرانيين قد زاد عن ذلك كما يخبرنا التلمود . وذلك لأن خبر قتل أدونيرام كان قد انتشر وطلب الشعب الثائر · تطبيق العدالة وأمر الملك تسعة من رؤساء العمال بالتحقيق من موت الفنان بعد العثور على جثته ·

ومرت سبعة عشر يوما . وكان البحث فيما حول المعبد بلا جدوى وجاب الرؤساء الريف بلا فائدة · وأنهك الحـــر أحدهم فأراد التعلق بغصن من أغصان الاكاسيا ليسهل على نفسه مهمة التسلق ؛ فطار من فوقه طائر لامع مجهول . ودهش رئيس العمال هذا اذ رأى أن الشجرة الصغيرة برمتها تتهادى تحت يده ولا يربطها بالارض أى شىء · لقد كانت الارض حديثه الحفر ، فدهش رئيس العمال هذا ودعا اليه رفيقيه .

وفى الحال حفر رؤساء العمال التسعة بأظافرهم ولاحظوا أن الحفرة فى شـــكل قبر ·· وحينئذ قال أحدهم لاخوانه : « ربما كان المذنبون

عمالا أرادوا انتزاع كلمة سر الرؤساء من أدونيرام · أفلا يجدر بنا خشية أن يكونوا قد توصلوا الى هذه الكلمة أن نغيرها ؟

واعترض آخر قائلا : « وأية كلمة نتبناها ؟ » ·

وقال ثالث : « لو وجدنا هنا أستاذنا نختار أول كلمة ينطق بها أي منا · ان تلك الكلمة سوف تخلد ذكرى هذه الجريمة ، والقسم الذى نؤديه هنا للانتقام له نحن وأبناؤنا من قتلته ونسلهم مهما كانوا من المتأخرين ·

وحلف اليمين واتحدت أيديهم فوق القبر ثم عادوا الى الحفر والتنقيب بهمة ونشاط ·

ولما تعرفوا على الجثة أمسك أحد رؤساء العمال بأحد أصابعها فانسلت جلده في يده ، وكذلك الحال بالنسبة لثان · وأمسك به ثالث من معصمه كما يفعل رؤساء العمال مع العمال فانفصل الجلد كذلك . وحينئذ صاح هذا قائلا : « ماكبيناخ » أى اللحم يترك العظم (١) ·

وفى الحال اتفقوا على أن تكون تلك الكلمة من الآن فصاعدا هى كلمة سر الرؤساء وصيحة تجمع المنتقمين لأدونيرام · وأرادت عدالة السماء أن تؤلب تلك الكلمة ولقرون طويلة الشعوب ضد الملوك وسلالاتهم ·

وكان فانور وعمرو وميتوزاييل قد لاذوا بالفرار . الا أن العمال فى بلاد ماكا ملك بلاد جيتسمانيا قتلوهم وقد ظنوهم متخفين فى زى العمال · وكان هؤلاء الثلاثة قد اختبئوا فى هذا البلد تحت أسماء ستركين وأوترفوت وهوبن ·

ومع ذلك فان الهيئات العمالية استمرت تحت ايحاء خفى فى تتبع الثأر الذى أخذوا به خطأ من أبيرام (٢) أو القاتل .. وظلت سلالة أدونيرام مقدسة بالنسبة لهم ، ذلك أنهم ظلوا لمدة طويلة يقسمون بابن الأرملة ويقصدون بذلك نسل أدونيرام وملكة سبأ ·

وبناء على أمر من سليمان بن داود دفن أدونيرام العظيم تحت الهيكل فى المعبد الذى شيده . وهذا هو السبب الذى من أجله تخلى أدوناى عن سفينة العبرانيين وضرب العبودية على خلفاء داود .

---

(١) هذه القصص استقاها نيرفال من تقاليد الماسونية .

(٢) هذا هو اسم أحد القتلة حسب رواية ماسونية أخرى .

وتزوج سليمان فى تعطشه الى المجد والنفوذ والملذات من خمسمائة امرأة ، وتمكن أخيرا من اجبار الجن الذين تصالح معهم على خدمة اغراضه ضد الامم المجاورة وذلك بواسطة الخاتم الشهير الذى صاغه فيما مضى « ايراد » أبو كاينيت ما فيائيل والذى آل على التوالى الى هينوش الذى استخدمه ليتحكم فى الصخر ثم « جارد » الكاهن الأعظم ثم النمرود الذى أورثه لسبا أبى الحميريين (١) .

وأخضع خاتم سليمان لسلطانه الجن والرياح والحيوانات جميعا . ولما شبع من السلطة والملذات صار الحكيم يردد : « كلوا وأحبوا واشربوا ففيما عدا ذلك ليس الا غرور » .

ويالغرائب المتناقضات : ان سليمان لم يكن سعيدا ! لقد كان هذا الملك الذى حطت المادة من قيمته يريد أن يصبح خالدا ...

وكان يأمل بحيله وبعون من علمه العميق أن يتوصل الى ذلك بواسطة بعض الشروط : فلكى يطهر جسمه من عناصر الفناء دون أن يذيب هذا الجسم كان لابد أن يستغرق فى سبات الأموات العميق طوال مائتين وخمسة وعشرين عاما فى مأمن من كل ما قد يحيق به ومن اى عامل من عوامل التلف . وبعد ذلك تعود الروح الشاردة الى غلافها وقد استعادت شبابها فى أزهى مراحل الرجولة المتفتحة ويدل عليها سن الثالثة والثلاثين .

ولما كان سليمان قد اصبح شيخا محدودبا فما أن تبين من اضمحلال قواه الدلائل على اقتراب النهاية أمر الجن الذين استعبدهم بأن يبنوا له فى جبل قاف قصرا لا يصل اليه أحد ، وشيد فى وسطه عرشا ضخما من الذهب والعاج تحمله اربعة أعمدة صنعت من ساق شجرة بلوط قوية .

وهناك قرر سليمان ، أمير الجن ، قضاء فترة هذه التجربة . وقد قضى الفترة الاخيرة من حياته فى السيطرة على جميع الحيوانات والعناصر والمواد ذات الخصائص الكفيلة بتحليل المادة وذلك بواسطة الرموز السحرية والعبارات التصوفيه وبمساعدة الخاتم . وقد سيطر على بخار السحاب ورطوبة الارض وأشعة الشمس وهبوب الرياح والفراشات والعثه واليرقات ، كما سيطر على الطيور الجارحة

(١) هذه المعلومات استقاها نرفال من «المكتبة الشرقية» لهربلو .

والخفافيش والبومة والفئران والذباب الملوث والنمل وأسر الحشرات الزاحفه أو القارضة وكذلك سيطر على المعادن والحجارة والقلويات والحوامض وحتى على ما تخرجه النباتات .

وبعد أن اتخذ هذه الاجراءات وتأكد من أنه انتزع جسمه من جميع عوامل الهدم ، أعوان ابليس التى لا ترحم ، أمر بأن يحمل للمرة الاخيرة الى قلب جبل قاف . وجمع الجن وفرض عليهم أعمالا ضخمة بعد أن حملهم ، تحت التهديد بأفظع ألوان العقاب ، على احترام نومه والسهر من حوله .

وبعد ذلك جلس على عرشه وعدل بقوة جميع أعضاء جسمه التى بدأت تبرد شيئا فشيئا . وذبلت عيناه وتوقفت أنفاسه وراح فى سبات الموت .

واستمر عبيده من الجن فى خدمته وفى تنفيذ أوامره وفي السجود أمام سيدهم الذى كانوا ينتظرون صحوته .

واحترمت الرياح وجهه ولم تجرؤ اليرقات التى تولد الدود على الاقتراب منه ، واكرهت الطيور وذوات الأربع القوارض على الابتعاد . وأدار الماء بخاره . وهكذا وبفضل التأثيرات السحرية ظل الجسم سليما لمدة قرنين من الزمان .

وطالت لحية سليمان وتدلت حتى قدميه ونفذت أظافره من جلد قفازاته ومن قماش حذائه المذهب .

ولكن كيف تتمكن الحكمة البشرية مع حدودها الضيقة من بلوغ الخلود ؟ لقد أهمل سليمان السيطرة السحرية على احدى الحشرات وأصغرها اطلاقا .. لقد نسى احد أنواع حشرة العثة .

وتقدمت العثة دون أن يتبينها أو يراها أحد . والتصقت بأحد الأعمدة التى يستند اليها العرش وقرضته فى بطء ودون أن تتوقف اطلاقا . ومهما بلغت حاسة السمع من ارهاف فلم تكن لتسمع حكيك هذه الذرة التى كانت تهز خلفها كل عام مقدار بضع حبات منشورة نشرا ضئيلا .

وظلت تعمل طيلة مائتين وأربعين عاما .. ثم فجأة مال العمود المقروض تحت ثقل العرش الذى انهار محدثا صوتا ضخما .

وهكذا هزمت العثه سليمان وكانت هى أول من علم بموته لأنه ملك الملوك حين تدحرج على الأرض لم يستيقظ .

وحينئذ علم الجن الراسفون فى قيود الذل بخطئهم واستعادوا حريتهم .

هنا تنتهى قصة سليمان بن داود العظيم الذى لا بد أن يستمع المؤمنون الصادقون قصته باحترام لأن يد النبى قد خطتها باختصار فى السورة الرابعة والثلاثين من القرآن مرآة الحكمة وينبوع الحقيقة .

نهاية قصة سليمان وملكة الصباح

واختتم الراوى قصته التى دامت قرابة أسبوعين . وقد خشيت تشتيت اهتمام القارىء لو تحدثت عما شاهدته فى استانبول فى فترات الاستراحة فى تلك السهرات . وكذلك لم آخذ فى الاعتبار بعض القصص الصغيرة التى تخللت الرواية هنا وهنـاك كما هى العادة ، سواء فى اللحظات التى يكون فيها الجمهور بعد قليل العدد أو للترفية بعد بعض التفاصيل الدرامية . وكثيرا ما ينفق أصحاب المقاهى المبالغ الطائلة لضمان منافسة هذا أو ذاك من الرواة المشهورين . ولما كانت الجلسة لا تتعدى أبدا الساعة ونصف الساعة فان الرواة فى استطاعتهم التواجد فى مقاه عديدة فى نفس الليلة . كما أنهم يحضرون جلسات فى الحريم حين يريد الزوج أن تشاركه أسرته المتعة بعد أن يتأكد بنفسه من أن الرواية مشوقة . ويتوجه الحريصون من الناس لدى تحديد أجر الراوى الى رئيس هيئة الرواة الذين يسمونهم « القصيديين » ، وذلك لأنه قد يحـدث أحيانا أن يختفى سيئو النية من الرواة ، حين لا يكون راضيا عن الأجر الذى تناوله من المقهى أو من المنزل ، وسط موقف مشوق تاركا المستمعين آسفين لعدم قدرتهم على معرفة خاتمة القصة .

وكنت احب كثيرا المقهى الذى يرتاده أصدقائى الايرانيون نظرا لتنوع رواده وحرية القول السائدة فيه . كان هذا المقهى يذكرنى بمقهى سورات الذى حدثنا عنه برناردان دى سان بيير (١) والواقع أن التسامح

---

(١) نشرت هده القصة سنة ١٧٩٩ وقد رواها فولتير فى قصة زاديج . فى هـذه القصة نرى رواد المقهى يردون على أسئلة احد الفلاسفة حول دين كل منهم فيقرظ كل دينه حتى يأتى دور أحد الصينيين فيبين أن كل الاديان سواء .

فى هذه الاجتماعات التى تضم تجارا من جميع بقاع أسيا أكبر منه فى المقاهى التى لا يرتادها الا الأتراك أو العرب . وكانت القصة التى رواها لنا الراوى تناقش فى كل جلسة من مختلف جماعات الرواد ، وذلك لان الحديث فى مقاهى الشرق لا يكون أبدا عاما . وفيما عدا ملاحظات الحبشى الذى يبدو أنه يسرف فى تعاطى « عصير نوح » فان أحــدا لم يضع المعطيات الرئيسية للرواية موضع الشك . وذلك لانها فى الواقع مطابقة للمعتقدات العامة فى الشرق . ومع ذلك فقد صادفنا شيئا من روح المعارضة الذى يتميز به الفرس والعرب من سكان اليمن . كان راوينا ينتمى الى مذهب على الذى يشبه الى حد ما التقليد الكاثوليكى فى الشرق بينما الأتراك قد اجتمعوا على مذهب عمر الذى يعتبر مثل البروتستانتية والذى نشروه حين أخضعوا الشعوب الجنوبية (كذا) .

العيد

- ١ -

نافورة المياه العذبة لآسيا

لم نكن قد عدلنا عن فكرة تخصيص يوم من أيام الجمعة لزيارة نافورة المياه العذبة لآسيا • وفى هذه المرة اخترنا الطريق البرى الذى يؤدي بعد ذلك الى بويوكدرى .

وفى الطريق توقفنا لدى بيت ريفى كان مقرا لـ ب .. أفندى وهو أحد كبار موظفى السلطان • وكان هذا الموظف أرمينيا متزوجا من قريبة الأرمن الذين يقيم لديهم صديقى • وكانت ثمة حديقة مزينة بالنباتات النادرة تتقدم مدخل البيت وكانت هناك طفلتان غاية فى الجمال مرتديتان ملابس تجعلهما سلطانتين صغيرتين تلهـوان فى الممرات تحت رعاية مربية زنجية . وتقدمت الفتاتان لتقبيل الرسام ورافقتانا حتى داخل البيت . وأتت سيدة فى ملابس شرقية لاستقبالنا وقال لها صديقى : « كاليميرا كوكونا » أى صباح الخير ياسيدتى • لقد حياها باللغة اليونانية لأنها كانت من هذه البلاد رغم ارتباطها بالأرمن •

وقد يجد المرء شيئا من الحرج لاضطراره للحديث فى علاقة سفر عن شخصيات من الأحياء لا سيما اذا كانوا قد بذلوا قصارى جهدهم لحسن استقبال الأوربى العـابر والذى يسعى الى أن يحمل فى عودته الى بلاده شيئا من الحقيقة حول العـادات الاجنبية والمجتمعات المتعاطفة فى كل مكان مع مجتمعاتنا والتى ترسل اليها الحضارة الفرنسية اليوم بعضا من أشعة النور ... واذا كنا فى العصور الوسطى قد تلقينا كل شىء من الشرق فنحن الآن نريد أن نعيد الى هذا المنهل المشترك الذى نهلت منه الانسانية جمعاء القدرات التى منحتنا اياها لكى تصبح الأمم العالمية عظيمة من جديد •

ان اسم فرنسا الجميل عزيز على هذه الامم البعيدة : وهنا تكمن قوتنا المستقبلة ... هذا هو ما يمكننا من الانتظار مهما فعلت الديبلوماسية المستهلكة لحكوماتنا .

ويمكننا أن نقول ونحن نذكر بعض شخصيات تلك البلاد ما قاله راسين فى مقدمة مسرحيته « بايزيد » : « ان هذا جد بعيد » ولكن أليس من المستطاع أن نوجه الشكر الى مضيفين هرعوا الينا وغمرونا بكرم ضيافتهم كما فعل لنا الارمنيون ؟

انهم باعتبارهم أكثر اتصالا من الأتراك بأفكارنا فهم يعتبرون نوعا من مراحل الانتقال تؤدى الى حسن نوايا الاتراك التى كانت فرنسا دائما بالنسبة لهم الأمة الصديقة .

واعترف أننى بعد غيبة عام كامل عن بلادى وجدت متعة كبيرة فى العثور على وسط عائلى أوربى خالص ، فيما عدا ملابس النساء ، التى لا ترتبط ، لحسن حظ اللون المحلى ، الا الى آخر الصيحات المستحدثات فى استانبول .

وقدمت لنا السيدة ب .. تحية الضيافة بواسطة بنتيها الصغيرتين . وبعد ذلك دلفنا الى القاعة الرئيسية حيث كان يوجد عدد كبير من نساء الشرق • وجلست احداهن أمام البيانو لكى تلعب أحدث المقطوعات التى وصلت من باريس ؛ وكان ذلك تحية حظيت بتقديرنا الشديد ونحن نبدى اعجابنا بأجزاء من أوبرا جديدة لهاليفى •

وكانت ثمة بعض الجرائد على الموائد وبعض كتب الشعر والمسرحيات لفيكتور هوجو ولامارتين • وهذا يبدو غريبا لمن قدم من سوريا وبسيطا غاية في البساطة اذا تذكرنا أن القسطنطينية تستهلك من الكتب الأدبية والفنية الآتية من باريس مثلما تستهلك بيترسبورج تقريبا •

وبينا كنا نمر بأعيننا على الكتب المصورة ومجموعات الصور دخل السيد ب •• وأراد استبقاءنا للعشاء • ولكن لما كنا قد عزمنا على الذهاب الى المياه العذبة فقد اعتذرنا شاكرين • وأصر السيد ب •• على مرافقتنا حتى البسفور •

وقضينا بعض الوقت على الشاطىء فى انتظار احد القوارب . وبينما كنا نجوب الرصيف رأينا رجلا ذا مظهر جليل ولون يشبه لون الأجناس المختلطه قادما من بعيد وهو يرتدى ملابس غاية فى الأناقة

على الطريقة التركية ، لا على طراز ثوب الاصلاح ولكن على الطراز القديم .

وتوقف الرجل حين رأى السيد ب ... الذى حياه فى احترام وتركناهما يتحدثان بعض الوقت . واخبرنى صديقى أنه شخصية كبيرة وأنه ينبغى توجيه سلام حار له حين يغادرنا ، قال ذلك وهو يضع يده على صدره ويده على فمه حسب العادة الشرقيه . وقد قمت بتنفيذ هذه التعليمات ورد الرجل ذو الدم المختلط التحية بظرف جم .

وكنت واثقا من أنه ليس السلطان الذى رأيته من قبل . فقلت فى نفسى حين ابتعد من عساه يكون ؟

واجابنى الرسام بمزيج من مشاعر الاعجاب وبعض الفزع : ــ انه كيسلر أغا .

وفهمت كل شىء . ان كيسلر أغا هو رئيس خصيان السراى وهو أكثر رجل يخشى جانبه بعد السلطان وقبل رئيس الوزراء . وأسفت لأننى لم أعقد معرفة أكثر توثقا مع هذه الشخصية التى كانت تبدو شديدة الأدب ولكن كذلك شديدة الاقتناع بأهميتها .

وأخيرا التحق بنا بعض الراغبين فى الركوب . وغادرنا ب .. افندى وحملنا قارب ذوستة من المجدفين الى الشاطىء الأسيوى .

وقضينا ساعة ونصف الساعة لبلوغ المياه العذبة . وكنا نعجب على كلا الشاطئين بالقلاع المشرفة من ناحية البحر الأسود على بيراواستانبول واسكودا والتى تحميها من غزوات القرم أو التريبيزوند . انها عبارة عن أسوار وأبراج كتلك التى تفصل بيرا عن غلطه .

ولما تعدينا القلاع الأسيوية والأوربية دخل قاربنا الى أنهار المياه العذبة . وكانت الأعشاب العالية التى تطير منها طوائف طيور البحر هنا وهناك تحف بهذا المصب الذى ذكرنى بعض الشىء بفرعى النيل اللذين يصبان قرب البحر فى بحيرة المنزلة . الا أن الطبيعة هنا كانت أكثر هدوءا وأشد اخضرارا وأقرب الى طابع الشمال وكانت تعبر عن جمال الدلتا المصرية كما تترجم اللغة اللاتينية اللغة اليونانية باضعافها .

ونزلنا برا فى برارى رائعة تتخللها المياه الجارية . وكانت الغابات التى تتميز فى اضاءتها بذوق فنى تضفى من مكان الى آخر ظلالها على الأعشاب الطويلة . وكانت الخيام التى نصبها باعة الفاكهة والمرطبات

تضفي على المنظر طابع الواحات التى تتوقف لديها القوافل المتنقلة . وكان المكان غاصا بالناس فكانت ألوان الثياب المختلفة تغير من لون الخضرة كما يحدث حين تنعكس ألوان الزهور الزاهية على الحشائش فى الربيع . وفى أفسح مكان خال وسط أشجار الغابة تبينا نافورة من الرخام الأبيض تشبه فى هيئتها منظر السرادقات الصيفية التى يطغى أسلوبها الهندسى الخاص على القسطنطينية .

ان فرح هؤلاء الناس بشرب الماء جعلهم يخترعون أجمل ما يخطر فكرته على بالنا من المنشئات . لم يكن ذلك نبعا كنبع أرنئوط ــ قول الذى ينبغى أن ننتظر أمامه مزاج أحد الأولياء الذى لا يسمح بانسياب الماء من النافورة الا ابتداء من يوم عيده . ويطيب هذا للكفار الذين ينتظرون بصبر طويل أن تهبط معجزة فتتيح لهم الارتواء من الماء الصافى .. أما فى نافورة المياه العذبة لأسيا فلا تعذب مثل هذه النزوات أحد . ولست أدرى أى ولى من أولياء الله المسلمين يجعل المياه تنساب فى وفرة وصفاء لا يعرفهما القديسون من اليونانيين . ويدفع المرء بارة واحدة للحصول على زجاجة من هذا الشراب الذى يكلف للحصول عليه من مكانه عشرة قروش كنفقات سفر .

وكانت العربات من جميع الانواع ، وأغلبها مذهب وتجره الثيران ، قد أوصلت نساء اسكودار الى ينابيع المياه العذبة . ولذا فلم نر بالقرب من النافورة الا نساء وأطفالا يتكلمون ويصرخون ويتحدثون فى انطلاق وضحك وتخبطات مازحة لطيفة بتلك اللغة التركية التى تشبه مقاطعها الرقيقة شقشقة الطيور .

واذا كانت النساء الى حد ما مختفيات تحت خمرهن فانهن مع ذلك لا يحاولن الاختفاء الشديد عن الافرنج المستطلعين . ان تعليمات الشرطة التى كثيرا ما تأمرهن بجعل الخمر أكثر كثافة وأن يحجبن عن الكفار كل عورة من شأنها التأثير على أحاسيسهم تلهمهن نوعا من الاحتشام لا يضعف بسهولة أمام اغراء عادى .

وكانت حرارة النهار فى هذا الوقت شديدة وكنا قد جلسنا تحت شجرة ضخمة من أشجار السيجان تحيط بها الأرائك الريفية . وحاولنا الاستغراق فى النوم الا أن النوم ظهرا مستحيل بالنسبة للفرنسيين ولما لاحظ الرسام أننا لا نستطيع النوم أخذ يقص علينا احدى القصص

كانت القصة هى مغامرات أحد أصدقائه وكان قد قدم الى

القسطنطينية لجمع ثروة عن طريق طبع الصور على المعادن الحساسة (١).

كان يبحث عن الأماكن شديدة الزحام . وأتى يوما فوضع جهازه العاكس تحت ظلال المياه العذبة .

وكان ثمة طفل يلهو على الحشائش وأسعد الحظ الفنان بتثبيت صورته الكاملة على لوحة معدنية . ووسط فرحته برؤية هذه التجربة الناجحة عرضها أمام محبى الاستطلاع الذين لا ينعدمون أبدا في مثل هذه المناسبات .

واقتربت الأم بدافع طبيعى من حب الاستطلاع ودهشت لرؤية طفلها وقد رسم بكل هذا الوضوح ، وظنت أن ذلك ضرب من ضروب السحر .

ولما كان الفنان لا يعرف اللغة التركية فلم يفهم لأول وهلة التقريظ الذى وجهته له السيدة . الا أن زنجية كانت ترافق السيدة وجهت اليه اشارة .. وصعدت السيدة الى عربتها واتجهت الى اسكودار .

وحمل الرسام تحت ابطه الصندوق الذى يحتوى على جهازه العاكس ، وهى آلة ليست سهلة الحمل ، وظل يتبع العربة مسيرة فرسخ كامل .

وحين وصل الى أولى مساكن اسكودار رأى العربة من بعيد تتوقف وتنزل منها السيدة الى كشك منعزل يطل على البحر .

وأشارت اليه العجوز بألا يظهر نفسه وأن ينتظر ، وحين أرخى الليل سدوله أدخلته الى البيت .

ومثل الفنان أمام السيدة التى صرحت له بأنها استقدمته ليستخدم آلته فى رسم صورتها بنفس الطريقة التى استخدمها فى رسم صورة طفلها .

وأجاب الفنان قائلا أو بالأحرى محاولا افهامها :

« ان هذه الآلة لا تعمل الا فى الشمس » .

---

(١) الامر يتعلق ولاريب بالرسام اميل روجييه الرسام الذى حاول جمع الثروة عن طريق رسوماته وكذلك عن طريق الطبع على المعادن الحساسة ..

وقالت السيدة :

« حسن ، لننتظر الشمس » .

وكانت السيدة - لحسن حظ الاخلاق لدى المسلمين ، أرملة . وفى صباح اليوم التالى انتهز الفنان فرصة نفاذ شعاع جميل من أشعة الشمس من خلال النوافذ ذات القضبان فانهمك فى عكس ملامح السيدة الجميلة القاطنة فى حى اسكودار . لقد كانت فى شرخ شبابها رغم أنها أم لطفل كبير وذلك لأن نساءالشرق كما نعرف يتزوج أغلبهن فى سن الثانية عشرة . وبينما كان يهذب لوحته سمعت صوت طرقات على الباب الخارجى .

وصاحت به السيدة قائلة :

« اختبىء » وساعدتها الخادمة فى ادخال الرجل وجهازه العاكس فى خزانة ضيقة جدا ملحقة بغرفة النوم . وقضى الرجل التعس فى صومعته تلك وقتا طويلا كان فيه نهبا للافكار السوداء فقد كان يجهل أن هذه المرأة أرملة وظن بطبيعة الحال أن الزوج قد عاد فجأة ودون اخطار من بعض رحلاته . وكان ثمة فرض آخر لا يقل عن الأول خطورة الا وهو تدخل الشرطة الى هذا البيت الذى ربما يكون البعض قد لمح فيه فى الليلة الماضية دخول أحد الكفار . وفى تلك الاثناء كان يصيخ السمع . ولما كانت المنازل الخشبية للاتراك ليس بها الا حواجز غاية فى الضعف فقد هدأ روعه قليلا حين لم يسمع الا وشوشة أصوات نسائية .

والواقع ان السيدة قد استقبلت احدى صديقاتها التى أتت لزيارتها . الا أن الزيارات التى تقوم بها النساء فى القسطنطينية تستمر عادة طول النهار فان هؤلاء العاطلات الجميلات ينتهزن كل فرصة لقتل أكبر قدر ممكن من الوقت . وكان ظهوره خطرا فان الزائرة قد تكون عجوزا أو قبيحة الشكل . وفوق ذلك فرغم ان الزوجات يتقاسمن الازواج فى سهولة الا أن الغيرة لا تغيب عن نفوسهن حين يكون الأمر متعلقا بمسألة غرامية . لقد كان التعس موضع اعجاب .

وحين أقبل المساء غادرت الصديقة الثقيلة البيت أخيرا بعد أن تناولت الغداء ثم المرطبات بعد ذلك واسترسلت فى أحاديث تغلب عليها بلا شك الغيبة ، وهكذا أمكن اخراج الفرنسى من مخبئه الضيق .

وكان الوقت متأخرا بحيث يتعذر استئناف العمل الطويل الشاق

فى الصورة ، كما أن الفنان كان قد تحمل الجوع والعطش لعدة ساعات ٠ ولذا فقد اضطروا الى ارجاء الأمر لليوم التالى ٠

وفى اليوم الثالث ألفى نفسه فى موقف البحار الذى تحدثت عنه الأغنية الشعبية وزعمت أن احدى رئيسـات عهد لويس الخامس عشر قد احتجزته مدة طويلة ٠٠٠ وبدأ الملل يتسرب الى نفسه ٠

ان حديث السيدات التركيـات ذو وتيرة واحدة فضـلا عن أنه من العسير ، حين يجهل المرء اللغة التركية ، أن يتسلى لمدة طويلة بصحبتهن ٠ لقد توصل الى انجاز الصورة المطلوبة بنجاح وأفهم السيدة أن ثمة أعمالا على جانب كبير من الاهمية تستلزم عودته الى بيرا ٠ الا انه كان من المستحيل الخروج من البيت فى وضح النهار ٠ وحين أقبل المساء قدمت له السيدة تحية رائعة من المرطبات اضطرته الى البقاء كدليل لا أقل منه للاعتراف بكرم الضيافة هذا ٠ ومع ذلك ففى اليوم التالى أبدى رغبته القوية فى الانصراف ٠ وكان لابد كذلك من انتظار حلول المساء ٠ ولكنهم أخفوا آلة الطبع الحساسة فكيف له الخروج من هذا البيت دون تلك الآلة الثمينة التى لم يكن من الممكن فى هذا الوقت العثور على مثلها فى المدينة ؟ كما أنهـا كانت مصدر رزقة ٠ ان نساء اسكودار على شيء من التوحش فى علاقاتهن الغرامية ٠ وقد افهمت تلك المرأة الفنان ، الذى كان قد انتهى به الأمر الى التقاط بعض الكلمات التركية ، بأنه اذا كان يريد مغادرتها من الآن فصاعدا فسوف تستدعى الجيران مدعية أنه تسلل خفية الى البيت للاعتداء على شرفها ٠

وانتهت تلك العـلاقة المزعجة بنفاد صبر الشـاب فتخلى عن آلته وتوصل الى الهرب من النافذة حينما كانت السيدة مستغرقة فى النوم.

والمؤسف فى هذه المغامرة أن أصدقاءه فى بيرا لما افتقدوه أكثر من ثلاثة أيام قاموا بابلاغ الشرطة التى حصلت على بعض المعلومات عن المشهد الذى دار فى ينبوع المياه العذبة لأسيا ٠ ورأى بعض الريفيين العربة وهى تمر والفنان يتبعها من بعيد ٠ واستدلت الشرطة على البيت ولا بد أن السيدة التركية التعسة كانت تلقى مصرعها بواسطة الشعب المتعصب الغاضب من استقبالها لاحد الكفار لولا أن الشرطة اختطفتها سرا ٠ وكان جزاؤها خمسين ضربة عصا كمـا تلقت الزنجية خمسـا وعشرين ضربة اذ أن القانون لا يطبق على العبيد الا نصف العقوبة التى تطبق على الاحرار من الناس ٠

٣ ـ أمسية عيد الفطر

ان عيد الفطر لدى الأتراك يشبه عيد رأس السنة عندنا . فان الحضارة الأوربية التى نفذت شيئا فشيئا الى عاداتهم قد جذبتهم شيئا فشيئا فيما يختص بالتفاصيل المتفقة مع دينهم .

وهكذا فان النساء والأطفال يشغفون حبا بالتحلى بالزينات والكماليات واللعب القادمة من فرنسا أو ألمانيا . وفوق ذلك فاذا كانت النساء التركيات يتقن صنع المربى فان امتياز صنع الحلوى وتعليبها تعليبا رائعا فى صناديق من الكرتون ينتمى الى الصناعة الباريسية . ولقد مررنا فى طريق عودتنا من ينبوع المياه العذبة بشارع بيرا الكبير الذى أصبح فى هذه الأمسية شبيها بشارع لومبارد لدينا . ولقد طاب لنا التوقف لدى صانعة الحلوى الأولى مدام مونييه لتناول بعض المرطبات ومشاهدة الجماهير ورأينا هناك بعض الشخصيات الكبيرة وأثرياء الاتراك الذين قدموا بأنفسهم للحصول على المشتروات اذ أنه ليس من الحرص فى شيء فى هذا البلد تكليف الأتباع بشراء الحلوى . وكانت مدام مونيه تحظى بصفه خاصة بثقة علية القوم من الأفندية الذين كانوا يعرفون أنها لن تبيعهم الا الموثوق به من الحلوى .. وقد يحدث أحيانا أن يؤدى التنافس والغيرة والأحقاد الى ارتكاب الجرائم فى المجتمع الاسلامى . واذا كان الصدام المسلح قد أصبح نادرا الا أن السم فى بعض الاحوال ما زال هو الحجة الكبرى لدى النساء اللاتى ظللن حتى ذلك الوقت أكثر تخلفا من أزواجهن .

وفى لحظة ما اختفى جميع الأتراك من المحل حاملين لفائفهم كما يختفى الجنود حين تدق ساعة الانسحاب ، لأن الوقت كان قد حان لأداء احدى الصلوات التى يؤدونها ليلا فى المساجد .

ان هؤلاء القوم الطيبين لا يكتفون فى سهرات رمضان بالاستماع الى الرواة وبرؤية القراقوز فان لديهم أوقاتا للصلاة تسمى « ركعات » ترتل فيها فى كل مرة عشر آيات من القرآن • وينبغى فى كل ليلة تأدية عشر ركعات سواء فى المساجد ، وهو الأفضل ، أو فى البيت أو فى الشارع اذا لم يكن للمرء بيت ، كما يحدث لكثير من الناس الذين لا ينامون الا فى المقاهى • وعلى ذلك فان المسلم الحق يجب أن يرتل كل ليلة مائتى آية أى ستة آلاف آية فى الليـــالى الثلاثين • ولا تعتبـر الرواية أو المسرح أو النزهات الا نوعا من الترويح بعد هذا الواجب الدينى •

وقصت علينا بائعة الحلوى قصة تبين الى حد ما سذاجة بعض الموظفين الأتراك • كانت قد أرسلت فى طلب بعض صناديق اللعب من نورمبرج عن طريق سفينة تمر فى نهر الدانوب • وكانت رسوم الجمارك تدفع بناء عن الاقرار بثمن البضاعة • الا أنه فى القسطنطينية وغيرها لتجنب الغش فان للادارة الحق فى الاحتفاظ بالبضاعة بعد دفع الثمن المذكور فى الاقرار اذا افترضت أن قيمتها أكبر •

ولما انتزعت أغلفة صناديق اللعب القادمة من نورمبرج أصدر جميع موظفى الجمرك صيحة اعجاب • وكان الاقرار يقدر قيمة البضاعة بعشرة آلاف قرش (٢٦٠٠ فرنك) وكانت حسب تقديرهم تقدر على الأقل بثلاثين ألفا • وهكذا احتفظوا بالصناديق التى كان الثمن الذى دفع فى بيعهـــا بهذه الطريقة سخيا دون أن تتحمل صاحبتها نفقات تفريغ • وأخذت مدام مونييه العشرة آلاف قرش وهى تسخر من سذاجتهم • وتقاسموا هم الدمى والجنود والعرائس الخشبية لاليهدوها لأطفالهم ولكن ليلهوا هم انفسهم بها •

وفى اللحظة التى غادرت فيها الحانوت عثرت فى أحد جيــوبى ، وأنا أبحث عن منـــديلى ، على القنينة التى كنت اشـــتريتها فى ميدان سيراسكييه • وسألت مدام مونييه من كنه هذا الشراب الذى بيع الى على أنه مرطب والذى لم استطع تحمل الجرعة الأولى منه : هل هو عصير ليمون آسن أم شراب بافارى مضروب أم شراب خاص بهذا البلد ؟

وانفجرت بائعــة الحــلوى وفتياتها ضاحكات فى جنون لدى رؤية القنينة بحيث غدا من المستحيل استخلاص أية بيانات منها • وقال لى الرسام وهو يشيعنى ان هذا الضرب من المشروبات لا يباع الا للأتراك حين بلوغهم سنا معينا • ومن المعتاد فى هذا البلد أن تضعف الحواس بعد سن الثلاثين • ومـع ذلك فان كل زوج مجبر ، حين ترتسم آخر تقويرة

لهلال العيد ،على أداء أكثر واجباته خطورة ٠٠ ومنهم من لاتكفى مهازل قراقوز لاثارته ٠

وهلت ليلة العيد : ورحل هلال رمضـــان اللطيف الى حيث رحلت الأهلة السابقة وثلوج العام الماضى ،مما كان يسلم شاعرنا العجوز فرانسوا فيللون الى أحلام اليقظة ٠ والواقع ان الحفلات فى صبغتها الجادة لاتبدأ الا من الآن ٠ ان الشمس التى تطلع لافتتاح شـــهر شوال ينبغى لها ان تنتزع التاج من فوق رأس القمر المتعالى وتجرده من هذا الضياء الذى أغتصبه منها فتحول طوال ثلاثين يوما الىشمس حقيقية ليلية، بمساعدة الأنوار والمصابيح والألعاب النارية ٠ وأخبرنى الايرانيون الذين يقيمون معى فى ييلدزخان باللحظة التى يشيع فيها القمر الى مثواه ويجلس فيها الهلال الجديد علىعرشه ويقام لتلك المناسبة حفل رسمى رائع ٠

وقامت قوات الجيشـ فى تلك الليلة بحركة كبيرة ٠ وأقيم سـياج بين اسكى سراى محل اقامة السلطانة الأم والسراى الكبيرة الواقعة فى الطرف البحرى لاستانبول ٠ وابتداء من قصر الأبراج الســبعة وقصر بليزير الى مسجد أياصوفيا أخذ الناس يتدفقون من مختلف الأحياء نحو هاتين النقطتين ٠

وكيف يتسنى لى وصف جمال هذه الليلة المحظوظة ؟ وكيف أشرح على وجه الخصوص السبب الغريب الذى من أجله تجعل هذه الليلة السلطان الرجل الوحيد السعيد فى امبراطوريته ؟ فقد اضطر جميع الناس المتمسكين بالدين خلال شهر كامل الى الامتناع عن أية فكرة مرتبطة بالحب (١) ٠

ولم يبق أمامهم الا ليلة واحدة ثم يصبح فى امكانهم ارسال باقـة الزهور الدالة على التفضيل الى من يقع عليها الاختيار من نسائهم ، اذا كان لهم الكثير ٠ أما اذا لم يكن لهم سوى زوجة واحدة فان الباقة تصـــبح حقا لها ٠

اما السلطان فبصفته حاكما مطلقا (بادشاه) وخليفة فمن حقهعدم الانتظار حتى الليلة الأولى من هلال العيد وهو هلال الشـهر القادم ولا يظهر الا فى اليوم الأول من أيام شهر العيد ٠ وبذا يكون له السبق بليلة

(١) من الواضح أن كلام نيرفال فيه الكثير من الخيال والغرض من ذلك هو اثارة مواطنيه من القراء ٠

واحدة على جميع رعاياه من أجل الحصول على وريث وفي هذه الحالة لاتنجبه الا امرأة جديدة ٠

هذا هو مضمون الاحتفال الذى اقيم كما قيل لى بين السراى القديمة والجديدة ٠ وتقدم أم السلطان أو عمته الى ابنها جارية عذراء تشتريهـــا بنفسها من السوق وتقودها فى موكب تحوطه الأبهة فى عربة من عربات المواكب ٠

وفعلا ما لبث خيط طويل من العربات ان عبر الاحياء المأهـــولة فى استانبول متبعا الشارع المركزى حتى أياصوفيا التى يقع باب القصر الكبير بجوارها ٠ وكانت تلك العربات ، وعددها عشرون ، تضم جميع قريبات سموه وكذلك جميع السلطانات اللاتى تحررن من العبودية مع الحصـــول على معاش بعد انجابهن لأمير أو أميرة ٠ ولم تكن سياجات العربات تمنع من تمييز أشكال رءوسهن المغطاة بالنقاب الأبيض أو ملابسهن الخارجية ٠ وكانت من بينهن واحدة أدهشتنى ضخامتها ٠ ولا بد أنها تحظى ببعـــض الامتيازات أو بفضل الحرية التى تستمدها من مركزها أو من سنها ٠ لم تكن هذه تحيط رأسها الا بخمار غاية فى الرقة كان يمكن الرائى من تمييز سماتها التى كانت فيما مضى جميلة ٠ أما المحظية الجديدة فلا بد أنها كانت فى العربة الرئيسية ولكن كان من المستحيل تمييزها من السيدات الأخريات وكان ثمة عدد كبير من الخدم السائرين على الأقدام يحملون الشعلات والجرار المشتعلة على جانبى الموكب ٠

وتوقف الموكب فى الميدان الرائع لدى باب السراى ٠ وكانت ثمة نافورة رائعة تزين هذا الميدان وقد جملت بالرخام والتعريجات والنقوش العربية المذهبة وسقف على الطراز الصينى وزينات براقة من البرونز ٠

وما زال باب القصر يتيح لك من بين أعمدته رؤية الأكشاك التى كانت ترصص فى الماضى لعرض الرءوس ، رءوس السراى الشهيدة ٠ (١)

---

(١) تسببت مقطوعة شعرية من ديوان «الشرقيات» لفيكتور هوجو فى شهرة هـذه الرءوس ٠

٣ - حفلات السراى

وانى لأجد نفسى مضطرا الىعدم الولوج فى وصف الاحتفالات الداخلية للقصر فقد اعتدت ألا اتحدث الا عما أراه بنفسى • ومع ذلك فقــد كنت أعرف مقدما بعض أجزاء المكان الذى تقام فيه الاحتفالات • ان كل أجنبى يستطيع زيارة القصور الكبرى والمساجد فى أيام معينة اذا كان يملك ألفين أو ثلاثة آلاف من القروش التركية • الا أن هذا المبلغ يفوق طاقة السائح العادى الذى يتردد غالبا فى تقديمه • ولكن لما كان من المستطاع بهذا الثمن استحضار أى عدد من المصاحبين فان محبى الاستطلاع يساهمون فيــه أو ينتظرون حتى تقوم احدى الشخصيات الاوربية الكبيرة بدفع هــــذه النفقات •

وهكذا استطعت رؤية جميع هذه القصور فى الوقت الذى مر فيــه أمير بروسيا الملكى • وقد جرى العرف فى مثل هذه المناسبات أن يقبل من يتقدمون من الأوربيين ضمن الموكب •

وبدلا من المجازفة بوصف فى الامكان قراءته فى جميع كتب الرحلات من الأفضل بيان موضع الابنية العربية وحدائق السراى التى تشـــغل المثلث الأرضىالذى يقطعه القرن الذهبى والبسفور انها مدينة بأسرها تحيط بها الأسوار العالية ذات الفتحات والأبراج المتباعدة والتى ترتبط بالجدار الكبير الذى بناه الاغريق والذى يشرف على البحر بطوله حتى قصر الابراج السبعة والذى يغلق هكذا المثلث الضخم الذى تشكله مدينة اســـتانبول اغلاقا تاما •

وتضم أبنية السراىعددا كبيرا من المبانى القديمة والجواسق والمساجد

أو الزوايا وكذلك بعض المباني الأكثر جدة والتي تقارب الذوق الأوربي ٠ وثمة حدائق مدرجة بها أماكن فسيحة مزروعة بالنجيل وخمائل وجداول من الرخام وطرقات ضيقة مغطاة بنقوش من الحصى ، وأشجار صغيرة مقصوصة ومربعـــات من الزهور النادرة وقد خصص كل ذلك لنزهه السيدات ٠ وكانت هناك حدائق أخرى على الطريقة الانجليزية وبرك صـغيرة اهلة بالطيور وسيجان باسقة وأشجار السرو والجميز تنتشر حول الجواسق في الجزء الأكثر قدما ٠ وفي استطاعة جميع الأشخاص المعروفين ببعض الشيء أو الذين يتعاملون مع الموظفين عبور أجزاء السراى غير المخصصـة للنساء أثناء النهار ٠ ولقد تنزهت فيها كثيرا فى ذهابى اما الى المكتبة او الخزانة ٠ أما المكتبة ، التى كان من اليسير دخولها ، فتضم عددا كبيرا من الكتب والمخطوطات الطريفة لاسيما نسخة من القرآن محفورة على ورق رقيق من الرصاص يمكن تقليبه كالورق العادى بفضل جودة صناعته وزخارفه. هذا المصـحف من الميناء وهى شـديدة التألق ٠ أما فى خزانة الكنوز فيمكننا الاعجاب بالمجوهرات الامبراطورية التى يحتفظ بها منذ قرون ٠ وفى احدى القاعات نرى كذلك جميع رسوم السلاطين فى صور مصغرة وقـد رســمها أول الأمر بللين الفينيسى ثم غيره من الرسامين الايطاليين ٠ أما آخر هذه الرسوم ، وكان للسلطان عبد المجيد ، فقد قام برسمه فرنسوا كاميل روجييه الذى كان له فضل تصـــوير سلسلة من الملابس البيزنطية الحديثة ٠

وهكذا فقد أخلت العادات القديمة وحياة العزلة والوحشة المنسوبة الى المسلمين المكان أمام التقدم الذى فرضته الافكار الحديثة ٠ كان ثمة فناءان فسيحان يتقدمان مبـانى السراى الكبيرة بعد المدخل الأول الذى يسمى بصفة خاصة : الباب ٠ وكان آخـر الفناءين محاطا بأروقة منخفضة وقد خصص فى غالب الأمر لتدريب الغلمان الذين كانوا يتنافسون فى المهارة فى الألعاب الرياضية والفروســية ٠ أما أولهما الذى كان دخوله مباحا للجميع فيعطينا مظهرا ريفيا بأشجاره وعرائشه ٠ وكان ثمة شيء غريب يميزه الاوهوهاون ضخم من المرمر كان يبدو من بعيد كما لو كان فوهة بئر ٠ كان هذا الهاون مخصصا لأمر خاص وهو دق جسم المفتى ، رئيس الدين بيد هاون من الحديدتتناسب مع حجم الهاون ، لو حدث وأخل بواجباته ٠ وفى كل مرة يأتى هذا الشخص لزيارة السلطان كان يضطر الى المرور أمام هذه المفرمة الكبيرة التى قد يكون من حظه اختتام حياته فيها ٠ وكان من نتيجة الهلع الخير الناتج عن ذلك أن لم يتعرض لهذا التعذيب حتى الآن سوى مفتى واحد ٠

وكان تدفق الجمـوع من الكبر بحيث بدا لى من المستحيل الدخول حتى فى الفناء الاول • وعدلت عن ذلك رغم ان الجمهور العادى تمكن من الدخول حتى هناك ورأى سيدات السراى القديمة يهبطن من عرباتهن • وكانت الشعلات والحراب النارية تنشر اللهب هنا وهناك على الملابس وفوق ذلك فان عددا كبيرا من السعاة يوزعون ضربات العصى العـديدة للمحافظة على نظام الصفوف الأولى • وحسب ما علمت لم يكن الأمر يعد؛ مشهدا من مشاهد العرض والتشريفة • كان ينبغى أن تتولى السلطانات وعددهن ثلاث استقبال الجارية الجـديدة للسلطـان وكذلك المحظيات وعددهن ثلاثون فى أجنحتهن • ولم يكن ثمة ما يمنع السلطان من قضاء ليلته مع العذراء اللطيفة ، عذراء ليلة العيد • وينبغى الاعجاب بالحكمة الاسلامية التى وضعت فى حسبانها امكانية استيلاء محظية ، ربما تكون عقيما على حب رئيس الدولة ورضائه •

كان الواجب الدينى الذى فرض عليه تلك الليلة مستمدا فى أغلب الأحيان من المحافظة على نسله • وكذلك الأمر بالنسبة لهذا الواجب الذى يفرض على المسلمين العاديين فى الليلة الأولى من شهر العيد •

وهذا الامتناع الذى فرض عليهم طوال شهر كامل والذى ربما كان من نتائجه تجديد قوى الرجل وهذا الصيام الجزئى الذى يطهره لابد أنهما يخضعان لاحتياطات طبية مشابهة لتلك التى نجدها فى القانون اليهودى • ولنذكر أن الشرق هـو الذى اعطانا الطب والكيمياء وتعاليم الصحة التى تعود الى آلاف السنين ، ولنأسف لأن أدياننا فى الشـمال لا تمنحنا الا تقليدا غير مكتمل • وانى لآسف اذ أن لوحات العادات الغربية التى ذكرت فيما سبق تهدف الى اتهام المسلمين بالفسق •

ان معتقداتهم وعاداتهم تختلف عنا الى حد أنه لا يمكننا الحكم عليهم الا من وجهة نظر فسادنا النسبى • ويكفى أن نقول لأنفسنا ان الشريعة الاسلامية لا تجد أية خطيئة فى تلك الحمية الحسـية الضرورية لبقـاء شعوب الجنوب التى طالما طحنتها أوبئة الطاعون والحروب • ولو تصورنا الطهر والكرامة اللذين يسـودان العلاقة بين المسـلم وزوجاته فاننا نغير رأينا فى سراب الشـهوة هذا الذى خلقه كتابنا فى القرن الثامن عشر •

٤ - الأتميدان

كان اليوم التالى هو أول أيام عيد الأضحى • ودوت طلقات المدافع من جميع القلاع وجميع السفن لدى طلوع الشمس فطغت على صوت المؤذن الذى كان يحيى الله من أعالى آلاف المآذن • وقد أقيم الاحتفال بالعيد هذه المرة فى الأتميدان ، وهو ميدان اشتهر بذكرى أباطرة بيزنطه الذين خلفوا فيه بعض الآثار • ويزيد طول هذا الميدان عن عرضه وما زال يبدو فى صورته القديمه كساحة ركوب وما زالت ترى فيه المسلتان اللتان كانت تدور حولهما المركبات أيام نضال « الخضر » « والزرق » فى عهد البيزنطيين • وتقف أحسن المسلتين حالا ، والتى ما زالت أحجار الجرانيت الوردية فيها مغطاه بالنقوش الهيروغليفية التى لا تزال سهلة التمييز ، على قاعدة من المرمر الابيض تحيط بها النقوش البارزة التى تمثل الأباطرة الاغريق يحيط بهم رجال البلاط . وكذلك المعارك والاحتفالات الرسمية • انهما لا يتسمان بجمال شديد فى التنفيذ الا أن وجودهما يثبت أن الأتراك ليسوا أعداء للتماثيل المنحوتة كما نظن فى أوربا •

وفى وسط الميدان يوجد عمود غريب مكون من ثلاثة ثعابين متداخلة ، ويقال انه كان يستخدم فيما مضى كمقعد مثلث الأرجل تقال عليه النبوءات فى معبد دلفى •

ويحف مسجد السلطان أحمد بأحد جوانب هذا الميدان • وهناك كان سمو السلطان عبد المجيد يأتى لاقامة صلاة العيد الكبرى •

وفى اليوم التالى ، الذى كان أول أيام العيد ازدحم مثلث استانبول الهائل بما ينيف عن المليون من سكان استانبول واسكودا وبيرا ، ذلك

اسلك الذى ينتهى باخر طرف للسراى • ونظرا لقرب محل اقامتى استطعت التواجد فى طريق مرور الموكب الذى كان متجها الى الاتميدان واستمر الاستعراض الذى يجوب الشوارع المحيطة بأيا صوفيا ساعة على الاقل • الا أن ملابس الجنود لم تكن تحوى أية طرافة بالنسبة للافرنجى ، ففيما عدا الطربوش الأحمر الذى يستخدم كغطاء رأس لهم جميعا فان الوحدات المختلفة كانت ترتدى تقريبا الزى الأوربى • أما اللواءات فكانوا يرتدون ملابس تشبه التى ترتدى فى بلادنا وقد طرزت بسعف مذهب على جميع الخياطات • كانوا جميعا يرتدون الردنجوت الأزرق ولم نر واحدا منهم يرتدى زيا عاديا •

واختلط الأوربيون المقيمون فى بيرا بأعدادهم الكبيرة بالجماهير وذلك لأن جميع الأديان تشارك فى أيام العيد فى فرحة المسلمين • انه على الأقل عيد مدنى بالنسبة لمن لا تربطهم المشاعر القلبية باحتفالات الاسلام • وكانت موسيقى السلطان بقيادة شقيق الموسيقى دونيزتى تعزف « مارشات » عسكرية غاية فى الجمال ، لا سيما أن جميع الآلات كانت تعزف معا فى وقت واحد على الطريقة الشرقية • وكان أطرف ما فى الموكب استعراض الحرس الخصوصى للسلطان الذين كانوا يغطون رءوسهم بخوذات مغطاة بزينات ضخمة تعلوها زينة عالية من الريش الأزرق ويخيل للرائى أنه بصدد غابة تسير كما حدث فى خاتمة مسرحية « ماكبث » •

وبعد ذلك ظهر السلطان وكان يرتدى ملابس غاية فى البساطة ولا يحمل من زينة الا باقة براقة على قلنسوته • ومع ذلك فقد كان جواده مغطى بالوشى المذهب والماس لدرجة بهرت جميع الأنظار • وكذلك كان السياس يقودون عددا كبيرا من الجياد المطهمة بالرشم المتألقة بالأحجار الكريمة ويسيرون فى ركاب السلطان • وكان الوزراء والقضاة وكبار العلماء وجمهور غفير من الموظفين يتبعون بطبيعة الحال رئيس الدولة ثم تاتى قوات عسكرية أخرى فتختتم المسيرة •

ولما وصل هذا الموكب بأسره الى ميدان الأتميدان ذاب فى الأفنية الفسيحة وفى حدائق المسجد • وترجل السلطان من فوق صهوة جواده فاستقبله الائمة والعلماء الذين كانوا فى انتظاره فى المدخل وعلى درجات السلم • وكان ثمة عدد كبير من العربات مصطفة فى الميدان وتجمعت كريمات سيدات القسطنطينية فى هذا المكان لرؤية الاحتفال من وراء

القضبان المذهبة للعربات • وحصلت علياهن مكانة على امتياز شـــغل المقاصير المرتفعة للمسجد •

ولم أتمكن من رؤية ما يدور فى الداخل الا أنى سمعت أن الاحتفال الرئيسى يتركز فى ذبح شاة كأضحية • وقد حدث ذلك فى جميع بيوت المسلمين فى هذا الصباح •

وكان الميدان غاصا بالألعاب والملاهى والباعة من جميع الأنواع • وبعد الأضحية اندفع الجميع نحو المأكولات والمرطبات • وكانت الفطائر والكريمة المحلاة بالسكر والمقليات والكباب ، وهو الصحن المفضل لدى الشعب ويتكون من قطع من لحم الضأن المشـــوى تؤكل بالبقدونس مع شرائح مقطعة من الخبز الخالى من الخميرة ، كانت توزع على الجميع على نفقة الشخصيات الهامة • وفوق ذلك فقد كان فى استطاعة كل فرد أن يتقدم الى أى بيت ويشـــاركه فى الطعام الذى كان دائما معدا • كان الفقراء والأغنياء وجميع المسلمين الذين لهم بيوت خاصة يكرمون وفادة من يأتون اليهم قدر طاقتهم دون الالتفات الى حالتهم أو الى دينهم • تلك عادة كانت قائمة لدى اليهود وفى أعياد القرابين •

أما اليوم الثانى والثالث من أيام العيد فليسا الا استمرارا للأعياد العامة التى تقام فى اليوم الأول •

واذا كنت لم أحاول تصوير القسطنطينية فما ذلك الا لان تصورها ومساجدها وحماماتها وشواطئها قد وصفت مرات عديدة • لقد أردت فقط اعطاء فكرة عن النزهة عبر شوارعها وميادينها فى وقت الاعياد الرئيسية• ان تلك المدينة ما زالت كما كانت فى الماضى هى الخـــاتم الغريب الرائع الذى يصل أوربا بآسيا •

واذا كان مظهرها الخارجى هو أجمل منظر فى العالم ، فمن الممكن توجيه النقد ، كمـــا فعـــل كثير من الرحالة ، الى الفقر السائد فى بعض الاحياء وقذارة أحياء أخرى كثيرة • ان القسطنطينية تبدو كما لو كانت زينة مسرحية ينبغى النظر اليها من القاعة دون زيارة الكواليس • وكان ثمة انجليز متصنعون يكتفون بالدوران حول الطرف المدبب للسراى وارتياد القرن الذهبى والبسفور فى سفينة تجارية ثم يقولون لانفسهم :

ـ لقد رأيت كل ما تحلو رؤيته • هنا تكمن المبالغة • ان ما ينبغى الاسف عليه هو أن استانبول وقد فقدت جزئيا طابعها القديم لم تبلغ بعد

من ناحية التنظيم والرعاية الصحية درجة تمكن من مقارنتها بالعواصم الاوربية • ومما لا شك فيه أنه من العسير جدا شق شوارع منتظمة فوق جبال استانبول وفوق رءوس بيرا واسكودار العالية • الا أن الامر ممكن لو اتبع نظام أفضل في البناء والرصف • ومع ذلك فان المنازل المطلية والقباب القصديرية والمآذن الباسقة تعتبر من الناحية الشعرية موضع اعجاب • ولكن هذه المساكن الخشبية العشرين ألفا التى كثيرا ما تزورها الحرائق وهذه المقابر التى يسمع فيها فوق أشجار السرو هديل الحمائم ولكن كثيرا ما تأتى بنات آوى لاخراج الموتى من أجداثهم حين تصبح الارض رخوة بعد العواصف العاتية ، كل ذلك يعتبر الوجه الآخر من الميدالية البيزنطية التى قد يحلو للمرء جلاؤها بعد الوصف العلمى الانيق الذى قدمته الليدى مونتاج(١)

وعلى كل حال فليس ثمة من يقدر على تصوير الجهود التى يبذلها الاتراك ليجعلوا عاصمتهم فى مستوى التقدم الاوربى وكل طريقة من طرق الفن أو التحسين المادى هم على علم بها • ولكن مما يؤسف له هو روح الروتين وهو من خصائص بعض الطبقات ويؤيده احترام العادات القديمة • ان الاتراك من هذه الناحية شديدو التمسك بالشكليات مثلهم مثل الانجليز •

ولما كنت قد اكتفيت بشهور ليالى رمضان الثلاثين فى استانبول فقد انتهزت فرصة بلوغ هلال شعبان لاخلاء المسكن الذى استأجرته فى ييلدز خان • وأراد أحد الايرانيين الذى اتخذنى صديقا والذى كان يدعونى دائما ميرزا (أى المثقف) أن يقدم لى هدية وقت رحيلى • فهبط بى الى قبو ملىء بالاحجار الكريمة على حد قوله • وظننت أنه كنز أبى القاسم • الا أن القبو لم يكن يحوى الا حجارة عادية •

وقال لى : تعال فستجد هنا اليواقيت الجمرية والبنفسجية والحمراء والفيروز ، وهنا كذلك الاحجار عديدة الالوان • اختر أية واحدة من هذه الاحجار ففى استطاعتى اهداؤك اياها •

---

(١) ليدى مونتاج (١٦٨٩ — ١٧٦٢) نشرت سنة ١٧٦٣ فى صورة خطابات وصفا لأسفارها فى أوربا (خطابات خلال أسفارها فى أوربا وأسيا وافريقيا) وقد انتشرت ترجمة هذه الخطابات على نطاق واسع عن طريق الترجمة فى فرنسا .

وبدا لى هذا الرجل مخبولا • وبمحض الصدفة اخترت الحجارة عديدة الألوان • وهنا أمسك فأسا وشق بها حجرا أبيض كبيرا جدا ، وما لبث بريق الأحجار متعددة الألوان الحبيسة فى هذا الحجر الجيرى أن بهرنى • وقال لى وهو يهدينى جزءا من الحجر : « خذ »

وحين وصلت الى مالطة أردت تثمين بعض الأحجار متعددة الألوان المحفوظة فى الكتلة الجيرية فتبين أن أغلبها ، أكثرها بريقا وأكبرها حجما فى الظاهر ، كانت قابلة للتفتت • وأمكن مع ذلك نحت خمسة أو ستة تركت لى ذكرى طيبة عن أصدقاء ييلدزخان •

مالطة :

وأخيرا خلصت من أيام الحجر الصحى العشرة التى ينبغى قضاؤها فى مالطة قبل بلوغ المناطق البحرية الباسمة فى ايطاليا وفرنسا • ان قضاء مدة طويلة فى الطوابق السفلى المتربة لاحدى القلاع يعد تعذيبا مريرا بعد الأيام الجميلة التى قضيناها وسط آفاق الشرق الرائعة • وكان ذاك هو الحجر الصحى الثالث ، الا أن الحجر الصحى فى بيروت وأزمير قضيته تحت ظلال الأشجار الكبيرة على شاطىء البحر المتخبط فى الصخور التى تحدها من بعيد الملامح الزرقاء للشواطىء والجزر • أما هنا فلم يكن لنا من أفق سوى حوض أحد الموانى الداخلية والصخور المدرجة لمدينة لافاليت حيث يتنزه بعض الجنود الاسكتلنديين عارى الساقين • يا للانطباعة الحزينة ! انى أعود الى بلد البرد والعواصف ولم يعد الشرق بالنسبة لى الا حلما من أحلام الصباح التى تتلوها مباشرة المضايقات اليومية •

ماذا أقول لك بعد ذلك ياصديقى ؟ وأية فائدة تجدها فى تلك الرسائل المتخبطة المسهبة المختلطة بمقتطفات من مذكرات الرحلة وبالقصص والأساطير التى التقطها حيثما اتفق ؟ ان هذه الفوضى نفسها هى ضمان اخلاصى • وما كتبته رأيته رأى العين وشعرت به • فهل أخطأت فى رواية آلاف الأحداث الدقيقة التى يزدريها الناس عادة فى الأسفار الوصفية أو العلمية بمثل هذه الطريقة الساذجة ؟

هل ينبغى لى أن أدافع عن نفسى أمامك لاعجابى المتتالى بالاديان المختلفة فى البلاد التى عبرتها ؟ نعم لقد شعرت أنى وثنى فى اليونان ومسلم فى مصر ووسط الدروز اعتقدت ان الاله الواحد هو كل الكائنات وأصبحت درعا تقيا فوق بحار الكواكب — الآلهة فى بلاد الكلدانيين •

أما في القسطنطينية فقد أدركت عظمة التسامح العالمي الذى يمارسه الأتراك فى الوقت الحاضر ٠

ويقص هؤلاء فى هذا الصدد قصة من أطرف ما أعرف :

« أراد أربعة من رفاق الطريق أحدهما تركى والثانى عربى والثالث فارسى والرابع يونانى أن يتناولوا الطعام سويا ٠ فاشتركوا فى عشر بارات ٠ ولكن كان المهم هو معرفة ماذا يشترون ٠ وقال التركى : «أوزوم» ٠ وقال العربى «عنب» ٠ وقال الفارسى « انكور » وقال اليونانى «ستافيليون» ٠ وأراد كل منهم تغليب ما يرغبه على ما يفضله الآخرون وكاد هذا يوصلهم الى التضارب بالأيدى ٠ وحضر هذا المشهد درويش يعرف اللغات الأربع فاستدعى أحد باعة العنب واكتشف الجميع أن هذا هو ما طلبوه جميعا ٠

لقد تأثرت كثيرا فى القسطنطينية لرؤية الدراويش يحضرون القداس فى الكنيسة ٠ كان كلام الله يبدو لهم طيبا فى جميع اللغات ٠ وفوق ذلك فلم يكرهوا أحدا على الدوران مثلهم على نغمات الناى كلعبة الكرات مما يعتبرونه هم أسمى الطرق لتكريم السماء ٠

• الملحق الأول

أخلاق المصريين الحديثة

١ - الحاله الإجتماعية للنساء

ظل الناس لمدة طويلة يعتقدون أن الاسلام يضع المرأة فى مكانة أقل بكثير من مكانة الرجل ويجعل منها على حد القول جارية تزوجهـا • وتلك فكرة لا تلبث أن تنهار أمام الدراسة الدقيقة للأخلاق فى الشرق • وكان الأحرى أن يقـال ان محمدا قد جعل المرأة تتبوأ مكانة أعلى بكثير مما كانت عليه من قبله •

ولقد كان موسى يرى أن المرأة التى تلد بنتا وتجلب الى العالم فرصة أخرى للخطيئة تظل غير طاهرة لفترة أطول من تلك التى تضع طفلا ذكرا• وكان الثلمود يستبعد النساء من الطقوس الدينية ويحرم عليهن دخول المعبد • أما محمد فقـد أعلن على العكس من ذلك ان المرأة فخر للرجل وأباح لها دخول المساجد وضرب لها من الأمثلة التى تحتذيها أسيا امرأة فرعون ومريم أم المسيح وابنته فاطمة • ولنتخل كذلك عن الفكرة الأوربية التى تمثل المسلمين كما لو كانوا لا يعتقدون أن للمرأة روحا • وثمة رأى آخر أكثر انتشارا يرى أن الترك يحلمون بجنة مليئة بالحور اللائى يتميزن بالشـباب الدائم والنضرة المتجـددة ، وهـذا خطأ • فالحور لن يكن الا زوجاتهن وقد عاد اليهن الشباب وتغيرت ملامحهن • فلقد دعا محمد الله أن يفتح جنات عدن للمؤمنين الصـادقين ولآلهم وزوجاتهم وأولادهم ممن اتبعوا طريق الخير وصاح قائلا : ادخلوا الجنة أنتم ورفيقاتكم واقنعوا أنفسكم ! (١)

---

(١) تلك ترجمة ماجاء فى الاصل وليست آية قرآنية ولا حديثا شريفا •
المترجم

وبعد هذا الحديث وغيره يحق لنا أن نتساءل من أين نبتت تلك الفكرة الخاطئة التى مازالت منتشرة بيننا • وربما لم نحتج للبحث عن سبب آخر غير ذلك الذى بينه أحد قدامى كتابنا الذى يقول : ان تلك الفكرة القديمة قد بنيت على دعابة وجهها محمد الى امرأة عجوز كانت تشكو اليه مصيرها فيما يختص بالجنة فقال لها أن لن تدخل الجنة عجوز • ولما لاحظ ما أصابها من جزع أضاف أن جميع النساء المسنات سوف يستعدن شبابهن قبل دخول الجنة •

ومع كل فاذا كان محمد يعطى الرجل السلطة على المرأة كما فعل القديس بطرس فقد بين أن له عليها هذا الحق لأنه ملزم باعالتها ودفع مهرها • أما الأوربى فعلى العكس من ذلك يستلزم أن تدفع له المرأة التى يتزوج بها مهرا •

أما الأرامل واللاتى يتمتعن بحريتهن لسبب أو لآخر فلهن مثل ما للرجل من حقوق • ولهن حق الملكية والبيع والارث • صحيح ان نصيب البنت فى الميراث لا يتعدى ثلث (١) نصيب الولد الا أن ثروة الأب قبل بعث محمد لم يكن يقتسمها الا القادرون من أولاده على حمل السلاح • ومبادىء الاسلام لا تعترض كثيرا على تقليد المرأة مقاليد الحكم حتى أن تاريخ العرب يضم عددا كبيرا من السلطانات ذوات النفوذ المطلق ، هذا بغض النظر عن السلطة الحقيقية التى كانت تمارسها السلطانات الأمهات والمخظيات من داخل القصور •

ان جميع الأوربيات اللاتى دخلن الحريم قد أجمعن على اطراء ماتتمتع به النساء المسلمات من سعادة • فقالت الليدى مونتاج « اننى على يقين من أن النساء وحدهن هن اللاتى يتمتعن بالحرية فى تركيا » • بل انها ترثى قليلا لحال الأزواج الذين يضطرون حينما يريدون أخفاء خيانة من خيانات النساء الى أن يتخذوا من أسباب الحيطة أكثر مما يتخذ الرجال عندنا • وربما لم تكن تلك النقطة الأخيرة صحيحة الا بالنسبة للأتراك الذين تزوجوا من نساء من الأسر الكبيرة • وتلاحظ لادى مورجان بحق أن تعدد الزوجات الذى لم يقره الا محمد أقل انتشارا فى الشرق مما هو عليه فى أوربا حيث يمارس تحت أسماء أخرى • ولذا فينبغى التخلى نهائيا عن فكرة الحريم كما صوره مونتسكيو صاحب « الخطابات

---

(٢) تلك ملاحظة غير صحيحة فالقاعدة المعروفة هى أن للذكر مثل حظ الانثيين .
المترجم

الفارسية » حيث تضطر النساء الى الاعجاب بأوزبيك زئر النساء الشرس لأنهن لم يرين أبدا رجلا من قبل ٠

ويقودنا هذا الى الحديث عن عقاب الزانيات من النساء ٠ وثمة اعتقاد عام بأن لكل زوج الحق في اصدار أحكام لصالحه والقذف بزوجته الى البحر في كيس من الجلد ومعها ثعبان وقطة ٠ واذا كان هذا العقاب الشديد قد حدث أحيانا فلم يأمر به الا بعض السلاطين والباشوات الذين كانوا من النفوذ بحيث يتحملون مسئوليته ٠ ولقد رأينا مثل هذه الصورة من الانتقام في العصور الوسطى المسيحية ٠

ولنعترف بأنه اذا قتل الرجل زوجته بعد ضبطها متلبسة فنادرا ما يعاقب الا اذا كانت من أسرة كبيرة ٠ الا أن الأمر مشابه لما يحدث لدينا حين يبرىء القضاة عادة القاتل في مثل هذه الظروف ٠ والا فينبغي احضار أربعة شهود يجازف كل منهم اذا وقع في الخطأ أو وجه اتهاما كاذبا بأن يتلقى ثمانين جلدة بالسوط ٠ أما المرأة وشريكها(١) في الجريمة فاذا اعترفا بها فيتلقى كل منهما مائة جلدة بالسوط بحضور عدد من المؤمنين ٠ ويجدر بالملاحظة أن العبيد المتزوجين لا يتلقون الا خمسين جلدة طبقا لفكرة المشرع الجميلة التي ترى أن العبيد ينبغي أن يطبق عليهم نصف العقوبة التي تطبق على الأحرار لأن العبودية لم تترك لهم الا نصف ما في الحياة من متاع ٠

كل ذلك قد ذكر في القرآن ٠ وصحيح أن القرآن يضم الكثير مما ورد في الانجيل مما يفسره ذو النفوذ ويعدلونه حسب رغبتهم ٠ ولم يصدر الانجيل حكما على العبودية ، ودون ما حاجة الى الحديث عن المستعمرات الأوربية فان للشعوب المسيحية في الشرق مثل ما للترك من عبيد ٠ ومع ذلك فان باى تونس قد ألغى الرق منذ قليل في ولاية دون أن يخرج على القانون الاسلامي ٠ ان الأمر اذن لا يعدو أن يكون مسألة وقت٠ ولكن ما من مسافر الا ودهش لرقة العبودية الشرقية ٠ ان العبد يكاد أن يكون ابنا بالتبني ويعتبر فردا من أفراد الأسرة ٠ وكثيرا ما يصبح وريثا لسيده الذي يعتقه في معظم الأحوال لدى وفاته بعد أن يضمن له وسائل العيش ٠ ويجب ألا يرى الناس في الرق في البلاد الاسلامية الا وسيلة للادماج والا مجتمعا يؤمن بقوته التي ينشرها على الشعوب الهمجية ٠

---

(١) الصحيح هو سبعون جلدة (المترجم)

ومن المستحيل تجاهل الطابع الاقطاعى والحربى للقرآن (١) • ان المؤمن الحق هو الرجل الطاهر القوى الذى يجب أن يسود بها لشجاعته وفضائله • ولما كان أكثر تحررا من نبلاء العصور الوسطى فهو يشرك كل من يعتنق ديانته فيما يتمتع به من امتيازات • وهو أكثر تسامحا من العبرى الذى تتحدث عنه التوراة والذى لم يكن يقبل تغيير الدين فحسب بل كان يبيد الشعوب المهزومة • أما المسلم فيترك لكل منها دينه وعاداته ولا يطلب منها الا الاعتراف بتفوقه السياسى •

ان تعدد الزوجات والرق ليسا بالنسبة له سوى وسائل لتجنب شرور أكبر ، فى حين أن البغاء ، وهو صورة أخرى من صور العبودية ، ينخر كالجذام عظام المجتمع الأوربى باهداره للكرامة البشرية ، وبطرده لمخلوقات تعسة غالبا ما تكون ضحايا جشع الآباء أو البؤس من صـدر الدين الرحب كما يقضى بذلك الترتيب الطبقى الذى جرى عليه العرف • أتريد أن تسأل ، فيما عدا ذلك ، عن الوضع الذى يمنحه مجتمعنا للقطاء الذين يشكلون عشر السكان ؟ ان القانون المدنى يعاقبهم عن أخطاء آبائهم بطردهم من الأسرة ومن الميراث • أما أبناء المسلم جميعا فهم على العكس من ذلك يولدون شرعيين ويقسم الميراث بينهم بالعدل •

أما عن النقاب الذى تحتفظ به النساء فنعلم أنه بقايا عادة عتيقة كانت تتبعها فى الشرق المسيحيات واليهوديات والدرزيات(٢) من النساء ، وهى ليست اضطرارية الا فى المدن الكبرى ، ولا تخضع لها قط نسـاء الريف والقبائل • ولذا فان القصائد الشعرية التى تتغنى بحب قيس وليلى وخسرو وشيرين وجميل وشمبا (٣) وغيرهم لا تحـوى أى ذكر للنقاب ولا لتحجب نساء العرب • ان قصص الحب الوفى هذه تشبه فى معظم تفاصيل الحياة ذلك التحليل العاطفى الجميل الذى دقت له جميع القلوب الشابة ابتداء من دافيس خلوا الى بول وفرجينى •

ونختتم هذا كله بان الاسلام لا يستبعد أى شعور من المشاعر النبيلة التى تنسب عادة للمجتمع المسيحى • والخلاف بين المجتمعين قائم حتى

---

(١) ليس للقرآن أى طابع اقطاعى ولا حربى وهذا قول يصدر من المؤلف نتيجة لعدم فهمه للقرآن نصا وروحا . (المترجم)

(٢) يجعل الكاتب الدروز غير مسلمين . والواقع انهم فرقة اسلامية تفرعت عن المذهب الفاطمى الذى عرفته القاهرة ومصر أيام الفاطميين . (المترجم)

(٣) لعله يقصد جميل وبثينة . (المترجم)

الآن فى نص الأفكار أكثر مما هو قائم فى روحها • ولا يشكل المسلمون فى الحقيقة الا ما يشبه فرقة مسيحية (١) • وليست قضايا الالحاد البروتستانتية الكثيرة بأقل بعدا عن تعاليم الانجيل • والدليل على صحة ذلك أن شيئا لا يضطر المسيحية التى تتزوج من تركى الى تغيير دينها • ولا ينهى القرآن المؤمنين الا عن الزواج بالمشركات ويبيح للانسان أن يبنى حياته تحت أى دين قائم على التوحيد •

---

(١) قصة يونانية كتبها لونجس الذى يقال انه ولد فى جزيرة ليسبوس حوالى القرنين الاول والثانى الميلادى . ترجم هذه القصة المفقود له الاستاذ الدكتور محمد صقر خفاجه عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة ضمن مطبوعات قسم الترجمة والالف كتاب عام ١٩٥٩ • (المترجم)

(٢) يريد الكاتب أن يقول أن المسلمين كالمسيحيين أهل كتاب .. (المترجم)

٣ - الحياة العائلية فى القاهرة

ان الرجل الذى يبلغ سن الزواج ولا يتزوج لا ينظر له الناس فى مصر باحترام • واذا لم يستطع أن يبدى الأسباب المقبولة التى تضطره الى البقاء أعزب فان سمعته تتحمل نتيجة ذلك • ولذا فاننا نشاهد الكثير من الزيجات فى هذا البلد •

وفى اليوم التالى للزواج تحتل المرأة الحريم وهو جزء من البيت منفصل عنه بقية الأجزاء • وترقص الفتيات والصبية أمام بيت الزوجية أو فى أحد أفنيته الداخلية • وفى هذا اليوم ، اذا كان العريس شابا يحضر اليه صديقه الذى صحبه حتى باب الحريم برفقة غيره من الأصدقاء ويصحبون العريس الى الريف طيلة النهار • ويطلقون على هذا التقليد اسم « الهروبة » • وفى بعض الأحيان يدبر العريس نفسه هذا الاحتفال ويدفع جزءا من نفقاته اذا تعدت المبلغ « النقوط » الذى تكفل به أصدقاؤه • وكثيرا ما يستأجرون بعض الموسيقيين والراقصات لبعث البهجة فى الحفل • واذا كان العريس من طبقة أقل فانه يعاد الى بيته فى موكب يتقدمه ثلاثة أو أربعة من الموسيقيين الذين يعزفون على المزمار ويقرعون الطبول • ويحمل الأصدقاء ومن يرافقون العريس باقات الزهور• واذا لم يعودوا الا بعد غروب الشمس يرافقهم رجال يحملون المشاعل ، وهى نوع من الحوامل مزودة بوعاء اسطوانى من الحديد يضعون فيه قطع خشب مشتعلة • وتتحمل هذه الحوامل أحيانا ثلاث أو أربع أو خمس شعلات من هذا القبيل تنشر نورها الساطع فى طريق الموكب • وثمة أشخاص آخرون يحملون المصابيح بينما يحمل أصدقاء العريس الشموع المشتعلة والباقات • واذا كان العريس على شىء من اليسار فانه

يتخذ العـدة لتعيش أمه معه ومع زوجته حتى تسهر على شرفه وشرف زوجتـه • ولهـذا فقد سميت أم الزوج حسب مايقولون حماة ومعناها الحامية أو الحارسة •

وأحيانا يترك الزوج زوجته لدى أمها ويدفع تكاليف اعالة الاثنتين• وربما كان ثمة اعتقاد بأن هذه الطريقة تجعل أم الزوجة تسهر على سلوك ابنتها تدفعها الى ذلك على الأقل مصلحتها المادية من أجل الاحتفاظ بالنفقة التى يدفعها لها الزوج ولتحول دون حصوله على حجة للطلاق • ولكن غالبا ما يصاب هذا الأمل بالخيبة •

وعادة يخشى الرجل الحـذر حين يتزوج من كثرة التقـاء زوجتـه بحماته • وهـو يسعى الى انتزاع كل فرصة منها لرؤية ابنتهـا • وقد تغلغلت هذه الفكرة فى النفوس لدرجة أن الرجال يرون من الأسـلم الزواج بامرأة لا أم ولا قريبة قريبة بها • بل وهم ينهون نساءهم عن استقبال أية صديقة من جنسها مالم تكن من قريبات زوجها • ومع ذلك فان هذه القيود لا تراعى بصفة عامة •

وكما ذكرنا فيما سبق فان النساء يقمن فى الحريم ، وهو جـزء منفصل فى مساكن المصريين • الا أن من يحملن لقب زوجات لا يعتبرن سجينات ويتمتعن عادة بحرية الخروج والقيـام بالزيارات ويستطعن استقبـال صـديقاتهن فى أى وقت يحلو لهن • والجاريات هن اللاتى لا يتمتعن بهذه الحرية بسبب حالة الرق التى تجعلهن خاضعات للزوجات والسـادة •

ومن أهم ما يراعيه السيد وهو يعد الأجنحة المنفصلة لاقامة زوجاته ايجـاد الوسـيلة للحيلولة بينهن وبين أن تقع عليهن عيون الخدم من الذكور وغيرهم من الرجال حينما لا يكن متدثرات بخمرهن التى تنص عليها قواعد الدين • ويذكر القرآن فى هذا الصدد الآتى من القـول مما يبين ضرورة أن تحجب كل امرأة مسلمة زوجة لرجل من أصل عربى عن الرجال كل ما قد يفتنهم كما يجب أن تحجب عنهم كل ما ترتدى من زينة :

« وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى اخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت ايمانهن

أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » (١) ٠

ويشير الجزء الأخير من الآية الى العادة التى اعتادتها نســاء العرب فى زمن النبى بأن يضربن ما يحملن من حلى فى أرجلهن فوق الكعب بعضها ببعض وقد احتفظت كثير من نساء مصر بهذا النوع من الحلى ٠

ولكى نفسر تلك الآية القرآنية التى ذكرناها فيما سبق والتى لو لم نفسرها فربما أعطتنا فكرة خاطئة عن العادات الحديثة حــول السماح لبعض الأشخاص بدخول الحريم أو منعهم منه فمن الضرورى جدا أن ننقل هنا بعض الملاحظات الهامة لبعض مشاهير المعلقين ٠

وأولى هذه الملاحظات يتعلق بالتعبير الآتى :

« أو نسائهن » (٢) وهذا يعنى أن هؤلاء النساء يجب أن يكن على دين محمــد ذلك أن الدين يعتبر أن سفور المرأة المؤمنة الحقــة أمام من يسميها بالمشركة أمر غير مشروع أو على الأقل غير ملائم ذلك لأن بعض العلماء يرون أن هذه الأخيرة لن تتورع عن وصفها (٣) للرجال ٠

ويرى آخرون أن النساء الأجنبيات يجب أن يبعدن عادة عن الحريم الا أن أئمة الدين لم يتفقوا على رأى حول هذه النقطة ٠ وفى مصر ، وربما كذلك فى جميع البلاد التى تدين بالاسلام ، لم يعد أحد ليجد غضاضة فى دخول النساء الى الحريم سواء أكن من الأحرار أو الجوارى من المسيحيات أو اليهود أو المسلمات أو المشركات ٠ أما فيما يختص بنصف الآية الثانى الذى يتحدث عن الجوارى فيقول القرآن :

ان العبيد من الجنسين مستثنون ويظن أن الخدم ممن ليسوا من العبيد يشملهم هــذا الاستثناء وكذلك من ينتمون الى بلاد أجنبية(٤) ٠ وتأييدا لهــذا الرأى يذكر أن محمدا (صلعم) قد أهدى ابنتــه فاطمة

---

(١) الآية ٣٠ من سورة النور ٠

(٢) فهم خاطىء لكلمة نسائهن في الآية المذكورة ٠ (المترجم)

(٣) أى المرأة المسلمة (المترجم)

(٤) يقصد « أو نسائهن أما ما ملكت ايمانهن أو التابعين غير أولى الاربة ٠٠ » (المترجم)

عبدا . فلما رأته يدخل ولم تكن تضع على رأسها سوى غطاء ضئيل كان عليها أن تختار بين ترك رأسها عاريا أو أن تكشف عن الجزء الأسفل من جسمها . فالتفتت الى أبيها الذى شاهد حيرتها وقال لها أن ليس عليها أى حرج ما دامت لم تكشف غطاءها الا فى حضرة أبيها وأحد العبيد . وربما كانت تلك العادة متبعة لدى الأعراب فى الصحراء . الا أنه فى مصر لايرى أبدا عبد بالغ يدخل الى حريم رجل ذى مكانة سواء أكان من هذا البيت أو لم يكن . وقد لا يحصل على هذا الامتياز الا العبد الذكر الذى تمتلكه امرأة لأنه مادام عبدا لايحق له أن يكون زوجا لها .

وندهش اذ لانجد فى الآية القرآنية التى ذكرناها أى ذكر للأعمام والأخوال كأصحاب حق فى رؤية بنات اخوتهم بلا حجاب . حتى لايصفوا لأبنائهم بنات عمومتهم وصفا شديد الاغراء . ويرى المصريون أن ليس من اللائق فى شىء وصف ملامح المرأة . وليس من الأدب فى شىء أن يقال ان لها عينين جميلتين وأنفا اغريقيا وفما صغيرا الخ ... مع توجيه القول الشخصى من الجنس الآخر يحرم عليه القانون رؤيتها . ولكن من المستطاع وصفها باستخدام الفاظ عامة فيقال انها لطيفة وأن الكحل والحناء يزيدانها حسنا (١) .

وعلى العموم لا يستطيع الرجل أن يرى دون حجاب الا زوجاته وجواريه أو النساء اللاتى يحرم عليه الزواج منهن بسبب درجة قرابة الدم بينه وبينهن أو لأنهن أرضعنه أو أرضعن ابناءه أو لقرابتهن الشديدة بمرضعته . ان الحجاب ينتمى الى العصور السحيقة .

ويعتقد فى مصر أن حجب المرأة للجزء العلوى من جسمها ، وحتى الجزء الخلفى من رأسها ، أهم من اخفاء وجهها الا أن ماهو أهم من ذلك هو أن تحجب وجهها قبل أى جزء آخر من جسمها . فمثلا تستطيع المرأة التى لا يمكن اقناعها بخلع نقابها فى حضرة الرجل أن تكشف عن صدرها أو ساقها كلها دون أدنى حرج . وتظهر أكثر معظم نساء الشعب فى الأماكن العامة بلا نقاب ولكن يقال ان الضرورة هى التى تضطرهن الى ذلك لأنهن لا يمكنهن القدرة على شراء البراقع .

وحينما تباغت امرأة وقور بلا خمار فانها سرعان ما تغطى نفسها بالطرحة وتصيح :

---

(١) فهم خاطىء لآداب الاسلام فى هذا الصدد .

(المترجم)

ـ يا دهوتي يا خرابي ! ومع ذلك فقد لاحظنا أن حب التأنق يدفعهن أحيانا الى الكشف عن وجوههن للرجال على أن يكون ذلك دائما كما لو كان من قبيل الصدفة • فمن أعلى شرفات منازلهن أو من خلال الحواجز يظهرن كما لو كن ينظرن الى ما يدور حولهن ومن محاولة للتدخل• ولكنهن كثيرا ، ما يكشفن عن وجوههن مع وجود النية المبيتة لديهن للكشف عن مفاتنهن •

والبيوت في القاهرة عادة صغيرة ولا يوجد في الدور الأرضي أية أجنحة لاقامة الرجال • وعلى ذلك فعليهم أن يصعدوا الى الطابق الأول حيث توجد عادة أجنحة النساء • ولكن لكي يتجنبوا أي لقاء بالنساء ، مما يعتبرونه في مصر غير مستحب ويعتبرونه في فرنسا من الأمور المحببة ، فان من يصعد الدرج من الرجال لا ينى يصيح بصوت عال : دستور ! يا ست ! أو يرسل صيحات أخرى حتى تنسحب من قد تكون على السلم من النساء أو على الأقل تتحجب • وهذا مايقمن به بان يسدلن عليهن النقاب الذى يغطين به وجوههن بحيث لا يكاد لايبدو منهن سوى عين واحدة •

ويبالغ المسلمون في الاعتقاد وفي قدسية المرأة لدرجة أنه محظور على الرجال دخول قبور بعضهن • فهم مثلا لا يستطيعون دخول قبور زوجات النبي (صلعم) (١) أو غيرهن من نساء بيته التي توجد في مدافن المدينة المنورة • بينما يسمح للنساء بزيارة تلك القبور في حرية • ولا يحدث أبدا أن يجمع بين رجل وامرأة في قبر واحد الا اذا أقيم حائط فاصل بين الجسدين •

وليس جميع المسلمين في مثل هذا التزمت بالنسبة للنساء ذلك لأن المستر «لين» صاحب هذه التفصيلات الشيقة يقول ان أحد أصدقائه قد أراه أمه ، وهي في الخمسين من عمرها الا أنها لا تبدو الا في الأربعين لنضارتها وحيويتها • فيقول : « لقد أتت حتى باب الحريم ، وهو الحد الفاصل بالنسبة للزوار • وجلست لدى باب الغرفة دون أن تدخل • ثم تركت خمارها يسقط كما لو كان الأمر مصادفة وكشفت عن وجهها • وكانت عيناها مكتملتين ولم تحاول تغطية ماتتحلى به من ماس وزمرد

---

(١) هذه معلومات استقاها الكاتب من كتاب وليام لين وهي تحوى الكثير من الاخطاء فليس لنساء النبي قبور تزار بالمدينة أو بغيرها ولايسمح للنساء في الوقت الحاضر بزيارة البقيع •

(المترجم)

وغيره من الحلى ، بل على العكس من ذلك كان يبدو أنها تريد اظهاره • ومع ذلك فلم يسمح لى هذا المسلم أبدا برؤية زوجته رغم أنه قد أباح لى التحدث اليها فى حضرته فى زاوية أحد الجدران بالقرب من الشرفة التى لم أكن أستطيع رؤيتها منها » •

ومهما يكن من أمر فان النساء أقل تزمتا فى مصر منهن فى أى جزء آخر من الامبراطورية العثمانية • وليس من الامور النادرة أن ترى النساء يمزحن فى الأماكن العامة مع الرجال • وقد يغلب علينا الظن بعد هذا بأن نساء الطبقات المتوسطة والطبقات الأعلى غالبا ما يشعرن بالتعاسة ويكرهن الانزواء الذى يفرض عليهن • ولكن الأمر على عكس ذلك تماما فان المصرية المتعلقة بزوجها تشعر بالاهانة اذا تمتعت بحرية زائدة • وهى تظن أن زوجها اذا كان لا يراقبها بشدة كما ينبغى أن يفعل طبقا للعرف فانه لا يحبها كما تحبه • وكثيرا ما تحسد النساء اللائى يحيطهن أزواجهن بحراسة شديدة •

ورغم أن القانون يبيح للمصريين الزواج بأربع وبمعاشرة من يشاءون من الجوارى المحظيات فنرى عادة أنهم يكتفون بزوجة واحدة أو جارية محظية واحدة • الا أن الرجل يستطيع مع اكتفائه دائما بزوجة واحدة أن يغيرها كلما دفعته نزوته الى ذلك • ومن النادر أن تجد فى القاهرة أناسا لم يطلقوا زوجاتهم مرة على الأقل اذا كانوا قد تزوجوا منذ وقت طويل • ويستطيع الزوج حينما يطيب له ذلك أن يقول لزوجته « أنت طالق» سواء أكانت هذه الرغبة من قبله تتسم بالحكمة أو لم تكن • وبعد النطق بهذا الحكم يجب أن تغادر الزوجة بيت الزوجية وتبحث عن مكان تأوى اليه سواء لدى أصدقائها أو أقاربها • ويعتبر حق الرجال فى النطق بالطلاق التعسفى مصدر القلق الأكبر بالنسبة للنساء • وهذا القلق يفوق جميع الآلام الأخرى حينما يكون من نتائجه الهجر والبؤس • وثمة طائفة أخرى من النساء ، وهى انتى ترى على العكس من ذلك فى الطلاق وسيلة لتحسين مصيرهن ، فيعتقدن عكس ذلك تماما وينشدن الطلاق كأعز أمانيهن •

ويستطيع الرجل أن يطلق الزوجة نفسها مرتين ثم يسترجعها بعد ذلك دون أية اجراءات • الا أنه لا يستطيع فى المرة الثالثة استرجاعها بصفة قانونية الا اذا كانت فى فترة الطلاق قد عقدت زواجا آخر وتم طلاقها منه •

ويقول المستر لين : **أستطيع** أن أذكر تأييدا لما قصصته حالة شهدها أحد أصدقائى ٠ فقد كان فى أحد المقاهى مع رجلين آخرين ٠ وكان يبدو على أحدهما أنه ثائر على زوجته التى اختلف معها فى أمر من أمور البيت ٠ وبعد أن عرض متاعبه أرسل الزوج الثائر فى طلب زوجته ٠ وما أن حضرت حتى قال لها :

ـ أنت طالق ثلاثا ! ثم قال موجها كلامه للرجلين الحاضرين : وأنتما يا أخوى شاهدان ٠ ومع ذلك فما لبث أن لام نفسه على هذا العنف وأراد استرجاع زوجه الا أن هذه رفضت ولجأت الى شرع الله ٠ وعرض الأمر على القاضى وكانت الزوجة هى الشاكية والزوج هو المدعى عليه ٠ وأعلنت أن زوجها قد نطق ضدها بيمين الطلاق ثلاثا وهو الآن يريد استرجاعها ومعاشرتها كزوجة مخالفا بذلك القانون ومقترفا نتيجة لذلك للاثم ٠ وأنكر المدعى عليه أنه نطق بالألفاظ الشرعية التى توقع الطلاق ٠ وقال القاضى للشاكية :

ـ هل لديك شهود ؟ فأجابت : نعم هاهم شاهدان ٠

وكان هذان الشاهدان هما الرجلان اللذان كانا فى المقهى لدى النطق بالعبارة التى توقع الطلاق ٠ ودعيا للادلاء بشهادتهما فأعلنا أن هذا الرجل قد نطق حقا يمين الطلاق ثلاثا ضد هذه المرأة وأنهما كانا حاضرين ذلك٠ وحينئذ أعلن الزوج من ناحيته أنه حقا قد نطق بيمين الطلاق ولكن ضد زوجة أخرى من زوجاته ٠ وأكدت الشاكية أن ذلك مستحيل مادام المدعى عليه ليس له زوجة أخرى فرد القاضى على ذلك بأنه ليس فى استطاعتها معرفة ذلك ٠ وحينئذ التفت الى الشاهدين وسألهما عن اسم المرأة التى طلقت فى حضورهما فأعلنا انهما يجهلانه ٠ وحين سألهما عن شخصية المرأة قال الشاهدان انهما لا يستطيعان التأكد منها ما داما لم يرياها الا محجبة ٠ وازاء الغموض الذى بدا محيطا بالقضية رأى القاضى أنه من الحق رفض شكوى المرأة وأمرها بالعودة الى بيت الزوجية ٠ وقد كان فى استطاعتها طلب استدعاء المرأة التى نطق الرجل بيمين الطلاق ضدها الا أن ذلك ما كان ليفيدها كثيرا اذ أنه كان باستطاعته الحصول على امرأة للقيام بهذا الدور بسهولة وما دام استخراج وثيقة الزواج ليس ضروريا

فى مصر حيث تتم معظم الزيجات دون عقد مكتوب بل وكثيرا ما تعقد دون شهود(١) ٠

وكثيرا ما يحدث للرجل الذى نطق ضد زوجته يمين الطلاق الثالث ويريد استرجاعها بموافقتها ألا يحترم النص الذى يحرم عليه استعادتها اذا لم تكن قد تزوجت أثناء ذلك لا سيما اذا كان الطلاق قد تم دون شهود٠

ويجد الرجال الذين يحرصون فى تقوى على مراعاة تعاليم الشرع الوسيلة لاتباعها باللجوء الى شخص يتزوج بالمرأة المطلقة ويتعهد بتطليقها فى اليوم التالى للزواج واعادتها الى زوجها السابق الذى تصبح زوجة له من جديد بموجب عقد ثان ، رغم أن هذه الطريقة فى التصرف تخالف الشرع مخالفة تامة ٠ وفى هذه الحالات تستطيع المرأة اذا كانت رشيدة أن ترفض ابداء موافقتها ٠ أما اذا كانت قاصرا فان زوجها أو الوصى عليها يستطيع تزويجها بمن يشاء ٠

وحين يرغب شخص ما لدى استرجاع زوجته المطلقة أن يتبع العرف الذى يقضى بزواجها بمحلل قبل أن يتمكن من استرجاعها فانه يزوجها عادة بشخص فقير قبيح الشكل وأحيانا بأعمى ٠ ويسمى هذا الشخص بالمستحل ٠

ونستطيع فى يسر أن نتبين أن السهولة التى يتم بها الطلاق لها تأثير رذيل على معنوية الجنسين ٠ ونجد الكثيرين فى مصر قد تزوجوا من عشرين أو ثلاثين امرأة فى مدة عشر سنوات ٠ وليس من النادر أن ترى نساء ما زلن فى ريعان الشباب كن زوجات شرعيات على التوالى لاثنى عشر رجلا ٠ وثمة رجال يتزوجون كل شهر بزوجة جديدة ٠ وقد يمارس هذا العمل بين أشخاص فقراء ٠ وفى امكانك أن تختار وأنت تمر فى شوارع القاهرة أرملة شابة جميلة أو زوجة مطلقة من الطبقة الاقل تقبل أن تتزوج ممن تصادف بل فى الطريق مقابل مهر يبلغ عشرة فرنكات وخمسين سنتيما تقريبا ٠ وحين يسرحها لا يكون مضطرا الى دفع الا ضعف هذا المبلغ من أجل نفقتها خلال فترة العدة التى يجب أن تتمها ٠ ومع ذلك فيجدر القول بأن مثل هذا التصرف يعتبر عادة مجافيا للاخلاق ، وقليل من الآباء من الطبقة الوسطى أو الطبقات العالية هم الذين يقبلون اعطاء بناتهم الى رجل عرف عنه أنه قد طلق عدة مرات ٠

---

(١) هذا تفصيل غير صحيح اذ أن وجود الشهود ركن لابد من توافره فى عقد الزواج ٠

وتعـدد الزوجات الذى يؤثر بدوره تأثيرا ضارا على معنوية الازواج والذى لا يقر الا لأنه يستخدم لتجنب الفساد أكثر مما يتسبب فيه يحدث بصورة أقل لدى الكبراء وفى الطبقة المتوسطة منه فى الطبقة السفلى رغم أنه ليس كثير الحدوث فى تلك الطبقة • وقد يحدث أحيانا أن يبيح أحد الفقراء لنفسه الزواج بامرأتين أو بنساء عديدات تستطيع كل واحدة منهن بما تقوم به من أعمال أن تعول نفسها • الا أن معظم الناس فى الطبقات المتوسطة والعليا يحجمون عن هذه الطريقة بسـببب النفقات والمضايقات المتنوعة التى تنتج عنه •

ويحدث حين يتزوج الرجل بامرأة عاقر ويحبها لدرجة لا تمكنه من تطليقها يحدث أن يرى نفسه مضـطرا للزواج من ثانية على أمل انجـاب الاطفال • ولهذا السبب نفسه يستطيع أن يتزوج ما طاب له حتى أربع• ولكن عدم الثبات هو العـــاطفة الرئيسية لدى الذين يستسلمون لتعدد الزوجات وللطلاق المتكرر • وقليل هم الذين يستخدمون هذا الحق ونكاد لا نصادف الا رجلا من كل عشرين يكتفى بزوجتين شرعيتين •

وحينما يرغب رجل سبق له الزواج فى الزواج مرة أخرى من سيدة أو فتاة فان والدها أو هى نفسها يرفضان الموافقة على هذا الرباط الا اذا طلق سلفا زوجته الاولى • ونرى من ذلك أن النساء عموما لا يؤيدن تعدد الزوجات • ويخصص الاغنياء ومحدودو الدخل بل وحتى من يمتون الى أقل الطبقات لكل واحدة من نسائهم بيتا خاصا • وتحصل الزوجة من الزوج على وصف تفصيلى للمسكن الذى خصص لها سواء أكان ذلك فى بيت منفصل أم فى جناح يحتوى على غرفة للنوم وغرفة جلوس ومطبخ وملحقاته ، أو تستطيع أن تستلزم ذلك منه • وهذا الجناح يجب أن يكون منفصلا أو مغلقا أو أن يكون من المستطاع فصله واغلاقه دون اتصال بأى جناح من أجنحة البيت الاخرى •

وتسمى الزوجة الثانية كمـــا قلنـــا بالضرة(١) (وتعنى هذه الكلمة الببغاء(٢) وربما كانت تستعمل استعمالا خاطئا) ويكثر الحـــديث عن المشاجرات التى يتسببن فيها وهو أمر ســـهل الفهم اذ أنه حين تتقاسم امرأتان اهتمام رجل واحد ورعايته فمن النادر أن يعيشا سويا فى وئام• وكذلك كثيرا ما ينشب الشجار بين الزوجات والمحظيات اللائى يعشن تحت

---

(١) الجزء الثامن ص

(٢) خلط الكاتب هنا بين ضرة ودرة •

ســـقف واحد • ويفرض الشرع على من يتزوجون من اثنتين أو أكثر أن يكونوا على عدالة مطلقة بالنسبة لهن • الا أن مراعاة هذا الفرض مراعاة دقيقة من الأمور النادرة •

واذا كانت الزوجة الاولى عقيما وأنجبت زوجة أخرى أو حتى جارية طفلا لرب الاسرة فكثيرا ما يحدث أن تصبح هى المفضلة لدى هذا الرجل فتحتقر الزوجة الاولى كما فعلت زوجة ابراهيم تجاه هاجر • وحينئذ كثيرا ما يحدث أن تفقد الزوجة الاولى مكانتها وامتيازاتها وتصبح الاخرى هى السيدة الأولى • وتكفل لها صفة التفضيل لدى السيد جميع مظاهر الاحترام الخارجية من قبل غريمتها أو غريماتها وجميع نساء الحريم ومن يأتين للزيارة ، تلك المظاهر التى كانت تتمتع بها من قبل تلك التى حلت محلها • ولكن ليس من النادر أن يفسد السم هذا التفضيل • فحين يفضل الرجل زوجته الثانية فكثيرا ما ينتج عن ذلك أن تعلن الاولى ناشزا سواء بواسطة زوجها أو بناء عن طلبها هى نفسها الى القضاء • ومع ذلك فهناك عدد كبير من الامثلة لنساء هجرهن أزواجهن ومع ذلك فقد ابدين خضوعا مثاليا لأزواجهن وودا للمزوجة المفضلة •

ويملك بعض النساء جاريات اشترين خصيصا لهن أو تلقينهن هدية قبل الزواج • وهؤلاء لا يمكن أن يصبحن محظيات للزوج الا بقبول من سيداتهن •

وأحيانا يحصل الزوج على هذا القبول الا أن هذه الحالات نادرة • وثمة زوجات لا يبحن للنساء من عبيدهن الظهور سافرات أمام الزوج • واذا حدث أن أصبحت احدى الجوارى محظية للزوج دون موافقة الزوجة وولدت له ولدا فان هذا الطفل يصبح عبدا الا اذا بيعت الجارية أو أهديت للأب قبل مولد هذا الطفل •

والجوارى البيض يملكهن عادة الاغنياء من الاتراك • ولا يمكن أن تكون الجوارى المحظيات وثنيات • فهن يأتين عادة من الحبشة ويستولى عليهن الاغنياء ومتوسطو الحال من المصريين • ولون بشرتهن هو البنى القاتم أو البرنزى • وتدل سماتهن على أنهن من جنس متوسط بين الزنوج والبيض الا أنهن مختلفات عن هذين الجنسين بشكل ملحوظ • ويعتقدن هن أنفســهن أن الفرق ضئيل بين جنسهن والجنس الابيض ولذا فهن يصررن على رفض القيام بأعمال الخادمات والخضوع لزوجات سادتهن •

وترفض الزنجيات بدورهن خــدمة الحبشيات الا أنهن دائمـا على

استعداد لخدمة النساء البيضاوات . ولا تأتى معظم الحبشيات من الحبشة مباشرة بل من مناطق الجالا (جنوب الحبشة) (١) المجاور لها . وهن عادة جميلات والثمن المتوسط للواحدة منهن يتراوح بين ٢٥٠ و ٧٥ فرنكا اذا كانت على درجة مقبولة من الجمال . ومنذ بضع سنوات يدفع الناس ضعف هذا المبلغ .

ويقيم الباحثون عن اللذة فى مصر لاولئك النسوة وزنا كبيرا . ولكنهن من الرقة بحيث لا يعشن حياة طويلة ؛ يمتن كلهن تقريبا من الذبول . ويبلغ ثمن الجارية البيضاء عادة ثلاثة أمثال الحبشية بل وقد يبلغ عشرة أمثال ثمنها . أما ثمن الزنجية فلا يبلغ الا نصف ثمن الحبشة أو ثلثيه . الا أن هذا الثمن يرتفع كثيرا اذا كانت طاهية ماهرة . وتستخدم الزنجيات عادة كخادمات .

ويعتنق العبيد كلهم تقريبا الاسلام الا أنهم من النادر أن يتلقنوا شعائر دينهم الجديد ، وأندر منه أن يتعلموا نظرياته . ومعظم الجوارى اللاتى عشن فى مصر فى الزمن الماضى كن من اليونانيات اللاتى وجدن ضمن العدد الكبير من أسرى الشعب اليونانى التعس الذين أخذهم الجيش التركى والمصرى بناء على الاوامر التى أصدرها ابراهيم باشا . ولقد بيع هؤلاء التعساء ، ومنهم الاطفال الذين لم يكادوا يتعلمون المشى ، بلا شفقة ولا رحمة فى مصر . ويلاحظ فقر الطبقات العالية فى البلاد من قلة الاقبال على شراء الجوارى البيض . ولقد استجلب بعضهن من بلاد الشراكسة وجورجيا بعد أن تلقين فى القسطنطينية نوعا من الثقافة الاعدادية وتعلمن الموسيقى وغيرها من الفنون الترفيهية . ولما كانت الجوارى البيض غالبا هن الرفيقات الوحيدات للترك من الطبقات العليا ، بل وقد يصبحن أحيانا زوجاتهم ، ولما كن يتمتعن بتقدير يفوق تقدير الناس للاحرار من النساء فقد تبوأن لدى الرأى العام مكانة لم تبلغها هؤلاء النساء . وهن يرتدين الملابس الفاخرة ، وتنهال عليهن الهدايا من المجوهرات القيمة . ويعشن فى ترف ويسر حتى انه اذا لم يكن ثمة اكراه لهن على العبودية فان وضعهن يبدو حسنا جدا . ونجد الدليل على ذلك فى رفض كثير من النساء اليونانيات اللاتى عشن فى الحريم فى مصر حين انتهاء القتال مع اليونان الحرية التى منحت لهن . ذلك أن أحدا لا يستطيع أن يفترض انهن جميعا كن يجهلن الوضع الذى يقع فيه آباؤهن وانهن ربما خفن من التعرض للفاقة

---

(١) جماعة لهم تقاطيع قوقازية وبشرتهم سوداء .

اذا ما لحقن بهم • ولكن مما لايرقى اليه الشك أن بعضهن كن سعيدات على الأقل بصفة مؤقتة • ومع ذلك فثمة ميل الى الاعتقاد أن معظمهن ، وقد قدر عليهن أن يقمن على خدمة رفيقاتهن فى العبودية ممن يقربهن السادة الى أنفسهم أو السيدات التركيات أو أصبحن مضطرات الى تحمل ملاطفة السادة من شيوخ مسنين أثرياء أو أناس نخر الافراط بجميع ألوانه أجسامهم وأذهانهم ، لم يكن سعيدات لا سيما وهن معرضات للبيع مرة ثانية أو للاعتاق دون ما وسيلة للعيش بعد موت سادتهن أو سيداتهن والى الانتقال هكذا الى أيد أخرى اذا لم يكن لهن أطفال ، أو يجدن أنفسهن مضطرات الى الزواج من صانع حقير لا يستطيع أن يوفر لهن اليسر الذى عتدن عليه •

وتلقى الجوارى فى بيوت الطبقة المتوسطة فى مصر عادة معاملة أطيب من تلك التى تتلقاها المقيمات فى حريم الاغنياء • فاذا كن محظيات، وهو أمر لا سبيل الى تجنبه تقريبا فليس لهن غريمات يعكرن صفو بيوتهن • أما اذا كن خادمات فان ما يقمن به من أعمال الخدمة ميسر وحريتهن أقل تحديدا • واذا وجد تعلق متبادل بين المحظية والسيد فان وضعها يكون أسعد من وضع الزوجة ، ذلك أن الزوجة قد يطلقها زوجها وفى لحظة غضب قد ينطق ضدها بصيغة الطلاق البائن ويغرقها هكذا فى البؤس فى حين أنه من النادر أن يسرح أحد جاريته دون أن يوفيها ما تحتاج اليه بسخاء حتى لا يضيرها تغيير مصيرها اذا لم تكن قد دللت فى حياة مسرفة فى الترف • وحين يسرح السيد جاريته جرى العرف على ان يعتقها بمنحها هبة بمناسبة عتقها ثم يزوجها من رجل طيب أو يهديها الى أحد أصدقائه • وعلى العموم فان بيع جارية قضت مدة طويلة فى خدمة سيدها يعتبر من الامور التى تستحق اللوم • واذا رزقت جارية بطفل من سيدها واعترف هذا بأبوته للطفل فحينئذ لا يمكن بيعها أو اهداؤها وتصبح حرة بعد موت سيدها • وكثيرا ما يحدث بعد ولادة طفل يعترف به السيد أن تعتق الجارية وتصبح زوجة له ، وذلك لأنه لا يمكن وقد أعتقها أن يحتفظ بها دون زواج شرعى •

وثمن الاناث من العبيد عادة أكبر من ثمن الذكور• وثمن من لم يصب بالجديرى منهن أقل ممن أصبن به • ويعطى المشترى ثلاثة أيام للتجربة. وفى خلال هذه الفترة تبقى الفتاة المشتراه فى حريم المشترى أو فى حريم أحد من أصدقائه ويكلف نساء الحريم بابداء تقريرهن عن القادمة الجديدة• ويعتبر الشخير وصرير الاسنان أو الكلام أثناء النوم أسبابا كافية لفسخ

الشراء واعادتها الى البائع · وتلبس الجوارى نفس ما تلبسه النساء المصريات ·

وتكلف الفتيات أو النساء المصريات المضطرات الى الخدمة بأحط الاعمال · ويظهرن عادة أمام سادتهن محجبات ، وحينما يقمن بتأدية عمل ما لهؤلاء السادة يعدلن من وضع الحجاب بحيث لا يكشفن الا عن أعينهن ولا يحركن الا يدا واحدة ·

وحينما يستقبل السيد رجلا غريبا عن البيت فى غرفة من غرف الحريم (بعد ابعاد النساء اللاتى تتكون منهن أسرته الى غرفة أخرى) تقوم على خدمته باقى النساء الا أنهن يكن دائما محجبات ·

تلك هى الاوضاع التى تقوم عليها مختلف طبقات الحريم · وينبغى الآن أن نلقى نظرة على عادات ساكنات الحريم ومشاغلهن ·

وكثيرا ما تحرم الزوجات والنساء من الجوارى من تناول الطعام على مائدة واحدة مع رب البيت وأسرته وقد يستدعين لخدمته حينما يتناول غداءه أو عشاءه أو حتى حين يدخل الى الحريم للتدخين وتناول القهوة · وهن يقمن عادة بأعمال الخادمات · وهن يتولين عادة ملء غليونه واشعاله ويعدون له القهوة وألوان الطعام التى يرغب فى تناولها لاسيما حين يتعلق الامر بالالوان الدقيقة الصنع والغريبة · والطبق الذى يوصيك به رب البيت لان زوجته قد أعدته بيدها هو عادة صنف جيد تماما · وتدرس نساء الطبقات العليا والمتوسطة دراسة خاصة فن الحصول على اعجاب الازواج والاستحواذ عليهم بما لا حد له من الاهتمام والمضايقات · ويلاحظ المرء دلالهن حتى فى مشيتهن · وحينما يخرجن يعرفن كيف يعطين لأجسامهن حركة متموجه خاصة يسميها المصريون «بالغنج» · وهن دائما متحفظات فى حضرة الزوج ولذا فيفضلن ألا يكثر من زيارتهن أثناء النهار وألا تطول زياراته · أما فى غيابه فانهن ينطلقن فى مرح بالغ ·

وطعام النساء رغم مشابهته لطعام الرجال الا أنه أكثر تقشفا · وهن يتناولن طعامهن بنفس الطريقة التى يتناولون بها طعامهم · ويسمح لكثير من النساء بالتدخين حتى نساء أرقى الطبقات حيث أن رائحة التبغ المصرى الممتاز معطرة الى أقصى حد · وغلايين النساء أرفع من غلايين الرجال وأكثر منها زينة · وأحيانا يصنع طرفها من المرجان بدلا من الرخام · ويتعاطى النساء العنبر المسك وغيره من العطور · ويستعملن مساحيق التجميل وعطوره وكثيرا ما يعدون تركيبات يأكلنها أو يشربنها من أجل الحصول

على درجــة معينة من اعتدال المزاج والمصريون على العكس من الافريقيين وشعوب الشرق عموما ليسوا شديدى الاعجــاب بالنســـاء المفرطات فى البدانة ، ذلك لانه فى أغانى الحب لديهم يتحدث الشعراء عن فتاة حبهم على أنها رشيقة نحيلة القوام ٠

وثمة صنف من أصناف الطعام التى تعتبرها النســاء كفيلة بزيادة أوزانهن وهو مقزز ويتكون أســاسا من القواقع المهروسة ٠ وكثير من النساء يمضغن البخور واللادن حتى تصير أنفاسهن عطره ٠ وتضفى عادة الوضوء المتواتر على أجسامهن نظافة تامة ٠ وهن لا يقضين وقتا طويلا فى الزينة ، وينـــدر أن يغيرن زينتهن أثناء اليــوم بعد ارتداء ملابسهن فى الصباح ٠ وهن يجدلن شعورهن فى ضفائر أثنـاء الاستحمام ، وتكون هــذه الطريقة فى تصفيف الشعر من حسن السبك بحيث لا تستشعر الحاجة لتغييرها طوال أيام كثيرة ٠

وأهم ما يشغل السيدات المصريات هو العناية بأطفالهن كمـا أنهن يقمن بادارة شــئون البيت ٠ الا أن الزوج عادة هو الذى يتولى الانفاق وينظمه . وتقضى النساء ساعات الفراغ فى الحياكة والتطريز لا سيما تطريز مناديل اليد وغطــاء الوجه ٠ ويتم التطريز عادة بالحرير الملون والذهب ويؤدى بواسطة جهاز يسمى المنسج يصنع عادة من خشب الجوز المطعم بالصدف وقشور السلحفاة ، وتصنع الاصناف المعتادة منه من خشب الزان ٠ وكثير من النساء ، حتى أكثرهن ثراء ، يتوصلن الى تضخيم حافظة نقودهن الخاصة بتطريز المنــاديل وغيرها ويعطينها للدلالة التى تتولى عرضها فى أحد المحلات أو تتولى تصريفها فى حريم آخر ٠ وكثيرا ماتستغرق الزيارة التى تقوم بها نساء الحريم لحريم آخر يوما بأسره تقريبا ٠ وهكذا تتجمــع النســـاء ويأكلن ويدخن ويشربن القهــوة والشربات ويثرثرن ويستعرضن ما لديهن من أدوات الترف ، وفى هذا كله مايكفى لتسليتهن ٠ ولا يسمح لرب البيت بحضور هذه الاجتماعات النســـائية الا للضرورة الملحة ، وينبغى فى هذه الحالة أن يخطرهن بحضوره حتى يعطى الزائرات الوقت الكافى لاسدال خمرهن أو للانسحاب الى جزء آخر من هذا الجناح ٠ وهكذا تترك النساء الشابات وهن فى مأمن من أية مفاجأة العنان لمرحهن ويتركن أنفسهن على سجيتها ، بل كثيرا ما يتركن العنان لما يتميزن به من روح المجون والصخب ٠

٣ — الاحتفالات الخاصة

يقيم المصريون حفلا بمناسبة قبول أحد أبنائهم عضوا فى طائفة من طوائف التجار أو الصناع • ويتم القبول بين النجارين والغزالين والحلاقين والخياطين ومجلدى الكتب وغيرهم من أرباب الحرف بالطريقة التالية :

يتوجه الشاب الذى يرغب فى الانضمام الى الطائفة برفقة أبيه الى الشيخ ويحيطه علما برغبته فى الحاقه عضوا بالطائفة • وحينئذ يستدعى الشيخ أرباب المهنة من معلمى هذا المستجد وبعض من أصدقائه لحضور حفل استقباله • وهنا يحمل أحد « المعلمين » ويسمى النقيب باقة من العشب الاخضر أو الزهور ويقوم بتوزيعها على كل فرد من المدعوين وهو يقول :

— « الفاتحة للنبى » •

ثم يضيف النقيب قائلا :

— « احضروا الى هنا فى يوم كذا والساعة كيت لتناول قدح من القهوة » •

وهكذا يتجمع المدعوون سواء لدى الاب أو لدى الشاب وأحيانا فى الريف حيث يستمتعون بتناول القهوة ويقدم لهم العشاء •

ويمثل المستجد أمام الشيخ • وتتلى الاشعار فى مدح النبى ثم يلفون له حول جسده « شالا » معقودا من طرفيه • ثم تتلى آيات من القرآن ثم يعقد الشال عقدة ثانية • وفى العقدة الثالثة التى تعقد بعد قراءة بضع آيات من القرآن مرة أخرى يرش الشـال للتبريك ويعتبر الشاب قد تم قبوله كعضو فى الطائفة المهنية التى كرس نفسه لها • وحينئذ يقبل يد

الشيخ وجميع الحاضرين ويدفع رسم اشـتراك زهيد ويصبح عضوا فى الطائفة •

ويظهر المصريون ، الذين يعيشـــون عادة فى تقشف شديد ، فى ولائمهم أكبر قدر ممكن من التنوع والوفرة الا أن الوقت المخصص لتناول الطعام قصير جدا • ويدخن الناس عادة فى مثل هذه الاجتماعات يرشفون القهوة أو الشربات ويتسامرون •

وفى أثنـــاء تلاوة القرآن يمتنع الاتراك عادة عن التدخين ، وهم يبجلون الكتاب المقدس لدرجة جعلت الناس يقولون عنهم : « أن الله قد وضع ســـلالة عثمان فى مكانة تفوق غيرهم من المسلمين لأنهم يمجدون القرآن أكثر مما يفعل غيرهم !

وكل ما يدور فى هذه الاجتماعات من تسلية لا يعدو بعض لقصص، الا أن الجميع يولون الرقص الذى يدور والموسيقى التى تعزف فى أيام العيد هذه اهتماما كبيرا •

ويجدر بالملاحظة أن المصرى يسليه أن يلعب أية لعبة الا اذا كان فى جماعة صغيرة من شخصين أو ثلاثة أو كان فى أسرته • ورغم أن المصرى اجتماعى بطبعه الا أنه نادرا ما يقيم الحفلات الكبيرة ولابد لكى يقيمها من مناسبات غير عادية كالزواج ومولد أحد الاطفال الخ .

وثمة حفلات كذلك تقام بمناسبة الزواج • وفى اليـــوم السابع للزواج (ويسمى يوم السبوع) تستقبل العروس صديقاتها من السيدات فى الصباح وبعد الظهر • وأحيانا يستقبل الزوج فى هذا الوقت أصدقاءه ويسليهم فى المساء بالموسيقى والرقص • وتفرض العادات المتبعة فى مصر على الزوج أن يمتنع عن ممارسة الحقوق التى يمنحها له الزواج حتى اليوم السابع اذا كانت العروس عذراء شابة • وفى نهاية هـذه الفترة جرى العرف على اقامة حفل وجمع الاصـــدقاء • وبعد أربعين يوما من الزواج تذهب العروس الشابة الى الحمام بصحبة بعض صديقاتها • وحين تعود الى بيتها تقدم لهن المرطبات ثم ينصرفن • وفى أثناء هـذا الوقت يقيم الزوج وليمة يدور فيها الرقص وتعزف الموسيقى •

وغداة مولد أحد الاطفال يقـــوم اثنـان أو ثلاثة من الراقصين أو الراقصات بالتوقيع أمام البيت أو فى الفناء • وتكون الحفلات التى تقام بمناسبة مولد صبى أكثر بهجة من تلك التى تقام بمناسبة مولد صبية •

وفى هذا ما زال العرب يحتفظون بالمشاعر التى كانت تحدو بأجدادهم الى وأد أبنائهم من الاناث(١) ٠

وبعد مولد الطفل بثلاثة أو أربعة أيام تعد نساء البيت ألوانا من الطعام تتكون من العسل والسمن وزيت السمسم والعطارة والعطور يضاف اليها أحيانا البندق المحمص هــذا اذا كانت النفســاء تنتمى الى احدى الطبقات الراقية أو الميسورة ٠

ثم تقوم النساء أو الفنيات « بزفة » الطفل فى الحريم كله وتحمل كل منهن شموعا مشتعلة ذات ألوان مختلفة : ثم توضع هذه الشموع بعد تقسيمها الى نصفين فى كتل يابسة من عجينة من الحناء ويوضع كثير منها على صحفة كبيرة ٠ وترش القابلة أو غيرها من السيدات الحاضرات الملح المختلط بحبة البركة على الأرض ٠ ويوضع هذا الخليط على رأس مهد الطفل فى الليلة البارحة لحماية من الارواح الشريرة ٠ وتقول المرأة التى تتولى نثر هذا الملح :

- « ملحة فى عين الذى لا يصلى على النبى » ! « أو ملحة فى عين الحسود » !

وترد عليها جميع النساء الحاضرات قائلات :

- « اللهم صلى على سيدنا محمد » !

ويقدم لكل من السيدات صحفة من الفضة فيصحن بصوت مرتفع:

- اللهم صلى على سيدنا محمد! اللهم مد فى عمره سنوات طويلة! الخ ٠

وتقدم النساء عادة فى هذه المناسبة منديلا مطرزا يعقد أحد أطرافه على قطعة ذهبية ٠ ويوضع هذا المنديل عادة على رأس الطفل أو بجواره ٠ وتعتبر هدية المنديل دينا مكتوبا لا بد من رده فى مثل هذه المناسبة أو يستخدم فى رد هدية قدمت فى مناسبة مماثلة ٠ وتستخدم النقود الذهبية التى تجمع بهذه الطريقة فى تزيين شعر الطفل لسنوات عديدة ٠ وبخلاف هذا الكرم الوفير يجزل العطاء كذلك للقابلة ٠ وفى ليلة يوم السبوع يوضع ابريق ملىء بالماء على رأس مهد الطفل النائم بعد تزيين عنقه بمنديل مطرز ٠ ثم تتناول القابلة ابريقا وتضعه فى صحفة ثم تقدم لكل من تأتى لزيارة النفساء كوبا منه تدفع كل منها هبة من لدنها ثمنا له ٠

وتعتبر النفساء غير طاهرة مدة من الزمن بعد الوضع تختلف تبعا للمذاهب المختلفة الا أنها تبلغ عادة أربعين يوما ٠ وبعد انقضاء الفترة التى تدعى النفاس تذهب الى الحمام ومنذ ذلك الوقت تصبح طاهرة ٠

---

(١) واد البنات كان فى الجاهلية قاصرا على قلة من القبائل ، والعرب كقاعدة عامة يؤثرون الولد ٠ (المترجم)

٤ ـ الراقصات فى مصر

ان الغوازى هن أشهر الراقصات فى مصر ، وقد أطلق عليهن هـذا الاسم نسبة الى القبيلة التى ينتمين اليها (١) ٠ وتسمى المـرأة التى تنتمى الى هذه القبيلة غازية والرجل غاز ، أما الجمع غوازى فيطلق عادة على النسـاء ٠ ولا يتسم رقصهن دائما بالجمال ٠ فهن يبدأن أولا بشىء من التحفظ ولكن ما تلبث نظراتهن ان تنتشى ويقوى وقع صاجاتهن النحاسـية ٠ وينتهى بهن الأمر بسـبب الطاقة المتزايدة لجميع حركاتهن بأن يحاكين رقص نساء قادش محاكاة تامة كما وصفه لنا مارسيال وجوفنال (٢) ٠ ويشبه الثوب الذى يظهرن به ثيـاب المصريات من الطبقة المتوسطة التى يرتدينها فى الحريم ٠ وهو يتكون من « اليلك » (٣) أو « العنترى » والشنتيان الخ ٠ وتصنع من الاقمشة الجميلة ويضاف اليها الزينات المختلفة ٠ وهن يزين حافة أعينهن بنوع من الكحل الأسود ٠ أما أطراف أصابعهن وراحة أيديهن وبعض أجزاء من القدم فتطلى بلون الحناء الاحمر كما هى العادة المتبعة لدى المصريين من جميع طبقاتهم ٠ ويتبع هؤلاء الراقصات عادة موسيقيون ينتمى معظمهم الى القبيلة نفسها ٠ وآلاتهم الموسيقية هى الكمان أو الرباب والدف (التار) أو الدربكة والزره (٤) ٠ وتمسك بالدف عادة امرأة عجوز وكثيرا ما يحدث بمناسبة بعض الحفلات العائلية كالزواج والولادة أن

---

(١) قبيلة غزية

(٢) شاعرين لاتينيين ٠

(٣) اليلك ثوب منزلى مفتوح من الامام والعنترى شبيه بذلك الا أنه قصير أما الشنتيان فهو نوع من السراويل ٠

(٤) يقصد الزمارة ٠ (المترجم)

تترك الغوازى لترقص فى أفنية المنازل أو في الشارع أمام الأبواب دون استقبالهن داخل اى حريم شريف ، وعلى العكس من ذلك ليس من النادر أن يؤجرن لتسلية جمع من الرجال . وفى هذه الحالة كما نستطيع أن نتصور تكون رقصاتهن أكثر مجونا مما وصفنا فيما سبق . وبعضهن لا يرتدين فى هذه الاجتماعات الخاصة من الملابس الا الشنتيان (أى السروال) والتب وهو قميص أو ثوب فضفاض جدا من المخمل الملون شبه الشفاف ، مفتوح من الامام حتى منتصف الجونله . واذا تظاهرن ببقية من الحياء فهذا لا يدوم طويلا أمام الشراب المسكر الذى يصبونه لهن بوفرة .

وبعضهن يتميزن بالجمال الشديد ، ومعظمهن يرتدين الملابس الفاخرة وهن عموما أجمل نساء الاقليم ، ومما يجدر ذكره أن بعضا منهن يتسم بالأنف ذى التقويس الخفيف الا أنهن رغم جميع الاعتبارات يمثلن الجنس الاصلى .

ورغم أن الغوازى يختلفن اختلافا طفيفا فى مظهرهن عن بقية المصريين فنحن نشك بقوة فى أن يكن من أصل مميز خاص بهن كما يؤكدن هن أنفسهن ومع ذلك فأصلهن يحيط به الكثير من الغموض . فهن يدعين أنهن يدعين البرامكة أو البرمكة ويفخرن بأنهن من أسرة البرامكة الشهيرة التى كانت موضع تكريم هارون الرشيد ثم صب عليها غضبه كما تحدثت عنها مرارا القصص العربية .

وقد صورت الغوازى على كثير من المقابر المصرية وهن يرقصن على نغمات مختلف الآلات بأكثر الحركات تحررا من القيود أى على طريقة مماثلة لتلك التى ترقص بها الغوازى المحدثات ، بل ربما كانت أكثر اباحيه ذلك أن واحدا أو كثيرا من هذه الوجوه قد صورت عادة رغم وجودها بجوار شخصيات جليلة فى حالة عرى تام . وتدل هذه العادة التى نتحدث عنها فى تزيين الآثار التى تحمل معظمها أسماء الملوك القدامى على مدى شعبية هذه الرقصات فى مصر كلها في أكثر الازمنة ايغالا فى القدم ، حتى قبل هروب بنى اسرائيل وعلى ذلك فمن المحتمل أن تكون الغوازى المحدثات عن سلالة هذه الطبقة من الراقصات التى كانت ترفه عن الفراعنة الأوائل .

ويتميز الغوازى من الرجال والنساء عادة عن الطبقات الأخرى

بأنهم لا يتزوجون الا من بعضهم البعض . الا أننا نرى أحيانا احدى الفوازى تقسم على التوبة وتتزوج من أحد العــرب الاشراف الذى لا يشينيه عادة هذا الرباط . والغازيات كلهن قد كرسن لأحط المهن الا أنهن لا يمتهن جميعا مهنة الرقص . وتتزوج الغالبية العظمى منهن ولكن لا يتم هذا أبدا الا بعد أن يمارسن فعلا الحالة التى اخترنها .

ويخضع الزوج لزوجه ويصير خادما لها ومتعهدا لاحضار ما يلزمها واذا كانت راقصة فهو يصبح عادة عازفا لها ومع ذلك فبعضهم يكسب عيشه من أعمال الحدادة والحياكة وصناعة القدور .

ورغم أن بعض الغازيات يمتلكن المال العريض والمصوغات الثمينة الا أن كثيرا من ملابسهن تشـبه ملابس البوهيميات اللائى نشـاهدهن فى أوربا واللائى نظن أنهن من أصل مصرى . ولغة الفوازى من الجنسين عادة هى لغة سائر المصريين الا أنهم أحيانا يستعملون بعض الالفاظ الخاصة بهم حتى لا يفهمهم الأغـراب . أما عن الدين فهم يعتنقون الاسلام علنا ويحدث أحيانا أن يصحب بعضهم العاملة المصرية الى مكة. وترى اعداد كبيرة من الفوازى فى جميع المدن المصرية تقريبا . وهم يسكنون عادة فى أكواخ منخفضة أو خيام مؤقتة اذ أنهم كثيرا ما يرحلون من مدينة الى أخرى . ومع ذلك فان بعضا منهن يقمن فى بيوت كبيرة ويقتنين الجوارى السود من الشباب ثم يقتنين الجمال والحمير والابقار ويتجرن فيها . وهن يتبعن المخيمات ويحضرن جميع الاحتفالات الدينية وغيرها ويشكلن العنصر الأساسى الذى يجذب الكثير من الناس الى هذه الاحتفالات . وفى هذه المناسبات تشاهد خيام عديدة للفوازى ويضيف بعضهن الغناء الى الرقص وينافسن العوالم اللاتى ينتمين الى احط الطبقات . ويرتدى البعض الآخر منهن الثياب المخملية فوق ثياب أخرى مع « الشنتيان » والطرحة المصنوعة من « الكريب » أو الموسلين. وهن يفرطن عادة فى التزين بالدنتلات والاساور والخلاخيل . ويلبسن كذلك صفا من القطع الذهبية على الجبين ويضعن أحيانا حلقه فى احدى فتحات أنوفهن ويصبغن جميعا أيديهن وأرجلهن بالحناء .

وفى القاهرة يتظاهر الكثير من الناس بالاعتقاد فى أن هذه الرقصات لا يعيبها الا أن النسـاء هن اللاتى يؤدينها حيث لا ينبغى أن يعرضن أنفسـهن هكذا على الجمهور ولذا فهم يكلفون الرجال بهذه الالوان من الترفيه . الا أن عدد هؤلاء الراقصين ،ومعظمهم من الشباب ويسمونهم بالمخنثين محدود للغاية . وهم من أبناء مصر . ولما كان عليهم أن يقلدوا

رقصات النساء فهم يؤدون رقصات لها طابع رقصات الغازيات نفسها ويضربون بالصاجات بالطريقة ذاتها . ولكن رغبة منهم فى ألا ينظر الناس الى الدور الذى يقومون به بعين الجد فهم يرتدون من الملابس ما يتفق مع هده المهنة الغريبة ، فهى ثياب نصفها مذكر والنصف الآخر مؤنث . وتتكون أساسا من سترة مقفلة وحزام وما يشبه القرطق ومع ذلك فمظهرهم العام أقرب الى النساء منه الى الرجال وذلك بلا شك لانهم يرسلون شعورهم ويجدلونها على طريقة النساء . وهم يقلدون النساء فى تلوين جفونهم وصبغ أيديهم بالحناء . وفى الطريق حينما لا يرقصون فانهم يسيرون محجبين لا بدافع الخجل بل أمعانا منهم فى تقليد حركات النساء . وكثيرا ما يفضلهم الناس على الغازيات فى الرقص فى الافنية أو أمام أبواب المنازل فى مناسبات الاحتفالات العائلية . وتوجد فى القاهرة طبقة أخرى من الراقصين من الرجال والفتيان يشبهون فى لباسهم وحركاتهم ومظهرهم المخنثين . الا أنهم يتميزون عنهم بأن اسمهم الجنك (١) وهى كلمة تركية تعبر تماما عن طابع هؤلاء الراقصين وهم عادة من اليهود أو الأرمن أو اليونانيين .

---

(١) البوهيميون (م)

٥ - الحواة

توجد فى مصر طائفة من الناس تملك على ما يظن ، كما كان يملك الرفاعية فى (١) ولاية طرابلس الغرب ، ذلك الفن الغريب الذى تحدثت عنه التوراه والذى يمنح المرء مناعة ضد عض الثعابين . ولقد روى الكثير من الكتاب قصصا عجيبة عن هؤلاء الحواة المحدثين الذين يعتبرهم الواعون من المصريين دجالين . الا أن أحدا لم يقدم ما يكفى من التفصيلات عن المهارة التى يقدمونها سواء منها العادية أو المثيرة .

وكثير من الدراويش من الدرجات الأقل يتعيشون من ممارسة أنواع من السحر حول المنازل لابعاد الثعابين عنها . وهم يجوبون مصر فى جميع الاتجاهات حيث يجدون العمل على معظم الاحوال الا أن مكسبهم ضئيل . ويدعى الرفاعى اكتشاف الثعابين ان وجدت دون استخدام بصره ؛ وهو يؤكد فى حالة وجودها أنه يستطيع اجتذابها اليه بفضل سحر صوته وحده . وحينئذ يتخذ هيئة غريبة ويضرب الجدران بعصا صغيرة من سعف النخيل ويصفر ويقلد صياح الدجاجة بلسانه ويبصق على الأرض ويقول : « سواء أكنت فى أعلى أم فى أسفل فانى استحلفك باسم الله أن تظهر فى الحال . واذا لم تطع هذا الأمر فلتمت ! لتمت ! لتمت ! » ويحدث عادة أن يخرج الثعبان بواسطة العصا من أحد شقوق الجدار أو يسقط من سقف الغرفة .

وأصحاب هذه الألاعيب ، ويسمون بالحواة ، كثيرون فى القاهرة . وتراهم فى الميادين وقد أحيطوا بدائرة من المتفرجين ، تراهم كذلك فى

(١) الذين يملكون فن السيطرة على الثعابين .

الاحتفالات العامة وهم ينتزعون التصفيق من الناس بألاعيب كثيرا ماتكون مبتذلة • وهم يؤدون عددا كبيرا من الألاعيب اليكم أكثرهـــا شيوعا : يساعد الحاوى عادة اثنان من زملائه ، وهو يخرج أربعة أو خمسة تعابين متوسطة الحجم من كيس من الجلد ويضع واحدا منها على الأرض ويجعله يرفع رأسه وجزءا من جسمه • ثم يلف الثعبان الثانى حول رأس أحد مساعديه كما تلف الرأس بالعمامة كما يلف ثعبانين آخرين حول الرقبة • ثم يستعيدها ويفتح فم الصبى ويبدو وكأنه يدخل فى خده يد شيء ما يشبه القفل ثم يغلقه وبعد ذلك يتظاهر بادخال طرف عود من الحديد فى حلق الصبى وهو فى الحقيقة يدخله فى يد خشبية تحيط به • واليـــكم لعبة أخرى من ألاعيبهم : يرقد الحاوى أحد صبيانه على الأرض ويضع له أحد الشفرات على أنفه ويضرب على الحد حتى يبدو وكأنه قد تعمق الى منتصـــف خطه العرضى • ومعظم الألاعيب التى ينفذها بمفرده أدعى للتسلية من ذلك فهو مثلا يخرج من فمه كمية كبيرة من الحرير يلفها حول ذراعه • وأحيانا أخرى يملأ فمه بالقطن ويبصق النار • وأحيانا أخرى كذلك يخرج من فمه عددا كبيرا من القطع المعدنية فى استدارة الدولار ثم يبصقها من أنفه فى صورة دخان يخرج من أرجيله •

وثمة لعبة شائعة من هذه الألاعيب يوضع فيهـا عدد ما من أشرطة الورق الصغيرة البيضاء فى اصيص من القصدير فى شكل كوب الشراب ثم يسحبها وقد تلونت بألوان مختلفة ، ثم يصب الحاوى الماء في هذا الاناء نفسه ويضع فيه قطعة من القماش ثم يقدمه الى المشـــاهدين وقد تحول الى شراب سكرى • واحيانا يقص الحاوى احدى التلافيع الى قسمين أو يحرقها فى وسطها ثم يعود فورا فيصلحها . وأحيانا أخرى يتجرد من جميع ملابسه الا سرواله ويطلب من شخصين أن يوثقا قدميه ويديه ويضعاه فى كيس • وبعد ذلك يطلب قرشا فيجيبه أحد المشاهدين بأنه سوف يحصل على هذا القرش لو استطاع سحب احدى يديه لتلقيه. وفى الحال يسحب احدى يديه خارج الكيس ثم يعود فيدخلا ويخرج بعد ذلك كله وهو ما يزال مشدود الوثاق ثم يعاد الى الكيس فيخرج منه للتو وقد تخلص من وثاقه ويحمل صحفه صغيرة محاطة بالشموع المضاءة واذا كانت تلك اللعبة تمارس ليلا) وقد عمرت بخمسة أو ستة من الصحون مليئة بألوان مختلفة من الطعام ويقدمها للمشاهدين •

ويوجد فى القاهرة طائفة أخرى من الحواة يســــمون السيكة ؟ • ويساعد السيكى فى معظم العابهم كذلك صبى مساعد • فمثلا يقوم هذا

الأخير بوضع تسعة وعشرين حجرا صغيرا على الأرض ويجلس بجوارها ويقوم بترتيبها أمامه • ثم يطلب من أحد المشاهدين أن يخفى قطعة من النقود تحت أحدها • وما أن يتم ذلك حتى يدعو السيكى الذى يكون واقفا على مسافة ما أثناء هذا الترتيب • وحين يخبره أن قطعة من النقود قد خبئت تحت أحد الأحجار يسأله أن يدل على الحجر الذى خبئت تحته ، وهذا ما يفعله السكيم للتو • وهذه اللعبة بسيطة للغاية فالحجارة التسعة والعشرون يمثلون الحروف الأبجدية العربية • ولا يفوت الصبى أن يبدأ طلبه بالحرف الذى يمثل الحجر الذى خبئت تحته قطعة النقود •

ومن قراءة الطالع كثيرا ما يمـــارس فى مصر ، ويتولاه فى معظم الأحوال بوهيميون مثل أولئك الذين يعيشون فى بلادنا ويطلقون عليهم اسم الغجر • وهم يدعون ، ومثلهم فى ذلك مثل الغوازى ، أنهم من سلالة البرامكة ولكنهم من فرع مخالف لفرع البرامكة •

ومعظم النساء يقرأن الطالع ، وكثيرا ما يشاهدن فى شوارع القاهرة وقد ارتدين ما ترتديه نساء الطبقة الدنيا تقريبا مع الثوب والطربوش الا أن وجوههن دائما سافرة • وتحمل الغجرية عادة كيســـا من الجلد يحتوى على الأدوات اللازمة لمهنتها وتجوب الشوارع وهى تصيح : « أقرأ الطالع ! أكشف الحاضر وأقول المستقبل ! » •

ومعظم الغوازى يقرأن الطالع بواسطة عدد من القواقع وقطع الزجاج الملون وقطع النقود الخ ••

يقذفن بها كلها مختلطة • وحسب النظام الذى ترتبها به الصدفة يستخلصن نتائجهن • وأكبر الودع هو الشخص الذى يراد الكشـــف عن مصيره •• وتجسد القواقع الاخرى الخير والشر الخ • وحسب طريقة توزيعها يعرفن اذا كان الآخرون سوف يحضرون لزيارة الشخص المعنى أم لن يصلوا • وتصيح بعض من هذه البوهيميات قائلات : « ندق ونطاهر » (أى اننا نرسم الوشم ونقوم بختان الطفل) •

ويقوم بعض البوهيميين كذلك بدور « البهلوان » ، وهو اســـم يطلق بحق على البهلوانات واللاعبين بالسيوف أو مشاهير الأبطال وكل من اشتهر فى القاهرة فى الماضى باظهار قوته ومهارته • الا أن ألعاب البهلوانات المحدثين قد اقتصرت تقريبا على الرقص على الحبل • وكل من يمارس هذا الفن من البوهيميين • وقد يحدث أحيـــانا أن يربط الحبل بمئذنة أحد

المساجد على ارتفاع كبير ويمتد الى عدة مئات من الأقدام تسنده من مكان الى مكان عروق خشبية مغروسة فى الأرض .

وتمارس النساء والفتيات الصبية هذه المهنة عن طيب خاطر . الا أن الصبية يقومون الى جانبها بألعاب أخرى كألعاب القوى والقفز من الأطواق الخ ..

والقرداتية (وهو اسم مشتق من كلمة قرد) يقومون بتسلية الطبقات الدنيا فى القاهرة بواسطة الألعاب المختلفة التى يقوم بها قرد وحمار وكلب وعنز . ويقوم الرجل والقرد (وهو عادة من فصيلة القردة الافريقية بمضاربة الثلاثة الآخرين بالعصى . ويلبس الرجل القرد الغريب من الملابس كالعروس مثلا أو كامرأة محجبة . وهو يتقدمه وهو يقرع طبلته الصغيرة ويستعرضه هكذا على ظهر الحمار وسط حلقة المشاهدين . وعلى القرد كذلك أن يؤدى رقصات عديدة مضحكة . ثم يؤمر الحمار بأن يمتطى ظهر أجمل الفتيات ، فلا يلبث أن يقوم بذلك وهو يلصق أنفه بوجه أجمل فتاة وسط رضاها ورضا الحاضرين جميعا . ويؤمر الكلب بتقليد حركات اللص فيأخذ فى الزحف على بطنه . وأخيرا فان أحسن هذه الألعاب هو ما يقوم به العنز . فهو يقف على قطعة صغيرة من الخشب قرنية الشكل تقريبا يبلغ طولها نحو أربع بوصات وعرضها بوصة ونصف بحيث يجمع أقدامه الأربعة على هذه المساحة الضيقة . ثم ترفع هذه القطعة الخشبية وهى تحمل فوقها العنز فى هذا الوضع وتدس تحتها قطعة أخرى مماثلة ثم ثالثة ورابعة وخامسة تضاف دون أن يغير العنز وضعه .

ويسر المصريون عادة لمشاهدة التمثيليات الهزلية السخيفة التى تبعث على السخرية . وتؤدى هذه العروض عادة فى الحفلات التى تسبق الزواج والختان لدى علية القوم وتجتذب أحيانا عددا كبيرا من المشاهدين فى الميادين العامة فى القاهرة . الا أنها قلما تستحق الوصف اذ أن هذه الفرق تجتذب التصفيق أساسا بالدعابات المبتذلة المشينة . ولا يقوم بالتمثيل الا الرجال فهم الذين يؤدون الادوار النسائية أو يسندونها الى صبية فى أزياء النساء .

واليكم كعينة من تمثيلياتهم ملخصا لاحدى التمثيليات التى عرضت أمام محمد على بمناسبة ختان أحد أبنائه والتى كانوا يقومون فيها كذلك حسب العادات المتبعة بختان عدد كبير من أبناء العظماء .

كان شخوص التمثيلية هم « ناظر » أى حاكم ناحية ، وشيخ بلد ،

وخادم هذا الأخير ، وأحد الكتبة الاقباط ورجل فقير مدين للحكومة وزوجته وخمسة شخوص آخرين يدخل اثنان منهم وهما يقرعان احدى الطبول بينما يعزف الثالث على المزمار ويرقص الاثنان الباقيان . وبعد أن يفرغوا من الرقص والعزف على آلاتهم يدخل الناظر وغيره ويغنون في دائرة .

ويسأل الناظر : « بكم يدين عوض بن رجب ؟ » فيجيب العازفون والراقصون الذين يقومون الآن بدور بعض الفلاحين قائلين : « اطلب من الكاتب أن يرجع الى السجل » . أما هذا الكاتب فيرتدى ملابس الاقباط ويضع على رأسه عمامة سوداء ويحمل فى حزامه كل ما يحتاج اليه من أدوات الكتابة . فيقول له الشيخ : « بكم يدين عوض بن رجب ؟ » فيجيب الكاتب : « بألف قرش » فيضيف الشيخ قائلا : « وكم دفع منها ؟ » فيجيبه قائلا : « خمسة قروش » وحينئذ يقول للمدين : « لماذا لم تحضر النقود أيها الرجل ؟ » فيجيب الرجل قائلا : « اننى لا أملك أية نقود » فيصيح فيه الشيخ قائلا : « لا تملك أية نقود ! ليفرش هذا الرجل على الأرض » . وحينئذ يحضر سوط يشبه عصب الثور ويضرب الفلاح المسكين . وحينئذ يصيح فى الناظر قائلا : « يا بك ، بحق شرف ذيل حصانك ! يا بك ! بحق رباط رأسك ، يا بك ! » .

وبعد أن يرسل عشرينا من أمثال هذا النداء السخيف الذى يستدر به المضروب عطف الناظر ويكف عن ضربه ويقاد الى السجن . وثمة مشهد آخر : تحضر زوجة السجين لزيارته وتسأله عن حاله فيجيب : « أرجو أن تأخذى بعض البيض وبعض الفطائر وتحمليهـــا الى منزل القبطى وتتوسلى اليه أن يعيد الى حريتى » . وتجمع المرأة الاشياء المطلوبة وتحملها فى ثلاث سلال الى القبطى وتسأل عما اذا كان موجودا فيجيبها بالايجاب فتتقدم اليه وتقول : « يا معلم حنا ! تفضل على بقبول هذه الهدية وبالحصول على حرية زوجى » . « ومن هو زوجك ؟ » . « انه الفلاح المدين بألف قرش» . «ادفعى مائتين أو ثلاثة مئات من القروش الى شيخ البلد كجزية» . وتذهب المرأة للبحث عن المال وتحرير زوجها .

نرى من ذلك أن الملهاة تهدف من وجهة نظر الشعب الى توجيـــه الانذارات الى الكبراء والحصول على التحسينات والاصلاحات . ولقد كان هذا فى أغلب الاحوال هو معنى الفن التمثيلى وهدفه فى العصور الوسطى وما زال المصريون فى العصور الوسطى .

٦ - بيوت القاهرة

ان العاصمة الحديثة لمصر تسمى بالعربية « القاهرة » التى اشتق منها الأوربيون الاسم الذى يطلقونه على هذه المدينة • أما الشعب فيسميها مصر وهو اسم البلد كله • وتقع المدينة فى مدخل وادى مصر العليا بين النيل والسلسلة الشرقية لجبال المقطم • ويفصلها عن النهـــر لسان من الأرض مزروع كله تقريبا ويتسع من الجبهة الشرقية حيث يوجد مرفأ بولاق الى أكثر من ربع فرسخ حينما لا يبلغ اتساعه نصف هذا القدر جهـــة الجنوب •

وقد يظن الاجنبى الذى لا هم له الا أن يجوب شوارع القاهرة أنها مدينة ضيقة لا تحتل الا مساحة صغيرة • أما ذلك الذى يراها فى مجملها من منزل مرتفع أو من مئذنة أحد المساجد فانه لن يلبث أن يلاحظ عكس ذلك • وأكثر الشوارع ازدحاما تتميز عـــادة بصف من الحوانيت من الجانبين • ومعظم الشوارع البعيدة مزودة بأبواب من الخشب فى كل طرفيها • وهذه الأبواب تغلق ليلا ويتولى حراستها بواب مهمته أن يفتح لكل مار • وان ما يسمونه حيا هو مجموعة من الحوارى الضيقة لها مدخل واحد مشترك •

والمساكن الخاصة تستحق أن توصف • فجدران الاساس مغطاة الى ارتفاع الدور الأول من الخارج وفى معظم الاحوال من الداخل كذلك بأحجار جيريه رخوة مستمدة من الجبل المجاور • والحجر من هذا النوع حينما يكون حديث القطع يشكل سطحا ذا لون أصفر فاتح ، الا أنه سرعان ما يتحول لونه الى البنى بفعل الهواء • وتبين التقسيمات المختلفة للواجهة أحيانا بالجمرة والجير ، وترسم على التوالى باللونين الأحمر والأبيض • وتستعمل

هذه الطريقة بصفة خاصة فى البيوت الكبيرة والمساجد • أما الأدوار العليا، وواجهتها عادة تبرز الى الأمام حوالى قدمين فتحملهـا الأعمدة • وتبنى هذه المبانى بالآجر الذى يغطى عادة بطبقة من الجص • والآخر المستعمل محروق رلونه أحمر داكن • ودهان المنازل أملس ومزود بطبقة من الجص • أما النوافذ البارزة الى الخارج فى الادوار العليا التى تواجه بعضـها البعض فتوشك أن تتلامس وتكاد تحجب أشعة الشمس تماما فى الصيف مما يترتب عليه أن يتمتع الشارع بفىء منعش فى الصيف •

وأبواب المنازل عادة مستديرة من أعلى ومزدانة بالنقوش العربية • وفى وسطها يوجد جزء تكتب عليه عادة (عبارة) : «وهو الخالق المبدع الخالد» وهذه الاجزاء من الأبواب وغيرها من الأجزاء التى تتخذ الشكل نفسـه ولكن فى حجم أصغر مطلية باللون الأحمر ولها اطار أبيض ، أما بقية سطح الباب فمطلى باللون الاخضر • ويرتبط اختيار هذه الألوان بأفكار خرافية • والأبواب مزودة بمطرقة من الحديد وبقفل من الخشب ، ونجد فى كل مكان تقريبا بجوار الابواب مصطبة من درجتين يستطيع المرء منها أن يمتطى حماره أو حصانه •

ولأجنحة الطابق الارضى المجاورة للشارع نوافذ صغيرة ذات قضبان من الخشب وهى مرتفعة حتى لا يتمكن المار من النظر الى الداخل • ونوافذ الأجنحة تبرز الى الخارج قرابة قدم ونصف • وتجمل هذه النوافذ عـادة بعريشة من الخشب الملتوى تكون من الضيق بحيث تحجب نور الشـمس ولا تمنع مرور الهواء • وقلما تطلى هذه العرائش ، أما ما يراد تزيينـه منها فيطلى بالأحمر أو الأخضر • وتسمى هذه النوافذ بالمشربيات • وتعنى هذه الكلمة الاماكن المخصصة للشرب • وفى بعض المنازل يضعون على هذه النوافذ أوانى فخارية ذات مسام ترطب الهواء بالتبخر الناشىء عن تيارات الهواء • وفى أعلى النافذة البارزة مباشرة توجد نافذة أخرى مسطحة مزودة اما بعريشة أو بقضبان خشبية أو بالزجاج الملون • وهذه النوافذ العليا حين تكون مزودة بعريشة فانها تحمل عادة بعض رسوم الزينة كحوض وابريق يتكرران فى أعلى هذه النافذة ، أو وجه أسد أو اسم الله أو عبارة الخ •

وبعض النوافذ البارزة مبنية كلها بالخشب وبعضها ذات مربعـات جانبية •

وترتفع المنازل عادة الى طابقين أو ثلاثة طوابق ويضم كل بيت فناء

غير مرصوف يسمى « حوش » يدخل الناس اليه بواسطة ممر أنشىء بحيث لا يزيد عرضه عن ذراع أو ذراعين وذلك حتى لا يرى المارون بداخله • ويوجد فى هذا الممر شبه أريكة مستندة الى الحائط بطوله ونسمى مصطبة، وهى مخصصة للبواب والخدم • ويحوى الفناء عادة بئرا من ماء أجاج يتسرب من النيل عبر التربة • وجانب البئر الذى يتعرض للظل أكثر من الآخر يزود فى معظم الاحوال بقدرين يملآن كل يوم بمياه النهل التى تحمل من النهر فى القرب • وتطل أهم أجنحة البيت على الفناء • وفى بعض الاحيان يكون للبيت فناءان يختص الحريم بثانيهما • ويزدان كل من هذين الفناءين بمشاتل صغيرة على شكل أقواس تربى فيها الشجيرات والأزهار • والجدران الداخلية للبيت ، هى التى تشكل المربع الذى يشغله الفناء ، مبنية بالقرميد ومطلية بالجير • وللأفنية أبواب عديدة تؤدى الى الداخل يطلق على أحدها باب الحريم • ومن هذا الباب يصل المرء الى السلم المؤدى الى الأجنحة المخصصة للنساء والسادة وأولادهم •

وفى الطابق الارضى يوجد جناح يعرف عادة باسم « المندرة » حيث يستقبل الرجال • ولهذا الجناح نافذة عريضة وبجوارها نافذة أخرى أو نافذتان صغيرتان على الطراز نفسه • وأرضية هذه الأجنحة منحدرة الى أسفل بمقدار ست أو سبع بوصات ؛ وهذا الجزء الأسفل يسمى « الدركة » •

وفى بيوت الاثرياء تبلط هذه « الدركة » ببلاط من الرخام الابيض والأسود ، كما تبلط جميع الفراغات « بالموازايكو » المكون من قطع من القرميد ذى اللون الأحمر الفاقع ، مما يشكل تطعيما أنيقا رائعا • وفى وسط البيت تجد فى الفناء نافورة تسمى « بالفسقية » تتدفق المياه المندفعة منها كالشلال فى حوض مغطى بالرخام الملون • والنافورات التى ترتفع مياهها الى ارتفاع كبير الى حد ما تواجه عادة منضدة من الرخام أو من الحجارة العادية يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام تقريبا وتسمى الصفة . وترتكز هذه المنضدة على اثنتين أو أكثر من الاروقة بل وقد ترتكز أحيانا على رواق واحد • وتوضع تحتها الادوات التى تستخدم يوميا أى الاوانى التى تحتوى على العطور أو الجرار التى تستخدم فى الوضوء والتى تستعمل قبل تناول الوجبات وبعده استعدادا لأداء الصلاة •

وأكثر الأماكن ارتفاعا فى هذه الاجنحة يسمى الديوان وهو تحريف لكلمة ايوان التى تعنى القصر • ولدى الدخول الى هذا الجزء من المسكن يخلع كل حذاءه قبل أن يسمح له بدخول الديوان • وهذه القاعة ، ليست

فى انواقع الا حجرة للانتظار مبلطة بالحجارة العادية • وفى الصيف تغطى أرضيتها بالحصير وفى الشتاء بأحد الابسطة • ونرى فى ثـــلاثة جوانب منها الحشايا والوسائد • ويبلغ سمك الحشية عادة ثلاث بوصات • وعرضها ثلاثة أقدام • وتعد المضاجع اما على الأرض أو على سرر • أما الوسائد التى يبلغ طولها دائما عرض السرير نفسه وسمكها نصف هذا العرض فتستند الى الحائط • وتحشى الحشايا والوسائد بالقطن فى أكياس من القماش القطنى المطبوع أو الصوف أو غيره من الأقمشة الثمينة • وجدران البيوت مطلية بالجص ومبيضة من الداخل • ونجد فى الجدران بصورة دائمة تقريبا الدواليب قليلة العمق صنعت أبوابها من قطع صغيرة جدا • وتفسر هـذه العادة بجفاف الجو وحرارته مما يلهب القطع الخشبية الكبيرة حتى ليخال المرء أنها قد أدخلت الى الفرن • ولهذا السبب نفسه تتكون أبواب الأجنحة من قطع مجمعة • وتمنحنا هذه القطع الخشبية الصغيرة التى توزع بصورة متنوعة صورة مثيرة حافلة بالخيال الخصب والتكوين الفنى •

والأسقف مصنوعة من الخشب ، والعروق العرضية منحوتة وتطلى أحيانا بالألوان أو بالذهب • وسقف « الدركة » فى البيوت الرئيســـية غاية فى التأنق تزينه متوازيات مستطيلة متقابلة تكون رسوما طريفـــة الا أنها منتظمة وذات تأثير زخرفى يتسم بالذوق الرفيع •

وفى وسط المربع الذى تكونه هذه الغرف تعلق احدى الثريات • ولقد كان للطريقة الخاصة التى تطلى بها الجدران وغرابة الرسوم التى تمثلها والتى تبدو وكأنها تتقاطع بصورة مفرطة فى عدم النظام فى الوقت الذى تبدو فيه هذه التقسيمات كلها منتظمة ، كان لذلك تأثير يأخذ بالأنظار •

وفى داخل بعض المنازل توجد غرفة تسمى « المقعد » وتخصـــص للغرض نفسه الذى تخصص له « المندرة » ، ويحمل سقف هذه الغرفـة عمود أو عمودان وأقواس ، وقاعدتها جميعا مزودة بسور • ويملك الدور الأرضى بدوره قاعة للاستقبال تسمى « التختبوش » وهى عادة مربعة • وواجهتها المطلة على الفناء مكشوفة وفى الوسط يرتفع عمود يحمل الجدران المبنية فوقه • وهذه القاعة مبلطة وثمة أريكة طويلة تلتف بالجدران من ثلاث جهات • وكثيرا ما ترش هذه القاعة التى تشبه الفناء مما يجعـــل الأجنحة المجاورة أو على الأقل أجنحة الدور الارضى ذات جو رطب منعش فى هذه الأجواء •

وضمن الاجنحة العليا ، أى أجنحة الحريم ، يوجـــد جناح يدعى

« القاعة » ويتميز بارتفاعه الكبير • ونجد به أريكتين تمتدان بطول كل من جانبي الغرفة • واحدى الاريكتين أطول من الأخرى ، والأطول هي التي يدعى للجلوس عليها المرغوب فى تكريمهم من الضيوف . وجزء من سقف غرفة الاستقبال هذه وهو الجزء الذى يظلل الأريكتين أكثر ارتفاعا من باقى الأجزاء • وفى وسطه يتدلى مصباح يسمى « المرق » قد زينت جوانبه بعرائش كعرائش النوافذ وله قبة صغيرة • ومن النادر أن تزود « الدركة» بنافورة صغيرة الا أنها غالبا ما تكون مبلطة على الطريقة التى تبلط بها المندرة •

ونجد فى كثير من الغرف أرففا خشبية ضيقة محملة بجميع أنواع الأوانى الصينية التى لا تستخدم الا فى تزيين المكان • وهـــذه الرفوف الموضوعة على ارتفاع يزيد على سبعة أقدام من الأرض تحيط بالغرفة فيما عدا فتحات النوافذ والأبواب والغرف كلها تقريبـــا مفرطة فى الارتفاع ولا يقل ارتفاعها عن أربعة عشر قدما بل ومنها ما يزيد على ذلك • والقاعة مع ذلك هى أكثرها اتساعا وارتفاعا ، وفى البيوت الرئيسية تعتبر هى أجمل قاعات الاستقبال •

وفى بعض الطوابق العليا من منازل الاثرياء نجد فيما عدا النوافذ ذات العرائش طاقات صغيرة من الزجاج الملون تمثل سلالا للزهور وغير ذلك من الرسوم المرحة الخفيفة أو قد تكتفى ببعض الرسوم الغريبة ذات التأثير الساحر • وهذه النوافذ ذات الزجاج الملون وتسمى « الشمسية » كلها تقريبا يبلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاثة وعرضها قدمين تقريبا • وتفتح رأسا فوق الجزء العلوى البارز للنوافذ أو فى الاجزاء العليا من فتحات الجدران ولذا فهى ترســل ضوءا هادئا ساحريا ذا انعكاس غاية فى الروعة . وتتكون هذه النوافذ من اجزاء صغيرة من الزجاج ذى الألوان المختلفة يثبت فى اطارات من الجص الناعم ثم يركب فى اطار من الخشب • ونرى على الجـدران المبنية ببـلاط من الجص والرخـام فى بعض الأجنحة رسوما بدائية تمثل الكعبة أو قبر الرسول أو بعض الزهور وغيرها من موضـــوعات الزينة • ونجد كذلك بعض الحكم العـربية أو المواعظ الدينية • ومعظم هذه المواعظ والحكم مكتوبة على ورق جميل وتجملهـــا بعض التحف الخطية ثم توضع فى اطار تحت الزجاج • وغرف النوم لاتحوى أى أثاث بالمعنى الصحيح اذ أن المضاجع تطوى بالنهار وتلف وتوضع فى ركن من أركان الغرفة أو فى قاعة تستخدم للنوم أثناء الشتاء •وفى الصيف ينام معظم السكان فوق أسقف المنازل • ويتكون الاثاث الكامل لغرفــة

النوم من حصير أو بساط يفرد على البـــلاط الذى يغطى أرض الغرفـــة وأريكة ، وهذا هو أثاث جميع الغرف بصورة عامة •

وتقدم وجبات الطعام على صوان مستديرة توضع على مقعد بلا ظهر قليل الارتفاع • ويجلس المدعوون على الأرض حول الصينية • واستخدام المدافىء غير معروف وتدفأ الغرف فى الشتاء بالفحم الذى يوضع فى المنقد • ولا تعرف المداخن الا فى المطبخ •

وفى كثير من المنازل توجد فتحات للتهوية (شخشيخة) متجهة الى الشمال أو الجنوب الغربى وتستخدم فى ترطيب الغرف العليا •

ولكل باب قفل من الخشب يسمى « الضبة » وبها نقط بارزة من الحديد تعادل الثقوب التى توجد فى الفتحة المخصصة لها •

وتتميز جميع منازل القاهرة تقريبا بعدم الانتظام • فالغرف عـادة ذات ارتفاع مختلف ابتداء من الدور الأرضى مما يجعل المرء مضطرا دائما الى الصعود أو الهبوط بضع خطوات لدى الذهاب من غرفة الى أخرى والهدف الأساسى للمهندس فى ذلك هو منح البيت أكبر قدر من العزلة لاسيما الجزء المخصص لسكنى النساء والعمل على عدم تمكين أحد من النظر الى داخل البيت من النوافذ وتجنيب سكان البيت أن يراهم من فى المنازل المجاورة •

وفى بيوت الأثرياء من طبقة معينة يعنى المهندس بانشاء باب سرى ، وهو اسم يطلق كذلك أحيانا على أبواب الحريم ، وذلك لتسهيل الهرب فى حالة وجود خطر الاعتقال أو القتل أو لادخال احدى العشيقات حتى يمكن ادخالها واخراجها بهذه الطريقة فى سرية تامة • وتحتوى بيوت الأغنيـاء كذلك على مخابىء للكنوز ، ويدعى هذا المكان بالمخبأ • ونجد كذلك فى حريم البيوتات الكبيرة غرفا للحمام تدفأ بالطريقة نفسها التى تدفأ بها الحمامات العامة •

وحينما يشغل الخدم الجزء الأسفل من البيت تقسم الطوابق العليا الى مساكن منفصلة ، ويسمى هذا الجزء من البيت بالربع • وهذه المساكن منفصلة تماما بعضها عن بعض كما هو الحال فى الحوانيت الموجودة أسفل البيت • وتؤجر للعائلات التى لا تسمح مواردها باستئجار منازل كاملة • ويتكون كل مسكن فى الربع من قاعة أو قاعتين وغرفة للنوم كما يزود عادة بمطبخ وملحقاته • ومن النادر أن تجد مساكن لكل منها مدخل خالص للشارع على غرار تلك المساكن •

٧ - مراسم المآتم

تكاد المراسم المتبعة فى مناسبة وفاة رجل أو امرأة ودفنه أن تكون مماثلة . فحينما تدل الحشرجة أو غيرها من الظواهر على اقتراب منية شخص ما يديره أحد أقاربه بحيث يكون وجهه فى اتجاه القبلة ويغلق له عينيه . وقبل أن يسلم الروح أو بعد ذلك بلحظة يصيح الحاضرون : « الله ! لا حول ولا قوة الا بالله ! انا لله وانا اليه راجعون ! اللهم اغفر له ! » وفى تلك الأثناء ترسل نساء الأسرة صيحات تأوه تدعى الولولة ، ثم يطلقن صرخات أكثر حدة وهن يذكرن اسم الفقيد . وأكثر الصيحات استعمالا ، تلك التى تفلت من بين شفاه زوجته أو زوجاته وأطفاله هى : «ياسيدى ! ياجملى !» ومعنى ذلك : « أنت الذى كنت تحضر لى احتياجاتى وتحمل أعبائى ! يا سبعى ! يا جمل البيت ! يا عزى ! يا موردى ! يا أبى ! يامصيبتى ! » .

وبعد الوفاة مباشرة تستبدل الملابس التى كان يرتديها المتوفى بملابس أخرى . ثم يوضع على سريره أو فوق مرتبته وتفرد فوقه ملاءة الفراش . وتواصل النساء صيحاتهن ويأتى كثير من الجيران للانضمام اليهن .

وترسل الأسر عادة فى طلب ندابتين أو أكثر . وتحضر كل منهما دفا خاليا من الرقائق المعدنية الرنانة التى تزود بها عادة أطواق الدفوف . وتضرب هؤلاء النسوة على هذه الآلات وهن يصحن : « ياحسرة عليه ! » ويسترسلن فى مدح عمامة المتوفى وجمال شخصه ألخ . أما نساء الأسرة والخادمات وصديقات المتوفى فيصحن بدورهن ، وقد نفشت شعورهن وشقت ملابسهن ، قائلات : ياحسرة عليه ! وهن يلطمن وجوههن .

وما يلبث المغسل أن يحضر ومعه منضدة يضع عليها الجثة ونعش .

واذا كان الميت ذا مكانة مرموقة يصرح للفقراء الذين يجب أن يشتركوا في تشييع الجنازة بدخول منزل المتوفى • وفى أثناء الاحتفال بغسل الميت يدخل هؤلاء الى غرفة مجاورة أو فى الخارج على باب الشقة • ويتلو بعضهم ، أو بتعبير أصح يرتل سورة الأنعام (السورة السادسة من القرآن) حينما ينشد غيرهم جزءا من قصيدة البردة وهى قصيدة شهيرة فى مدح النبى • وينزع المغسل ملابس المتوفى ويأخذها لنفسه حلالا بلالا ، ثم يقفل فمه ويغلق عينيه • وبعد أن يتم للجسد الوضوء العادى الذى يسبق الصلاة ، فيما عدا غسل الفم والأنف ، يكون المتوفى قد تم غسله من الرأس الى الأقدام بالماء الدافىء والصابون وبليف النخيل ، أو بالماء المغلى ببعض أوراق الشيح • ويحشى منخارىالأنف والأذنين الخ •• بالقطن ويرش الجسد بمزيج من الماء والكافور المدقوق ، وأوراق الشيح الجافة والمدقوقة وماء الورد • ويوثق كعبى المتوفى وتوضع يداه على صدره •

ويتكون كفن الفقير ، وهو لباس القبر ، من قطعة أو قطعتين من القطن قد أعدتا فى صورة كيس • أما كفن الغنى فيكون عادة من الموسلين ثم بملاءة من القطن أكثر سمكا ثم يلف فى قطعة مخططة من الحرير والقطن وأخيرا فى شال من الكشمير • والألــوان المفضلة لهذه الأغطية هى الابيض والاخضر الا أنه فى الامكان اختيار أى لون فيما عدا الازرق وكل مايقترب منه من ألوان • وحينما يعد الجسد هكذا للدفن يسجى فى النعش الذى يغطى عادة بشال من الكشمير الاحمر أو أى لون آخر • ثم يتخذ المشيعون للجنازة أماكنهم حسب النظام المتبع وهو فى الجنازات العادية كما يلى :

أولا : ستة من الفقهاء أو أكثر ويسمون باليمينية وهم يختارون عادة من العميان •

ويلى هؤلاء الفقهاء أقارب المتوفى وأصدقاؤه وفى كثير من الحالاتيأتى كثير من الدراويش أو غيرهم من رجال الدين وهم يحملون العلامات المميزة للطرق التى ينتمون اليها فينضمون للموكب • ثم يأتى بعد ذلك ثلاثة أو أربعة من طلبة المدارس يحمل أحدهم مصحفا أو جزءا من أجزاء القرآن الثلاثين • ويوضع هذا الكتاب على نضد مصنوع من عصى النخيل يغطى عادة بمنديل مطرز • ويقوم هؤلاء الصبية بانشاد بعض مقاطع من قصيدة شعرية تدعى « الحشرية » تصف أحداث يوم القيامة وذلك بصوت أعلى وأكثر حيوية من صوت اليمينية •

ويتقدم طلبة المدارس هؤلاء النعش الذى يحمل على الأعناق وقد اتجه الرأس الى الأمام • وقد جرت العادة على أن يتولى ثلاثة أو أربعة من أصدقاء الفقيد حمله بعض الوقت • ويقـــوم غيرهم بحمله تدريجيا • وكثيرا مايشارك المارة فى أداء هذه الخدمة ، مما يعتبر عملا يستحق الكثير من المثوبة الحسنة •

ويتبع النساء النعش فى عدد قد يصل أحيـــانا الى العشرين ، ويخفين شعورهن المنفوشة عادة بطرحهن •

وتتميز النساء من أقارب أو خادمات البيت بشريط من القماش القطنى أو « الموسلين » ، وهو عادة أزرق ، يلففنه حول الرأس بعقدة واحدة تاركات طرفيه يتدليان من الخلف وكذلك فان مع كل منهن منديلا مصبوغا عادة بالنيلة يوضع عادة على الأكتاف • وأحيانا تمسكه بعضهن باليدين من فوق الرأس أو أمام الوجه •

وفى بعض المناسبات ينتهى الموكب بعجل خصص للذبح أمام القبر ثم يوزع لحمه بعد ذلك على الفقراء •

والنعوش التى تستخدم للنساء والصبيان تختلف عن تلك التى تستخدم للرجال • صحيح أنها مزودة كنعوش الرجال بغطاء من الخشب يفرد عليه شال الا أنها تحمل فى مقدمتها قطعة خشبية مستقيمة تسمى الشاهد • ويغطى هـــذا الشاهد بشـــال ، ويزين الجزء العلوى منه (اذا كان النعش يضـــم سـيدة من الطبقة المتوســـطة أو العـــالية) بمختلف أنواع الزينات التى تســتعملها النســـاء على الرأس • فاذا كان رأس الشـــاهد مسطحا أو دائريا فهو يستخدم عادة فى وضـــع قرص (وهو حلية مستديرة من الذهب أو الفضــــة قد طعمت بالماس والذهب المشغول فى بروز ويحمله النساء الى قمة الرأس) • أما الى الخلف فتعلق الصفا (وهى عدد من الضفائر الحريرية السوداء المزدانة بالحلى الذهبية والتى تضيفها النساء الى شعورهن المصففة فى ضفائر ويتركنها تنسدل بطول ظهورهن) • ويتميز نعش الصبى بعمامة تكون عادة من الكشمير الأحمر وتوضع فى أعلى الشاهد • وحينما يكون الصبى حديث السن جدا تضاف اليها القرص أو الصفا • واذا كان الأمر يتعلق بطفل فى بداية العمر فان رجلا يحمله بين ذراعيه الى المدفن ولا يغطى جسده الا بشال • وأحيانا يوضع فى نعش صغير جدا يحمله أحد الرجال على رأسه •

وننتقل الآن الى وصف الشعائر والاحتفالات داخل المسجد وداخل القبر •

فاذا مادخل النعش الى المسجد يوضع على الأرض فى المكان المخصص عادة للصلاة بحيث يكون جانبه الأيمن متجها الى القبلة • ويقف الامام فى الجهه اليسرى من النعش وقد اتجه وجهه اليه فى اتجاه القبلة ، حينما يقف المبلغ و المكلفون بتكرار كلام الامام لدى قدمى الفقيد • ويصطف الحاضرون فى الجنازة خلف الامام وتقف النساء فى مكان خاص خلف مكان الرجال • ذلك أن دخول المساجد محرم عليهن أثناء هذه الاحتفالات • وحينما يصطف الجمع بهذه الطريقة يبدأ الامام صلاة الجنازة بادئا كلامه بهذه العبارة : « اقترح تلاوة صلاة التكبير (وهى صلاة جنائزية تقوم على تكرار كلمة الله أكبر بصوت عال) وبعد هذه المقدمة يرفع الامام يديه المفتوحتين وهو يلمس بطرف ابهاميه قناة أذنيه وينادى « الله أكبر ! » ويكرر المبلغ هذه الصيحة كما يكررها كل فرد خلف الامام • وبعد أن يتلو الامام الفاتحة ينادى مرة ثانية : « الله أكبر ! » ثم يضيف : « اللهم صلى على سيدنا محمد النبى العظيم وآله وصحبه واحفظه ! » ثم ينادى الامام مرة ثالثة : « الله أكبر ! » ثم يطلب الرحمة من الله للمتوفى ويتجه الى الحاضرين قائلا : « اشهدوا له » فيجيبون : « لقد كان صالحا » ثم بعد ذلك يرفع النعش • واذا كان الحفل قد أقيم فى مسجد أحد مشاهير الأولياء يوضع أمام المقصورة أى الحاجز الذى يحيط برفات الولى • وهنا يتلو بعض الفقراء وكذلك الحاضرون صلاة الجنازة ويسير الموكب فى النظام السابق الى المدفن • ومدافن القاهرة أغلبهـــا خارج المدينة فى المناطق المهجورة التى تقع فى شمال وشرق وجنوب سور المدينة • أما المدافن داخل المدينة فعددها قليل ومساحتها صغيرة •

وسنقوم الآن باعطاء وصف مختصر للمدفن • وهو يتكون من قبو مستطيل عليه سقف معقود • وهو عادة مبنى بالطوب المطلى بالجبس • والقبو عميق حتى يتمكن المدفونون فيه من أن يستقيموا جالسين حين يزورهم الملكان ناكر ونكير ويستجوبانهم • ويتجه أحد جوانب القبر الى القبلة أى الى الجنوب الشرقى • ومدخله فى الشمال الشرقى • وأمام هذا المدخل يوجد قبو صغير مربع الشكل مغطى بالطوب الذى يخترقه من جانب الى اخر وذلك لمنع التراب من الدخول الى القبر • وبعد أن تبنى هذه الفجوة بهذه الطريقة تغطى بدورها بالتراب • ويبنى فى أعلى القبو أثر يزيد طوله عن عرضه يدعى بالتركيبة وهى عادة مصنوعة من الحجارة أو الطوب • وفوق هذا الأثر يوضع حجران متقابلان أحدهما لدى الرأس والآخر لدى القدمين : وهذه الحجارة فى العـادة على درجـة كبيرة من البساطة • ومع ذلك فمنها ما هو محلى بالزينة وغالبا ما يحمل الحجر القائم جهـــة الرأس آية من القرآن واسم المتوفى وتاريخ الوفاة • وفى بعض

الأحيان يعلو هذا الحجر تمثال يمثل عمامة أو قلنسوة أو غيرها من أغطية الرأس مما يدل على مركز الأشخاص المدفونين فى القبر والطبقة التى ينتمون اليها . وتقام عادة على قبر الأجلاء من الشيوخ أو ذوى المكانة مبنى صغير تعلوه قبة . وكثير من المقابر التى أقيمت تخليدا لذكرى الأعيان من الأتراك أو المماليك تحمل تركيبات من الرخام مغطاة بصيوان فى شكل قبة ترتكز على أربعة أعمدة من الرخام . وحينئذ فان الحجر القائم فى مقابلة الرأس يحمل كتابات بحروف من الذهب كتبت على قاعدة لازوردية . وفى المدفن الكبير فى القاهرة يرى عدد كبير من المقابر بهذه الطريقة . ومعظم مقابر السلاطين هى مساجد أنيقة .

ولما كان القبر قد فتح قبل وصول الجثمان فان الدفن لا يصادف أى تأخير . ولا يلبث التربى ومساعداه أن يستخرجا الجثمان من النعش ويضعونه فى القبر . وتفك الأربطة التى كان قد أحيط بها ويرقد على جانبه الأيمن أو بحيث يميل جسده الى اليمين ويكون الوجه متجها الى القبلة . ويثبت فى هذا الوضع بواسطة بعض قوالب اللبن . واذا كان الغطاء الخارجى شالا من الكشمير يمزق حتى لا تكون قيمته حافزا على السطو على القبر بواسطة بعض الأغراب . ويقوم بعض الحاضرين بوضع حفنة من التراب بالقرب من الجثمان . ثم يعاد اغلاق مدخل القبر بواسطة أحجار الاغلاق الموضوعة على الفجوة الصغيرة التى تسبقه وبعض التراب الذى كان قد استبعد . ثم يجتمع بعد ذلك الحاضرون فيما عدا الأطفال الصغار الذين لا يعتبرون مسئولين عن أفعالهم . ويقوم أحد الفقهاء بمهمة الملقن فيجلس أمام القبر ويقول : « ياعبد الله ! يابن أمة الله ! اعلم أن ملكين مبعوثين من قبل الله سيهبطان اليك الآن . فاذا سألاك : من هو ربك ؟ فأجبهما قائلا : « الله ربى حقا » . واذا سألاك من هو نبيك فقل لهم : « محمد رسول الله صدقا » . واذا سألك عن دينك فقل لهم . « الاسلام دينى » . واذا سألاك عن الكتاب الذى يهديك سواء السبيل فقل لهم : « ان القرآن هو الكتاب الذى يهدينى سواء السبيل والمسلمون اخوتى » . وحينما يسألانك عن دينك فأجبهما قائلا : « لقد عشت وسوف أموت وأنا أعتقد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله » . وحينئذ فسوف يقول لك الملكان : « ارقد يا عبد الله ! فى رعاية الله ! » .

ويعتقد المصريون أن الروح تظل مع الجسد أثناء الليلة الأولى التى تلى الدفن . ويعتقدون كذلك أن الملكين اللذين سبق ذكرهما يزورانها فى تلك الليلة ويسألانها وفى مقدورهما تعذيب الجسم .

والليلة التى تلى الدفن تسمى ليلة الوحشة حيث أن مكان المتوفى يظل شاغرا ٠

وما أن تغرب الشمس حتى يقاد فقيان أو ثلاثة الى بيت المتوفى حيث يتناولون العشاء المكون من الخبز واللبن فى المكان الذى مات فيه المتوفى ٠ ثم يتلون بعد ذلك سورة الملك (تبارك) (وهى السورة السادسة والستون من القرآن) ٠ ولما كانوا يعتقدون أن الروح تظل مع الجسد فى الليلة الأولى بعـــد الدفن ثم تذهب بعد ذلك اما الى المكان المخصص للأرواح الخيرة حتى يوم القيامة واما الى السجن الذى يجب على الأشرار أن ينتظروا فيه صدور الحكم النهائى عليهم ٠ وتسمى تلك الليلة كذلك بليلة الوحدة ٠

٨ - شعب مصر

من العسير دراسة شعب بلد لا تسجل فيه لا المواليد ولا الوفيات. ومنذ بضع سنوات جرت محاولة لاحتساب ذلك ، وذلك بعد البيوت المنشأة فى مصر كلها كقاعدة ومع افتراض أن كل بيت فى العاصمة يضم ثمانية أشخاص وفى الريف ستة أشخاص • وربما يقربنا هذا الحساب بطريقة لا بأس بهـا من الحقيقة ومع ذلك فان نتيجة المشاهدات التى أجريت لم تعط بالنسبة لبعض المدن مثل الاسكندرية وبولاق ومصر القاهرة الا متوسطا يبلغ خمسة أشخاص للبيت الواحد • وتعتبر مدينة رشيد نصف مهجورة •

أما مدينة دمياط فآهلة بالسكان ويمكن للبيت الواحد أن يحوى ستة أشخاص • واذا لم نقبل هذا الاحصاء فلن نصل أبدا الى الرقم المفترض لعدد سكان البلد • وان اضافة شخص أو شخصين لكل بيت فى كل مدينة لن يؤثر تأثيرا كبيرا على تعداد الشعب المصرى كله الذى قدر بما يزيد قليلا عن ٢ر٥٠٠ر٠٠٠ نسمة • ويقـدر فى هذا الرقم ١ر٢٠٠ر٠٠٠ من الذكور يصلح ثلثه ، أى ٤٠٠ر٠٠٠ للخدمة العسكرية والطبقات المختلفة التى يتكون منها هذا الشعب أساسا هى على وجه التقريب : طبقة المسلمين المصريين (ومنهم الفلاحون وسكان المدن) وتقدر بحوالى ١ر٧٥٠ر٠٠٠ ، وطبقة المصريين المسيحيين (الأقباط) وتقدر بحوالى ١٥٠ر٠٠٠ وطبقة العثمانيين أو الأتراك وتقـدر بحوالى ١٠ر٠٠٠ وطبقة السوريين وتقدر بحوالى ٥ر٠٠٠ وطبقة اليونانيين وتقدر بحوالى ٥ر٠٠٠ وطبقة الأرمن وتقدر بحوالى ٢ر٠٠٠ وطبقة اليهود وتقدر بحوالى ٥ر٠٠٠ •

أما الباقى ويقدر بحوالى ٧٠٠٠٠ر٧٠ نسمة فيتكون من العرب الغربيين والنوبيين والعبيد السود والمماليك (أو العبيد الذكور) والجوارى البيض والافرنج الخ • فترتيبه جد عسير • ولم نذكر هنا فى عداد سكان مصر الأعراب من سكان الصحارى المجاورة •

ولا يتكلم المصريون المسلمون والأقباط وكذلك السوريون واليهود الذين يقطنون مصر الا اللغة العربية ، فيما عدا استثناءات قليلة ، وهى كذلك اللغة التى يتكلمها الأجانب المقيمون فى البلاد •

ويسكن القاهرة تقريبا ٣٠٠٠٠٠ر٣٠٠ نسمة • ويخدع المرء لو حاول الحكم على سكان هذه المدينة من الجموع التى تتجمهر فى الشوارع الرئيسية والأسواق ذلك لأن الشوارع والأحياء الأخرى تقل ازدحاما عن ذلك كثيرا •

الملحق الثاني

الفنون لدى الشرقيين

لدينا اعتقاد يصــور لنا الامم الشرقية على أنها عدوة للوحات والتماثيل . ان ذلك لعمرى اعتقاد قديم يصلح لأن يكون بجوار مثيله الذى يتهم القائد الذى بعثه عمر بحرق مكتبة الاسكندرية وهى التى بددت قبل ذلك بوقت طويل بعد حريق السيرابيوم وتخريبه ٠

ونعرف جميعا أن ثمة لوحات مرسومة على رقوق فى الحمراء في غرناطة وأن أحد الملوك المغاربة لهذه المدينة قد أقام تمثالا لعشيقته فى مكان يسمى بحديقة الفتاة ٠ ولقد قلت من قبل أن المرء يصادف في احدى قاعات السراى فى القســطنطينية مجموعة مصــورة من وجوه السلاطين أقدمها قام برسمه بللان وفينيس وأمثالهما ممن كانوا يدعون للقيام بهذا العمل نظير أجور عالية ٠

بل وقد ســنحت لى الفرصــة لحضــور معرض للوحات فى القسطنطينية أقيم خلال أعياد شهر رمضان في حى غلطه بالقرب من مدخل قنطرة السفن الذى يخترق القرن الذهبى ٠ وينبغى الاعتراف مع ذلك بأن هذا المعرض ما كان ليرضى النقاد الباريسيين . فلقد كانت الرسوم التشريحيه غير موجودة على الاطلاق حينما كانت الغلبة للمناظر وللطبيعة الميتة وحدها ٠

ولقد كان ثمة ستمائه لوحة تحيط بها اطارات سوداء يمكن تقسـيمها على النحو الآتى : لوحات دينية ، لوحات تصور المعارك ، مناظر موضوعات بحرية ، حيوانات . وقد خصصت اللوحات الاولى لتصوير أهم المســاجد فى الامبراطورية العثمانية ولذا فقد كانت موضوعاتها هندسية محضــة لا يزيد عليهــا الا بعض الأشــجار التى صورت لتظهر ارتفاع المآذن ٠ ولم تكن هذه اللوحات تتعدى تصوير

السماء الزرقاء الصــافية والأرض ذات اللون المغبر والقرميد الأحمر والقباب الرمادية مما كان يجعلها قليلة التغيير ويصيبها بنوع من الطابع التقليدى الدينى . أما المعارك فقد تعثر تنفيذها تعثرا شديدا بسبب التقليد الدينى الذى يمنع تصوير أى كائن حى حتى ولو كان حصانا أو جملا أو حتى خنفساء . وقد كان الرسامون المسلمون يتصرفون بالطريقة التالية : كانوا يفترضون أن المشاهد قائمة فى مكان بعيد كل البعد عن مكان المعركة . فكانوا يصورون ثنيات الارض والجبال والانهار وحدها بشىء من الوضوح أما تخطيط المدن والزوايا والخطوط الدفاعية والخنادق وأمكنة القوات ذات الصفوف المربعة والبطاريات فتبين بعناية شديدة . وتقوم المدافع الضخمة التى تطلق نيرانها ومدافع المورتى التى تقذف القنابل المتوهجة ببعث الحياة فى المشهد وتتمثل فيها الحركة. ويصور الرجال أحيانا كنقاط صغيرة وتقوم الخيام والاعلام بالتدليل على الجنسيات المختلفة كما تقوم البيانات المدونة فى أسفل اللوحات بأعلام الجمهورية باسم القائد المنتصر . وفى المعارك البحرية يصبح التأثير أشد بسبب وجود السفن التى يتمثل فى قتالها نسبيا شىء من الحيوية. وكذلك فان الحركة في هذه اللوحات تكسب الكثير من التأثير بفضل جماعات من الحيتان والحيوانات البرمائية التى يباح اســـتخدامها كشهود للانتصارات البحرية التى يحرزها الهلال .

والواقع أنه من الغريب أن زى الاسلام (١) لا يبيح الا تصوير بعض الحيوانات التى تعتبر من فصيلة التنين . وهكذا نرى حيوانا ما يشبه أبا الهول يصور بالألوان فى المقاهى ولدى الحلاقين فى القسطنطينية وهو يمثل رأس امرأة غاية فى الجمال فوق جســد حصـان مجنح . ويسترسل شعرها الأسود ذو الضفائر الطويلة فوق الظهر والصدر وتحيط غضون بنية بعينيها الحـانيتين ويلتقى حاجباها المقوســان فوق جبينها . وفى مقدور كل رسام أن يمنحها سمات حبيبته وكل من يشاهدها يرى فيها المثل الأعلى للجمال ، ذلك لانها تمثل فى الواقع مخلوقا سماويا ، انها تمثل البراق الذى حمل محمدا الى السماء السابعة (٢) .

ذلك اذن هو الوجه الوحيد الذى يمـكن دراسته . ولا يســتطيع

---

(١) غنى عن الذكر أن الاسلام برىء من هذه الافتراءات والخرافات .

(٢) يذكر النص السماء الثالثة ولكن العرف جرى على الحديث عن الســماء السابعة .

المسلم أن يعطى صورته لحبيبته أو لذويه . ومع ذلك فثمه طريقه لاهدائهم صورة عزيزة ومتفقه تماما مع التعاليم الدينية ، وهى أن يرسم صورا مكبرة ومصغرة على العلب والميداليات للمسجد الذى يستحوذ على اعجابه فى القسطنطينية أو غيرها . ويعنى هذا أن « هنا يوجد قلبى وهو يتحرق شوقا اليك تحت أنظار الله » . ونجد بطول ميدان السيراسكييه بالقرب من مسجد با يزيد حيث تطير الحمائم بالآلاف صفا من الحوانيت الصغيرة التى يشغلها الرسامون ومن يقومون بعمل الرسوم والتماثيل المصغرة . وهنا يأتى العشاق والازواج المخلصون فى بعض المناسبات ليرسموا لهم هذه المساجد المحببة اليهم ويبدى كل منهم آراءه حول الالوان والتفصيلات الاضافية ويضيفون عادة بعض الاشعار التى تصور مشاعرهم .

ولا يستطيع المرء أن يفهم تماما كيف يبيح التدين الاسلامى تلك الوجوه الصينيه الواضحة السمات والمرسومة بدقة ويستخدمها فى عروض القراجوز (١) . وينبغى أن نذكر هنا أيضا بعض العملات والمداليات فى الازمنة الماضية ، بل حتى بعض رايات فرق الانكشارية القديمة التى كانت تحمل وجوه بعض الحيوانات . وكذلك فان سفينة السلطان مزينة بنسر من الذهب ذى أجنحة مفرودة .

وثمة نوع آخر من الشذوذ الغريب ، فقد جرت العادة فى القاهرة على تغطية بيت كل حاج يعود من رحلته الى مكة بالرسوم ، وذلك بلاشك لابراز البلاد التى شاهدها اذ أنه لا يسمح الا فى تلك المناسبة وحدها بتصوير الاشخاص ، ومع ذلك فمن العسير أن يتبين المرء أنهم من الاحياء .

وكما نعلم فان تلك المعتقدات المضادة للرسوم لا توجد الا لدى المسلمين الذين يعتنقون مذهب عمر (٢) . أما معتنقو مذهب على (الشيعة) فنجد لديهم رسوما وتماثيل مصغرة من جميع الانواع . ولذلك فلا ينبغى اتهام الاسلام جملة بهذا التحامل الذى من شأنه أن يقضى على الفنون . ويرجع الخلاف في ذلك الى تفسير نص مقدس يبعث على الظن بأنه من المحظور على الناس تصوير الأشكال ماداموا عاجزين عن خلق الأرواح . وقد حدث يوما أن كان مسافر انجليزى يرسم صورا تحت سمع وبصر اعرابى من الصحراء فقال له هذا الاخير بلهجة حادة

---

(١) ان الكاتب هنا يخلط الدين بشئون بعيدة كل البعد عنه .

(٢) يقصد أهل السنة .

مفرطة فى الجد : « ماذا أنت قائل لله فى اليوم الآخر حين يمثل أمامك جميع التماثيل التى صورتها ويقول لك الله : « هاهى قد أتت تشكو من أنها خلقت ومع ذلك لم تستطع أن تعيش . لقد خلقت لها جسدا فاخلق لها اليوم روحا » . فقال الانجليزى : « سوف أرد عليه قائلا : « أما عن خلق الارواح يامولاى وإلهى فان قدرتك على ذلك تجعلنى لا أسمح لنفسى بأن أنافسك ... أما اذا كانت هذه التماثيل تبدو لك جديرة بالحياة فامنحنى فضل بث الروح فيها » .

ووجد العربى هذه الاجابة مرضية ، أو على الاقل لم يجد مايرد به عليها . وبدت لى فكرة الرسام الانجليزى حاذقة للغاية ، ولو كان الله يريد حقيقة فى يوم الحساب الاخير أن يمنح الحياة لجميع الصور التى رسمها أو نحتها كبار الرسامين أو المثالين لعمر العالم من جديد بطائفة كبيرة من المخلوقات الرائعة الجديرة بالحياة فى أورشليم الجديدة التى تنبأ بها الرسول القديس يوحنا .

ومما تجدر ملاحظته أن الأتراك قد أولوا الآثار الفنية فى الأماكن التى خضعت لنفوذهم أكثر مما يعتقد من الاحترام . وبفضل تسامحهم واحترامهم للآثار احتفظ بطائفة كبيرة من التماثيل الاشورية والاغريقية والرومانية مما كان لابد لتطاحن الاديان المختلفة من أن يحطمها عبر الأجيال . ومهما قيل فى هذا الصدد فان تحطيم التماثيل لم يحدث الا فى عصور التعصب الاولى حينما كان ثمة شك فى أن تجعلها بعض الشعوب موضع عقيدة دينية . أما اليوم فان أكبر دليل على تسامح الاتراك فى هذا السبيل يتمثل في وجود مسلة قائمة وسط ميدان « أتميدان » فى مواجهة مسجد السلطان سليم ، وقد غطيت قاعدتها برسوم بيزنطية بارزة نتبين فيها أكثر من ستين رسما احتفظ بها سليمة تماما . وقد يكون من العسير مع ذلك أن نذكر تماثيل أخرى تصور مخلوقات حية احتفظ بها فى القسطنطينية فيما خلا تلك التى تضمها الكنائس الكاثوليكية . وتحت قبة آيا صوفيا غطيت تماثيل الرسل المصنوعة من الموزايكو بطبقة من الطلاء صورت عليها الكتابات العربية والزهور . أما تمثال السيدة العذراء فقد غطى بغطاء . وفى كنيسة الأربعين شهيدا التى تقع بالقرب من قناة فالنس فقد احتفظ بالتماثيل والصور المصنوعة من الموزايكو رغم أن البناء قد تحول الى مسجد .

ولكى نتهى من الحديث عن الرسوم والتماثيل المعروضة للجمهور

استطيع أن أذكر كذلك احد الملاهى ، ويقع فى طرف فى حى « بيرا » ، على جانب طريق يفصل هذا الحى عن قرية سان ديمترى . ويتكون هذا الطريق من خورينساب فى أعماقه جدول يتحول فى الأيام العاصفة الى نهر . وهذا الموقع يعتبر من أروع المناظر بفضل الافق المتغير ذى التلال التى تمتد من الجبانة الى الساحل الاوروبى للبسفور . وتبدو المنازل المطلية المختلطة بالخضرة والتى تحول معظمها الى ملاه ومقاه ، تبدو بالمئات فوق قمم المرتفعات ومنحدراتها . وتسارع الجموع بزيناتهم المبرقشة حول منشئات حى الملاهى الاسلامى هذا . ويصم بائعو الحلوى وبائعو الفاكهة والبطيخ الاسماع بصيحاتهم الغريبة . فتسمع اليونانيين ينادون على العنب بعشر بارات (البارة أقل قليلا من الصولدى) ؛ ثم انك لتجد أهراما من كيزان الأذرة المسلوقة فى ماء مضاف اليه الكركم . ولندخل الآن الى الملهى : ان داخله فسيح جدا . وثمة أروقة عالية ذات درابزين من الخشب تحيط بالقاعة الكبيرة . ويوجد الى اليمين عداد صاحب الملهى الذى انهمك دون كلل أو ملل فى صب نبيذ جزيرة « تينيد » فى الأكواب البيضاء ذات الآذان حيث ينسكب المشروب العنبرى كحبات اللؤلؤ . وفي الداخل توجد أفران الطاهى وقد غصت بطائفة كبيرة من المتبلات . ويجلس الناس للعشاء على كراس صغيرة بلا ظهر أمام موائد مستديرة لا ترتفع الا بقدر ارتفاع الركبة . ويجلس الشاربون العاديون بالقرب من الباب أو على المقاعد التى تحيط بالقاعة . وهنا يظهر اليونانى ذو الطربوش الاحمر والأرمينى ذو الثوب الطويل و «الكلبك» الأسود واليهودى ذو العمامة الرمادية تحررهم التام من تعاليم محمد . ومما يكمل هذه اللوحة الزينات المحلية التى كنت أريد التحدث عنها والتى تتكون من طائفة من الصور المرسومة فى لوحات كبيرة على حائط الملهى . انها تمثل نزهة محبوبة ترجع ، لو صدقنا التقاليد ، الى نهاية القرن الماضى . وفيها نرى نحو عشرين شخصا ذوى أحجام عادية يرتدون ملابس الشعوب المختلفة التى تسكن القسطنطينية . وفيهم نرى أحد الفرنسيين فى ملابس حكومة الديركتوار (١) مما يعتبر تأريخا دقيقا للوقت الذى رسمت فيه اللوحة. وقد احتفظت الألوان برونقها تماما ويعتبر التنفيذ فيها مرضيا جدا بالنسبة للوحة بيزنطية محدثة . وهناك تفصيل ساخر تعبر عنه اللوحة

---

(١) حكومة فى فرنسا حكمت ابتداء من الخامس من بردمير من السنة الرابعة الموافق ٢٧ اكتوبر سنة ١٧٩٥ ، وقد قلبها الجنرال بونابارت فى ١٨ بروميز (٩ نوفمبر ١٧٩٩) من السنة الثامنة .

يبين ان رسامها ليس أوربيا ، ذلك أننا نرى فيها كلبا يرفع قدمه ليفسد الجوارب متعددة الالوان التى يرتديها ذلك الفرنسى المسرف فى التأنق ويحاول هذا عبثا ابعاده بعصاته . تلك فى الحقيقة هى اللوحة الوحيدة التى تصور أشخاصا وتعرض علنا والتى اسـتطعت اكتشـافها فى القسطنطينية . وهكذا نرى أنه ليس من العسير على الفنان أن يضع فنه فى خدمة أصحاب الملاهى كما كان يفعل الفنان لنتارا .ولا يبقى لى الا أن اعتذر لطول هذه المذكرة التى يمكن اسـتخدامها على الأقل فى تحطيم اعتقادين أوربيين خاطئين وذلك بالبرهنة على أن الصور والملاهى موجودة فى البلاد التركية . وكثير من فنانينا يعيشون حياة طيبه فى تلك البلاد بعمل الرسوم المقدسة للأرمن واليونانيين .

٣ ـ رسالة عمرو

ان قصة الخليفة الحاكم كانت ذريعة اتخذها الكاتب لاتمام وصف القاهرة الحديثة بوصف للقاهرة القديمة المفعمة بذكريات أجمل العصور التاريخية .

وثمة وثيقة لا ينبغى نسيانها اذ أنها من أولى الوثائق التى تعطينا فكرة أولى عن مصر بعد تحويلها الى بلد اسلامى ، ألا وهى خطاب خطى كتبه عمرو بن العاص الى الخليفة عمر الذى كان يطلب منه تفصيلات عن الغزو الجديد :

« من عبد الله عمرو بن العاص الى خليفة رسول الله عليه سلام الله ورحمته ورضوانه عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الخليفة الذى يتبع الهدى والسراط المستقيم أما بعد فقد تلقيت رسالته وقرأتها وفهمت مقصده . ولذا فانى أود أن أمحو من فكره سحابة عدم الثقة بحديثى الصادق ان الله هو الذى يمنحنا القوة والجهد واليه يرجع كل شىء . لتعلم يا أمير المؤمنين أن بلاد مصر تختلف عن تلك الاراضى السوداء والنباتات الخضراء بين الجبل المغبر والرمال الحمراء . وبين جبل تلك البلاد ورمالها توجد سهول قد ارتفعت وأكمات قد انخفضت . ويحيط بها سفح يمنحها ما تعيش منه ويحتاج من الفارس الذى يمتطى صهوة جواده شهرا من الزمان لكى يجوبه من أسوان الى نهاية الارض وعلى شاطىء البحر . أما فى وسط البلاد فيهبط نهر مبارك فى الصباح وتختصه السماء ببركتها في المساء . وهو ينساب بين الزيادة والنقصان طبقا لدورتى الشمس والقمر . وله موسمه الذى تتفتح له فيه عيون الارض وينابيعها بأمر خالقه الذى يسيطر على مجراه ويحفظه ليمنح الحياة لتلك الولاية . وهو يجرى حسب ما هو مقدر له حتى تنتفخ

جوانبه بالمياه وتدور أمواجه فى صخب وحينما تبلغ مياهه أقصى ارتفاعها لا يستطيع أهل البلد التنقل من قرية الى أخرى الا فى قوارب صغيرة . وحينئذ نرى القوارب غير ذات الشراع تروح وتجيء على صفحته وتبدو للمخيلة وكأنها جمال سوداء وبيضاء وما أن يصبح النهر فى هذه الحال حتى يبدأ يتراجع وينحسر فى مجراه كما خرج منه من قبل وارتفع شيئا فشيئا . وحينئذ يستعد أكثر الناس نشاطا وأشدهم كسلا على السواء للعمل فينتشرون فى البلاد فى فرق وجماعات سواء كذلك منهم رجال القانون الذين يحفظهم الله أو الموالين لنا الذين يتولى الناس حمايتهم . وتراهم يسيرون كالنمل بعضهم ضعاف وبعضهم أقوياء ينهكهم العمل الذى أمروا بانجازه . وتراهم يشقون الأرض وما ارتوى منها وينثرون فيها جميع أنواع الحبوب التى يريدون الاكثار منها بعون الله . ولا تلبث الأرض بعد أن يسود سمادها أن تكتسى بحلة خضراء وتنشر عبيرا لطيفا ما دامت تنتج السيقان والاوراق والسنابل وتبدو ذات منظر بهيج وتمنح الآمال الجميلة ويرويها الندى من أعلى وتغذى الرطوبة محاصيلها من أسفل .

وتمر أحيانا بعض السحب محملة بأمطار ضعيفة ولا تسقط أحيانا الا بعض قطرات من الماء أو لا تسقط اطلاقا .

وبعد ذلك يا أمير المؤمنين تتخذ الارض رونقها وتعرض جمالها باعثة السعادة فى نفوس سكانها وتطمئنهم على محاصيل ثمارها من أجل غذائهم وغذاء دوابهم وتصديرها الى خارج البلاد والاكثار من نتاج ماشيتهم . وهى تبدو اليوم يا أمير المؤمنين كأرض مغبرة ثم لا تلبث أن تبدو كبحر أزرق أو كلؤلؤة بيضاء ثم كالطمى الاسود ثم كالديباج الاخضر ثم كوشى متعدد الالوان ثم كمذاب التبر الاحمر . وحينئذ يحصد قمحها (برها) ويضرب لاستخراج الحب الذى يمر بعدة مراحل بين أيدى الناس فيأخذ بعضهم ماله منه وبعضهم ماليس له . وتعود هذه الأحداث كل عام كل شيء فى وقته وموسمه تبعا لقدرة الله القدير . والحمد لله سبحانه وتعالى أبدا وهو أشرف الخالقين . أما عما يلزم لانجاز هذه الاعمال مما يزيد الحرث والنسل والحفاظ عليها وتنميتها حسب ما ذكره له ذوو العلم الذين مارسوا الحكم فى أيديهم فقد لاحظنا بصفة خاصة ثلاثة أمور أولها الا نتقبل ما تقوله الغوغاء عن أعيان البلد لانهم ذو حسد وجحود بالنعمة التى قدمت لهم . وثانيها أن نستخدم

ثلث الجزية التى تجبى فى العناية بالطرق والقناطر ، وثالثها ألا تجبى الجزية من مال من الأموال أو على المـال نفسه الا اذا كان فى أحســن صورة (١) .

هذا هو وصف مصر يا أمير المؤمنين ومنه تستطيع أن تعرفها كما لو كنت تراها بنفسك . ليحفظك الله ويهديك سواء السبيل وليؤيدك ويعينك على حكم بلادك ويعينك على تحمل التبعات التى القاها عليك . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته والحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وأبناء أمته والمؤيدين له .

---

(١) يقول المؤلف في الهامش أن تلك جملة غامضة ويقول .
ان الجملة التى نجدها فى النص الذى ذكره الرحالة الفرنسى سونتى تقول :
«وثالثها الا تجبى الجزية الا على المحاصيل أى على ماتنتج الارض من ثمار » .

٣ - ديانة الدروز (١)

س - هل أنت درزى ؟

ج - نعم بعون مولانا القوى القدير ٠

س - ومن هو الدرزى ؟

ج - هو الذى كتب الشريعة وعبد الخالق ٠

س - وما الذى أمركم به الخالق ؟

ج - الصدق واتباع دينه واتباع الشروط السبعة ٠

س - وما هى الواجبات الصعبة التى أعفتكم ديانتكم منها وألغتها وكيف تعرف أنك درزى حق ؟

ج - بأن أبتعد عن كل ماهو محرم وآتى كل ماهو حلال ٠

س - وما هو الحلال وماهو الحرام ؟

ج - الحلال هو كل ماينتمى الى الدين والزراعة ٠ والحرام هو كل مايتعلق بالمراكز المؤقتة والردة ٠

س - متى وكيف ظهر مولانا القوى القدير ؟

ج - فى السنة الأربعمائة من هجرة محمد ٠ وقد ذكر حينئذ بأنه من نسل محمد ليخفى ألوهيته ٠

---

(١) حديث المؤلف عن الدروز فيه تشويه كثير والمقصود بالمسيحية هنا شيء آخر غير المسيحية ، فان الحديث يجرى على أن المسيح عند الدروز هو سلمان الفارسى ٠
(الفاحص)

س ــ ولماذا كان يريد اخفاء ألوهيته •

ج ــ لأن ديانته أهملت وقل عدد من يعبدونه •

س ــ ومتى ظهر معلنا ألوهيته ؟

ج ــ فى عام ٤٠٨ •

س ــ وكم من الوقت ظل هكذا ؟

ج ــ طوال عام ٤٠٨ ثم اختفى فى عام ٤٠٩ لأنهـا كانت سنة مشئومة • ثم عاد فظهر فى بداية عام ٤١٠ واستمر طوال عام ٤١١ • وأخيرا فى بداية عـام ٤١٢ اختفى عن الأنظار ولن يعـود الا فى يوم الحساب •

س ــ وماهو يوم الحساب ؟

ج ــ هو اليوم الذى يظهر فيه الخالق بوجه انسان ويحكم العالم بقوة السيف •

س ــ ومتى يحدث هذا ؟

ج ــ ذلك أمر غير معروف ولكن ستكون هناك علامات تنبىء عنه •

س ــ وماذا ستكون هذه العلامات ؟

ح ــ حينمـا يرى النـاس الملوك يتغيرون ويتغلب المسـيحيون على المسلمين •

س ــ وفى أى شهر يحدث هذا ؟

ج ــ فى شهر جماد أو شهر رجب حسب التقويم الهجرى •

س ــ وكيف يحكم الله الشعوب والملوك ؟

ج ــ سوف يظهر بقوة السيف وينتزع منهم الحياة جميعا •

س ــ وماذا يحدث بعد موتهم ؟

ج ــ سوف يولدون من جديد بأمر القوى القدير الذى سـوف يوجه اليهم ماشاء من أوامر •

س ــ وكيف ستكون معاملته لهم ؟

سـوف يقسمون الى أربعـة أقسـام هى : المسيحيون ، اليهود ، المرتدون وعباد الله المخلصون •

س ـ وكيف تنقسم هذه المذاهب المختلفة ؟

ج ـ سوف ينشيء المسيحيون الديانة النصرانية والمتولية ، وينسلخ الأتراك من اليهود • أما المرتدون فهم الذين تخلوا عن الايمان بالهنا •

س ـ اية معاملة سوف يوجهها الله لعباد وحدته ؟

ج ـ سوف يمنحهم الحكم والملك والسيادة والخيرات والذهب والفضة وسوف يظلون فى هذا العالم أمراء وباشوات وسلاطين •

س ـ والمرتدون ؟

ج ـ سوف يكون عقابهم رهيبا • سوف يحل فى طعامهم فحينما يرغبون فى الأكل أو الشرب سيجدون طعامهم مرا • كما أن العبودية ستضرب عليهم كما ستضرب عليهم المشقة والجهد لدى عباد الله الحقيقيين وسوف يسام المسيحيون واليهود هذا العذاب نفسه ولكن فى صورة أخف من ذلك كثيرا •

س ـ كم مرة ظهر الهنا ومولانا فى صورة بشرية ؟

ج ـ عشر مرات تسمى محطات والأسماء التى حملها على التوالى هى : العلى ، البار ، العلياء ، المعلى القائم ، المعز ، العزيز ، أبو زكريا ، المنصور ، الحاكم •

س ـ وفى أى مكان كانت المحطة الأولى ، محطة العلى ؟

ج ـ فى مدينة من مدن الهند تسمى رشين ـ ما ـ تشين •

س ـ كم مرة ظهر حمزة وكيف كان يسمى فى كل مرة ظهر فيها ؟

ج ـ لقد ظهر سبع مرات فى القرون المنصرمة منذ آدم حتى النبى محمد ؟ • وقد كان يسمى شاتنيل فى عصر آدم ، وفى زمن نوح كان يدعى فيثاغورس • وكان داود هو الاسم الذى لقب به فى زمن ابراهيم • وفى أيام موسى سمى شعيب وفى عصر عيسى سمى بالمسيح الحقيقى وكذلك بعازر • أما فى عصر محمد فقد كان اسمه سلمان الفارسى وفى زمن السيد زيد كان اسمه صالح •

---

(١) لعله زيد بن ثابت من صحابة النبى وأول من خط القرآن الكريم أو زيد بن على فى القرن التالى للهجرة وهو الذى حمل المذهب الزيدى اسمه • هكذا يقول الكاتب •

س ــ أخبرني عن أصل كلمة درزى •

ج ــ ان هذا الاسم مقتبس من طاعتنا للحاكم بأمر الله ، وهذا الحاكم هو سيدنا محمد بن اسماعيل الذى يظهر هو نفسه بنفسه ولنفسه• ولما ظهر دخل الدروز بأمره فى طاعته وهذا ماجعـل هذا الاسم يطلق عليهم • ذلك لأن الكلمة العربية « اندراز أو اندراج » هى نفس كلمة « درها » التى تعنى الدخول • ومعنى هذا أن الدرزى قد كتب الشريعة وتشسم بها ودخل فى طاعة الحاكم • وفى مقدورنا أن نجد أصلا آخر لتلك الكلمة بأن نكتب كلمة دروز بحيث تنتهى بحـرف السين « دروس » وحينئذ تكون مشتقة من درس يدرس ، ومعنى هذا أن الدرزى قد درس كتب حمزة وعبد القدير القهار كما ينبغى له أن يفعل •

س ــ وما هو قصدنا من عبادة الانجيل ؟

ج ــ لتعلم أن غرضنا من هذا هو تكريم اسم القائم بأمر الله وهو حمزة لأنه هو الذى نطق بالانجيل • وفوق ذلك فمن الملائم ، أمام كل أمة أن نعترف بديانتها • وأخيرا فاننـا نعبد الانجيل لأن هذا الكتاب يرتكز على الحكمة الالهية ويحتوى على الدلائل الحقة على الدين الحق •

س ــ ولماذا نكفر بكل كتاب آخر عدا القرآن حينما توجه الينا الأسئلة فى هذا الموضوع ؟

ج ــ لأننا فى حاجة الى ألا نعرف على حقيقتنا وذلك حين ندخل فى زمرة أصحاب المذاهب الاسـلامية • ولذلك فمن الملائم أن نعترف بكتاب محمد • وحتى لا يساء الظن تبنينا جميع الشـعائر الاسـلامية حتى شعائر الصلاة على الموتى ، كل هذا فى ظاهر الأمر فقط وحتى يظل الناس يجهلون حقيقتنا •

س ــ وماذا نقول عن هؤلاء الشهداء الذين يسرف المسيحيون فى تقريظ شجاعتهم واقدامهم وعددهم الكبير ؟

ج ــ نقول ان حمزة لم يعترف بهم أبدا مهما صدقهم وشهد بهم المؤرخون •

س ــ ولكن اذا أتى المسيحيون وقالوا لنا ان ديانتهم ليست موضع شك لأنها تستند الى براهين وحجج مباشرة أقوى من أقوال حمزة فكيف نرد عليهم ، وكيف اعترفنا بأن حمزة لا يخطىء وهى الفكرة التى تعتبر عماد الحقيقة التي ينبعث منها سلامنا •

ج ـ بالشهادة التى أدلى بها هو نفسه عن نفسه حينما قال فى رسالة القيـــادة والدفاع : « اننى أول مخلوقات الله وأنا أملك صوته وفوته · وأملك العلم بأمره ، أنا البرج والبيت المشيد ، أنا سيد الموت والبعث ، أنا الذى سوف أنفخ فى الصور وأنا الرئيس العام للدين وسيد العفو مقيم العدالة وهادمها · أنا ملك العالم ومحطم الشهادتين · أنا النار التى نلتهم كل شىء » ·

س ـ وماهو الدين الحق لرجال الدين الدروز ؟

ج ـ انه صورة مضادة لكل عقيدة من عقائد الأمم أو القبائل الأخرى ، وكل ما هو محرم لدى الآخرين نؤمن نحن به كما ذكر فى رسالة الخيانة والنذير ·

س ـ ولكن اذا ماعرف أحد الناس ديننا المقدس وآمن به وسار على هديه فهل ينقذ ؟

ج ـ أبدا ، ان الباب مغلق ، لقد قضى الأمر وجف القلم · وبعد موته تذهب روحه للحاق بأمته الأولى ودينه الأول ·

س ـ ومتى خلقت جميع الأرواح ؟

ج ـ لقد خلقت بعد حمزة بن على · فقد خلق الله بعده من النور جميع العقول المعدودة التى لن يقل عددها ولن يزيد الى آخر الدهر ·

س ـ وهل يمنح ديننا السلام للنساء ؟

ج ـ بلاشك لأن مولانا وسيدنا قد كتب فصلا عن النساء ، ولقد أطعنه على الفور كما هو مذكور فى رسالة قانون النساء وكذلك فى رسالة الفتيات ·

س ـ وماذا نقول عن باقى الأمم التى تؤكد أنها تعبد الله خالق السماوات والارض ؟

ج ـ مهما قالت ذلك فهو خطأ · ومهما عبدته فعلا فان عبادتها تعتبر كفرا مادامت لا تعرف أن الله هو الحاكم ·

س ـ ومن هم القدامى الذين بشروا بالحكمة الالهية هؤلاء الذين انشئوا ديانتنا ؟

ج ـ انهم ثلاثة هم حمزة واسماعيل وبهاء الدين ·

س ـ والى كم جزء ينقسم العلم ·

ج ـ الى خمسة أجزاء ينتمى جزءان منها الى الدين وجزءان آخران الى الطبيعة ٠ أما الجزء الخامس وهو أكبرها جميعا فهو لا يقسم أبدا ٠ وهو العلم الحق أى علم الحب الالهى ٠

س ـ كيف نعرف أن شخصا ما هو أخونا ويتبع الدين الحق اذا صادفناه فى الطريق أو اقترب منا وهو يمر بنا وذكر لنا أنه درزى ؟

ج ـ تعرفه هكذا : بعد المجاملات المعتادة نقول له : هل يزرعون فى بلادكم حبة الأهليلج (١) فاذا أجاب : « نعم ، انهم يزرعونها فى قلوب المؤمنين » نأخذ حينئذ فى سؤاله عن ديننا ، فاذا أجاب اجابات صحيحة فهو من مواطنينا والا فهو لا يعدو أن يكون شخصا غريبا ٠

س ـ ومن هم آباء ديننا ؟

ج ـ انهم أنبياء الحاكم أى حمزة واسماعيل ومحمد وأبو الخير وبهاء الدين ٠

س ـ وهل يحصل الجهلاء من الدروز على السلام وعلى عمل الى جوار الحاكم حينما يموتون على جهالتهم ؟

ج ـ لا سلام لهم وسوف تضرب عليهم المهانة والعبودية فى رحاب مولانا وسيدنا الى أبد الآبدين ٠

س ـ ومن هو دوماسة ؟

ج ـ انه آدم الأول ، انه آرخنـــورا وهرمس وادريس ويوحنا واسماعيل بن محمد التيمى ٠ وفى زمن محمد بن عبد الله كان يسمى بالمختار ٠

س ـ ومن هو العتيق والخالد ؟

ج ـ العتيق هو حمزة والخالد هو الروح قرينه ٠

س ـ وماهى أقدام الحكمة ؟

ج انهم المبشرون الثلاثة ٠

س ـ ومن هم ؟

ج ـ يوحنا ومرقس ومتى ٠

---

(١) ثمرة من ثمار الهند كانت تستخدم كثيرا فيما مضى فى تحضير الدواء ٠

س ـ وكم مرة قاموا فيها بالتبشير ؟

ج ـ احدى وعشرين سنة • وقد بشر كل منهم سبع سنوات •

س ـ وما هى هذه المنشآت القـــائمة فى مصر والتى يسمونها الأهرام ؟

ج ـ لقد شيدها القوى القدير وهو يرمى بذلك الى بلوغ هدف ملىء بالحكمة تصوره فى قدرته الالهية •

س ـ وماهو هذا الهدف الملىء بالحكمة ؟

ج ـ هو أن يضع فيها الحجج والصكوك التى تناولتها يده المقدسة من جميع المخلوقات ويحفظها •

س ـ ولأى سبب ظهر لدى كل شريعة جديدة ؟

ج ـ لتحفيز المؤمنين لدينه الحـق حتى يزدادوا ثبـاتا على دينهم ويعلموا أنه هو الذى يغير العدالات بارادته وحتى لا يؤمنوا بأحد غيره •

س ـ وكيف تعود الأرواح الى أجسادهم ؟

ج ـ فى كل مرة يموت فيها شخص يولد شخص آخر وهكذا تكون العالم •

س ـ وكيف يسمى المسلمون ؟

ج ـ التنزيل •

س ـ والمسيحيون ؟

ج ـ التأويل • وهذان الاسمان يعنيان بالنسبة لهؤلاء المسيحيين أنهم فسروا قول الانجيل ، ويعنى بالنسبة للمسلمين القول الشائع بأن القرآن تنزيل من السماء •

س ـ وماذا كانت ارادة الله حين خلق الجن والملائكة الذين تحدث عنهم كتاب حكمة حمزة ؟

ج ـ الجن والأشباح مثلهم مثل من لم يستجب لدعوة سيدنا ومولانا الحاكم من البشر • والعفاريت هم أشباح بالنسبة لمن لهم جسد • أما الملائكة فينبغى أن نرى منهم من يمثلون المؤمنين الحقيقيين بالله الذين لبوا دعوة الحاكم وهو الاله الذى عبد فى جميع ثورات العمر •

س ـ وماهي ثورات العمر ؟

ج ـ انها العدالات التى بشر بها الأنبياء الذين ظهروا على التوالى والذين اعترف بهم الناس فى أزمانهم مثل آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد والسيد • كل هؤلاء الأنبياء ليسوا الا روحا واحدا انتقل من جسد الى آخر ، وهذا الروح وهو العفريت اللعين الحارس ، روح بن طرماح ، وهو كذلك روح آدم العاصى الذى طرده الله من جنته أى الذى انتزع الله منه معرفته بوحدته •

س ـ وماذا كانت وظيفة العفريت لدى سيدنا ومولانا ؟

ج ـ لقد كانت وظيفة عزيزة لديه • ولكن أوداجه انتفخت بالغرور ورفض اطاعة الوزير حمزة • وحينئذ لعنه الله وطرده من الجنة •

س ـ ومن هم رؤساء الملائكة الذين يحملون عرش مولانا وسيدنا ؟

ج ـ انهم الخمسة أصحاب الولاية الذين يطلقون عليهم أسماء جبريل وهو حمزة وميكائيل وهو الأخ الثانى واسرافيل وهو سلامة بن عبد الوهاب وعزرائيل بهاء الدين وميتاترون على بن أحمد • وهم الوزراء الخمسة الذين يسمى الواحد منهم السابق والثانى والجسد والفتح والفارس •

س ـ ومن هم النساء الأربع ؟

ج ـ انهن يدعين : اسماعيل ومحمد وسلامة وعلى وهن : الكلمة والنفس وبهاء الدين وأم الخير •

س ـ وماهو انجيل المسيحيين وماذا نقول عنه ؟

ج ـ لقد صدر الانجيل حقا عن لسان • الهنا المسيح الذى كان يدعى سلمان الفارسى فى زمن محمد ، وهذا المسيح هو حمزة بن على • أما المسيح الدجال فهو الذى ولدته مريم اذ أنه ابن يوسف •

س ـ وأين كان المسيح الحقيقى حينما كان المسيح الدجال مع حوارييه ؟

ج ـ لقد كان فى عداد هؤلاء الحواريين • كان يبشر بالانجيل ويعطى التعليمات الى المسيح ، ابن يوسف ويقول له : «افعل كذا وكيت» طبقا للدين المسيحى ، وكان ابن يوسف يطيعه • ومع ذلك فقد شعر اليهود بالكراهة ضد المسيح الدجال وصلبوه •

س ــ وماذا حدث بعد صلبه ؟

ج ــ لقد وضعوه فى قبر من القبور • وأتى المسيح الحقيقى وسرق الجثمان من القبر وأخفاه فى الحديقة ثم أشاع خبر أن المسيح قد بعث حيا •

س ــ ولماذا تصرف المسيح الحقيقى هذا التصرف ؟

ج ــ لكى يساعد الدين المسيحى على البقـــاء ويمنحه مزيدا من القوة •

س ــ ولماذا شجع المسيح كذلك البدع ؟

ج ــ حتى يستطيع الدروز أن يتشحوا بغطاء ما مشتق من الدين المسيحى فلا يقول أحد عنهم أنهم دروز •

س ــ ومن هو ذلك الذى خرج من القـــبر ودخل لدى الحواريين حينما كانت النوافذ مغلقة ؟

ج ــ انه المسيح الحى الذى لا يموت أبدا ، ألا وهو حمزة •

س ــ ولماذا لم يعتنق المسيحيون الديانة الدرزية ؟

ج ــ لأن الله أراد ذلك •

س ــ ولكن كيف يرضى الله عن الشر والالحاد ؟

ج ــ لأن عادته الدائمة هى خداع البعض واظهاره عقول البعض الآخر كما قال فى القرآن : « يعطى الحكمة لمن يشاء ويأخذ الحكمة ممن يشاء » •

س ــ ولماذا أمرنا حمـــزة بن على باخفاء الحكمة وعـدم الكشف عنها ؟

ج ــ لأنهـا تحوى أسرار الهـــنا وقدراته ولا ينبغى أن نكشف للناس عن أشياء يتوقف عليها سلام النفوس وحياة العقول •

س ــ نحن اذن أنانيون اذا كنا لا نريد انقاذ الناس جميعا •

ج ــ ليس ثمة أنانية فى ذلك • ذلك لأن الدعوة قد حذفت وأغلق الباب • وليلحد من يلحد ويؤمن من يؤمن وستظل الأمور كما ينبغى لها أن تكون •

والصوم الذى كان مفروضا من قديم الزمان قد ألغى اليوم . ولكن اذا صام شخص فى غير الزمن المخصص للصوم وعذب نفسه بالصيام فان ذلك أمر مشكور لأنه يقربنا من الله .

س ــ ولماذا ألغيت الصدقة ؟

ج ــ ان الصدقة لدينـــا بالنسبة لاخواننا الدروز مشروعة . ولكنها جريمة بالنسبة لمن عداهم ولا ينبغى تقديمها .

س ــ وما هو هدف النساك الذين يعذبون أنفسهم ؟

ج ــ ان الغرض من وراء ذلك هو أن يقلد الحاكم ، حين يبعث ، كلا منا منصب الوزير أو الباشا أو الحاكم .

٤ ـ اسطورة سليمان

لا ينبغى للقارىء أن يدهش من الاتجــاه الفلسفى لهذه القصة أو لاتسامها بأسلوب فولتير الساخر • فهذا هو الروح الذى تتسم به معظم القصص العربية والفارسية • بل كثيرا ما تؤخذ الأمور الخارقة للعقل على محمل الجد • ولذا فاننا نجد فى الشام آثارا عديدة لديانة أبناء قابيل • وكذلك فان التراث العربى كثيرا ماندد بغرور الملك سليمان وضعف تقواه فى الفترة الأخيرة من حكمه • ومن العبث أن نضيف أن بعض أجزاء تاريخ التوراة تتخذ آفاقا جديدة حينما تتخللها الروح العربية وربما كان من العسير على الأوربيين ادراك مايقصده الشرقيون من الأجناس قبل البشرية نهم يفترضون أن الأرض قبل أن يسكنها الانسان كانت تسكنها طيلة سبعين ألف عام أجناس أربعــة خلقت أول ماخلفت كما يقول القرآن من « مادة راقية رقيقة ومضيئة » (١) •

وهذه الأجناس هى المردة والشياطين والجن والعفاريت التى تنتمى أصلا الى العناصر الأربعة مثلها فى ذلك مثل جنيات الماء والأقزام المشوهين وجن الهواء والسمندل فى أساطير شعوب الشمال • وثمة عدد كبير من المقطوعات الشــــعرية والفارسية تحكى القصة المفصلة للأجيـــال قبل الآدمية •

وبعد أن ترك الله هذه الشعوب البدائية تشغل الكرة الأرضية طيلة اثنى عشر ألف عام ، وبعد أن تعب من مشهد الحروب التى تنشب بينهم وما يشب بينهم من حب ومن الانتاج الواهى لذكائهم أراد أن يخلق جنا جديدا أكثر ارتباطا بالأرض ويحسن تحقيق التزاوج الصعب بين المادة

---

(١) ليست تلك آية من القرآن وانما ترجمة للاصل •

والعقل أكثر من سابقيه . ولذلك فقد قيل « لقد خلق آدم من تراب رملى ومن طين أما الجن فقد خلقوا وصورناهم من نار حمئة .

ولذا فقد أعد الخالق قالبا يتكون أساسا من الرمل الناعم أصبح لونه اسما لآدم (١) ، ولما جف التمثال عرضه على الملائكة والجن حتى يقول كل منهم رأيه فيه . وأتى ابليس ، الذى كان يسمى فيما مضى عزازيل ، وهو مايعرفه المسيحيون باسم الشيطان ، ولمس التمثال وضربه على بطنه وعلى صدره ولاحظ أنه أجوف . فقال ان هذا المخلوق الأجوف سوف يتعرض للامتلاء وسوف يجد الاغراء الكثير من السبل للدخول فيه . ومع ذلك فقد نفخ الله الحياة فى منخرى الرجل ومنحه ليليت الشهيرة لتكون رفيقة له ، وهى من جنس الجن . ولكنها اتبعت نصائح ابليس وخانت زوجها فيما بعد وقطعت رأسها .

ولما أدرك الاله أنه أخطأ بمزج طبيعتين مختلفتين قرر فى هذه المرة أن يخلق المرأة من نفس كيان الرجل . فأغرقه فى نوم عميق وأخذ يستخرج أحد أضلاعه كما هو مذكور فى قصتنا .

وهنا ثمة قصة طريفة تستحق الذكر . فبينما كان الاله منهمكا فى رتق الجرح أبعد عينيه لحظة عن الضلع الثمين الذى كان موضوعا على الأرض بجواره . وهنا أتى قرد أرسله ابليس والتقطه بسرعة واختفى فى أعماق غابة مجاورة . ولما تضايق الاله من هذا التعدى أمر أحد ملائكته بمتابعة هذا الحيوان . وتوغل القرد وسط الأغصان التى كانت تزداد كثافة . وتوصل الملك الى الامساك به من ذيله الا أنه لم يجد فى يده الا الذيل وكان هذا هو كل ماعاد به الى سيده وسط الضحكات العالية التى كان يطلقها الجمع . ونظر الخالق الى هذا الشىء بشىء من الضيق وقال : « حسن ، مادمنا لا نملك شيئا غيره سوف نحاول العمل رغم كل شىء » . ثم حول ذيل القرد الى مخلوق جميل من الظاهر ولكنه من الداخل ملىء باللؤم والخسة ، وربما كان الدافع الذى دفعه الى ذلك هو غرور الفنان .

هل نجد أن هذه القصة لا تعدو أن تكون قصة بدائية ساذجة أو نرى فيها أثرا لنوع من السخرية الفلسفية ليس غريبا على الشرق ؟ (٢)

---

(١) يقصد المؤلف أن كلمة آدم تعنى الاحمر .
(٢) انها سخرية فولتير .

ربما كان من الأوفق ، لكى نفهمها ، أن نرجع الى عصـــور الكفاح الدينى الأولى من أجل وحدانية الله التى أعلنت ســـقوط المرأة بسبب كراهيتها لمذهب التعدد الالهى لدى السوريين حيث كانت المرأة تسيطر تحت أسماء أستارتية ودير سيتو وميليتا • كانوا يرجعون المصدر الاول للشر والخطيئة الى أبعد من حواء ذاتها الى هؤلاء الذين كانوا يرفضون فكرة الاله الواحد الأبدى ، وكانوا يتحدثون عن جرعة ارتكبتها تلك الزوجة المقدسة العتيدة استحقت من أجلها عذابا ارتعد له العالم فرقا وحرم على أى ملك أو مخلوق أرضى أن ينطق باسمها الى الأبد • ولم تحتو الظلمات الأولى التى كانت تحيط بتكوين الكون ماهو أشـد هولا من غضب الاله الخالد هذا الذى قضى حتى على ذكرى أم العالم العتيدة •

وتمتلىء آلاف من الأساطير العربية بهذه التصورات الغريبة التى نصت على طائفة كبيرة من الخرفات والبدع رقصة آدم وحواء هى قصــة طويلة للمعارك التى خاضها أول رجل فى العالم ضد جنس الجن الذين كانوا ينافسونه على ملك الارض •

وقد هزم آدم آخر أباطرتهم مما دفع هذا الجنس الذى سبق الآدمية كله الى الخضوع التام •

ونجد فى رواق من أروقة جبل قاف (١) صور السبعين امبراطورا (أو السبعين سليمان) الذين حكموا قبل خلق الانسان • وأكثر هؤلاء الأباطرة ايغالا فى القدم مشوهو الخلقة ويرتبطون بمختلف الأجناس الحيوانية ببعض الصلات • ومن المحتمل أن يكون العرب قد استمدوا فكرة هذه المخلوقات الأســطورية من مشـــاهد الآلهة الهنود والأشوريين والمصريين • ويمكننـا أن نرجع فى جميع هذه النقـــاط الى كتاب المملكة الشرقية لهربلو •

ويلاحظ مؤلف كتاب ظهر فى هذا الوقت (١٨٥١) عن تركيا ، ويدعى مسيو أوبيسينى ، يلاحظ بحق أنه رغم اختراع السفن البخارية ورغم تقدم علم الاحصاء الحديث فان الشرق ليس معروفا اليوم أكثر مما كان فى القرنين الماضيين • ومن المؤكد أنه رغم زيادة عدد المسافرين فان الروابط التجارية التى كانت تربط ولاياتنا فى الجنوب بمدن الشرق قد أصابها الكثير من الضعف • ولا يقيم السواح فى العصر الحاضر فترات

---

(١) يقول المؤلف انه جبل يلتف بالارض كالخاتم وذلك فى معتقدات الشرقيين وهذه المعلومات ينقلها نرفال عن دى هامير مؤلف : «قصص لم تنشر من ألف ليلة وليلة» • (١٨٢٨)

طويلة تكفى لتعمق أسرار مجتمع ما لا تستطيع الملاحظة العابرة أن تكشف عن عاداته وأخلاقه • وفوق ذلك فان آلية النظم التركية قد تغيرت تماما منذ اصدار التنظيمات الجديدة وأصبحت هى الانجازات التى طالما تمنى الشريف (السلطان) المقيم فى قصر كل ـ خانة (١) تحقيقها • واليوم قد وطدت تركيا مركزها بحكومة منظمة قائمة على المساواة التامة بين مختلف رعايا الامبراطورية •

ان الرسائل وذكريات السفر التى يضمها هذان الجزءان (٢)لا يمكنها أن تقدم للقارىء انتظام الحركة والعقدة والخاتمة التى يمنحها الهيكل الروائى اذ انها لا تعدو ان تكون مجرد سرد لحوادث حقيقية . انالحقيقة هى ماتستطيع أن تكون • ويبدو أن الجزء الأول من هذا المؤلف قد حصل على ماحصل من نجاح بسبب ما اتسمت به قصة الجارية الهندية التى اشتريتها فى القاهره من الجلاب عبد الكريم من تشويق . ان الشرق لا يبعد عنا بالقدر الذى نتصوره • ولما كانت هذه الجارية حية ترزق فقد اضطررت الى تغيير اسمها فى القصة المطبوعة • وهى الآن متزوجة فى احدى مدن الشام ويبدو أن مصـــيرها قد استقر بصورة سعيدة • ان الرحالة الذى ألفى نفسه دون تفكير عميق قد تسبب الى الأبد فى تغيير حياة هذه الفتاة لم يطمئن بالا على مستقلبها الا حينما علم أن وضعها الحالى كان من اختيارها المطلق • وقد ظلت الجارية على العقيدة الاسلامية رغم الجهود التى بذلت لحملها على اعتناق الافكار المسيحية • ولن يستطيع الفرنسيون من الآن فصاعدا شراء الجوارى من مصر لأن أحدا منهم لن يجازف اليوم بالقاء نفسه فى المتاعب التى تجرها مثل تلك المسئولية الأدبية •

---

(١) قصر السلطان فى القسطنطينية حيث وقع السلطان عبد الميجد فى ٣ نوفمبر ١٨٣٩ امرا باعتماد «التنظيمات الخيرية» •

(المترجم)

(٢) نشرت رحلة الى الشرق فى طبعتها الاولى سنة ١٨٥١ فى جزئين •

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنش

(دار الكاتب العربى)

١٩٦٩